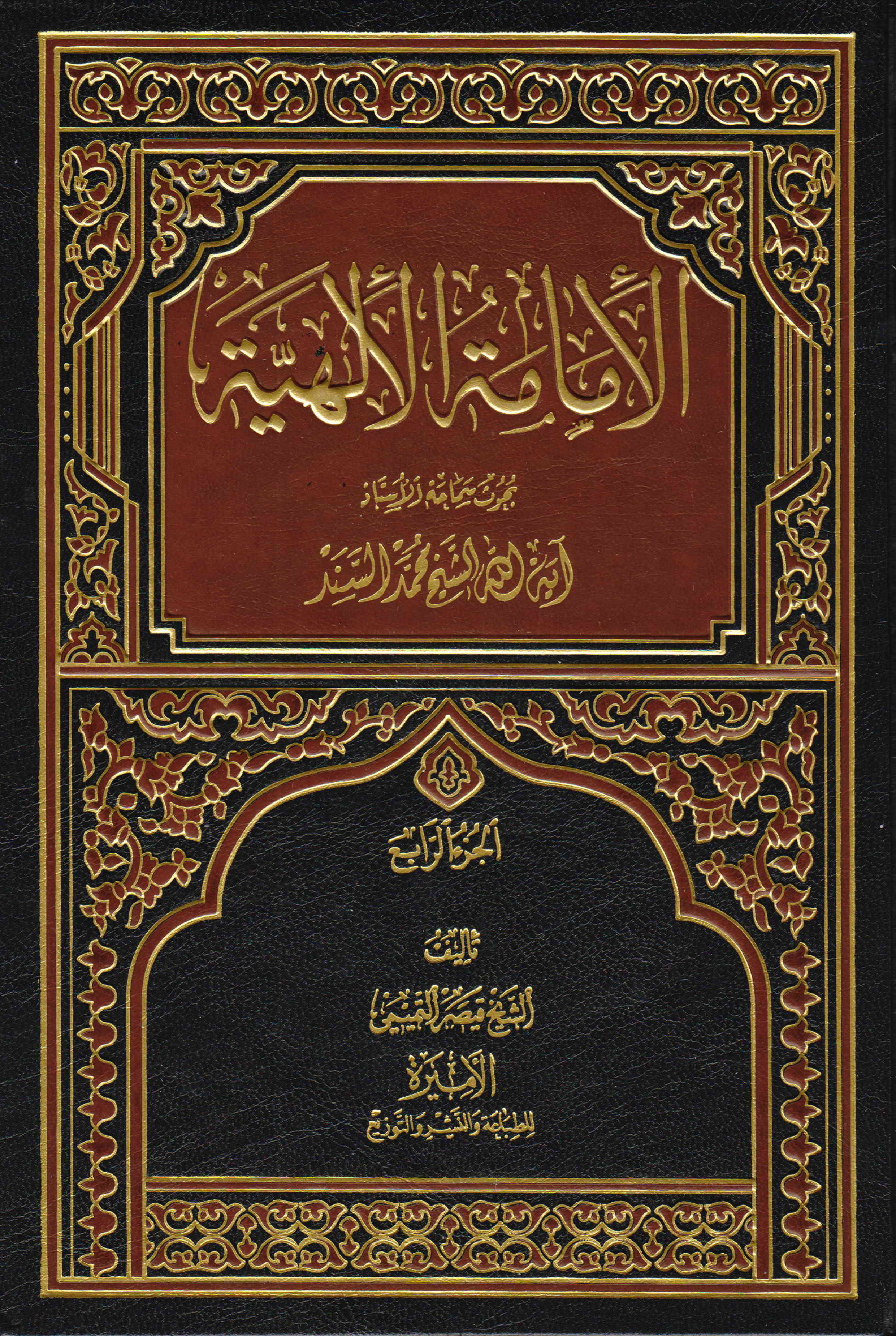

الإمامة الإلهية
بحوث سماحة الأستاذ
آية الله الشيخ محمد السند
الجزء الرابع
تأليف
الشيخ قيصر التميمي
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع


شبكة الفكر
alfeker.net


الإمامة الإلهية

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م



للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

هاتف: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٩٨٨
http://www.Dar-Alamira.com
e-mail:zakariachahbour@hotmail.com



الإمامة الإلهية

بحوث سماحة الأستاذ

آية الله الشيخ محمد السند

الجزء الرابع

تأليف

الشيخ قيصر التميمي

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ أحد أبواب عبادة الله تعالىٰ نظير الصلاة والصوم والدعاء والذكر ونحوها من أنواع وأجناس وأصناف العبادات وهو التوسّل إليه تعالىٰ بأصفيائه وبالذين أخلصهم بقرباه.

فإن التوسّل إليه بهم، نحو زلفى وقربى إليه تعالىٰ، فإن المتوسل يعطف بزمام قلبه إلى وجه الله تعالىٰ، وإن كان ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

فإن القبلة ليست إلّا وسيلة للتوجه بها إليه تعالىٰ، ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾(٢).

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾(٣).

فالقبلة ليست هي المعبود وإنما هي وجهة يتوجّه بها إليه تعالىٰ، ومن ذلك صار آدم صفيّ الله قبلة للملائكة وسجودهم لله تعالىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾(٤) ومن ذلك صارت بيوت موسى كليم الله تعالىٰ قبلة لبني إسرائيل في صلاتهم لله تعالىٰ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٥) ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(٦)، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ

---

(١) البقرة: ١٤٢ ـ ١٤٨.
(٢) البقرة: ١٧٧.
(٣) البقرة: ١٨٩.
(٤) البقرة: ٣٤.
(٥) يونس: ٨٧.
(٦) يوسف: ٤.

ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾(١).

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وقد روى النسائي والترمذي في حديث الأعرابي أن النبي ﷺ علّمه قول: «يا محمّد إني توجّهت بك إلى الله»(٣).

وروى الترمذي وابن ماجة حديث عثمان بن حُنيف، إن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، فقال النبي ﷺ:

«إن شئت صبرت فهو خير لك، وإن شئت دعوت»، قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ ويدعو بهذا الدعاء: «اللهمّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها، اللهمّ شفّعه فيّ». ورواه النسائي وصححه البيهقي، وزاد: فقام وقد أبصر(٤).

ومن ذلك يتبين أن التوجّه بالنبي ﷺ والاستشفاع به والاستعانة به إليه تعالىٰ وتقديمه بين يدي الحاجة إليه تعالىٰ، وتوسيطه هي عناوين موازية للتوسل به ﷺ إلى الله تعالىٰ، وقد قال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ**

---

(١) يوسف: ٩٩ـ ١٠٠.

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) سنن الترمذي /كتاب الدعوات، باب ١١٨، سنن ابن ماجه /كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها، باب فيها، باب ١٨٩، حديث ١٣٨٥.

(٤) سنن الترمذي /كتاب الدعوات، باب ١١٩، حديث ٣٥٧٨، سنن ابن ماجة /كتاب إقامة الصلاة، باب ١٨٩، حديث ١٣٨٥.

﴿الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[٢].

فأمر بابتغاء الوسيلة إليه تعالىٰ، وقد عيّن تلك الوسيلة وهي التوجّه في الاستغفار والتوبة والأوبة بالرسول ﷺ وأن استغفار النبي ﷺ وتشفعه دخيل في توبة الله تعالىٰ عليهم ورحمته لهم.

وقال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣] فجعل دعاء النبي ﷺ لهم دخيل في حصول السكينة والإيمان والطهارة لهم، وقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[٤]، وهذا نظير ما قاله تعالىٰ في قصّة أُخوة يوسف عليه السلام ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٥] وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٦]، وقوله تعالىٰ في شأن قوم موسى عليه السلام: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾[٧]، وقوله تعالىٰ في شأن قوم فرعون مع النبيّ موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ

---

(١) المائدة: ٣٥.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) التوبة: ١٠٣.

(٤) محمد: ١٩.

(٥) يوسف: ٩١ ـ ٩٢.

(٦) يوسف: ٩٧ ـ ٩٨.

(٧) البقرة: ٦١.

﴿عِنْدَكَ﴾(١)، وقوله تعالىٰ في شأن النبيّ عيسى عليه السلام: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾(٢)، وقوله تعالىٰ في شأن النبيّ موسى عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾(٣).

والوجيه في اللغة والمعنى هو ذو الحظوة والقرب مما يتوجّه به إلى الله تعالىٰ ويتوسّل به إليه.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(٤)، المفسَّر بمقام الوسيلة والشفاعة، كما في الدعاء المأثور «اللهمّ ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً صلى الله عليه وآله الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته وارزقني شفاعته يوم القيامة».

ومن ذلك ينجلي أن الإيمان بمقام الشفاعة له صلى الله عليه وآله يلازم الايمان بالتوسل، لأن التوسّل به صلى الله عليه وآله ينطوي على تشفّعه بقضاء الحاجة لديه تعالىٰ، فالاعتقاد بالشفاعة دليل رجحان التوسّل ﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾(٥)، ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾(٦)، فإذنه تعالىٰ في الشفاعة متطابق مع أمره تعالىٰ، ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾(٧)، أي بالتوسل إليه تعالىٰ بالوسائل الشافعة

---

(١) الأعراف: ١٣٤.

(٢) آل عمران: ٤٥.

(٣) الأحزاب: ٦٩.

(٤) الضحى: ٥.

(٥) الأنبياء: ٢٨.

(٦) مريم: ٨٧.

(٧) المائدة: ٣٥.

لديه، فالتوسل والاستشفاع به ﷺ إلى الله هو دعاؤه تعالىٰ، والوسائل التي أذن تعالىٰ أن يدعى بها هي أبواب لدعوته جلّ وعلا، لا دعوة من دونه.

وروى الحاكم في مستدركه أن آدم لما اقترف الخطيئة قال: يـا ربـي أسألك بحق محمّد ﷺ لمّا غفرت لي، فقال: يا آدم كيف عرفت؟ قال: لأنك لما خلقتني نظرت إلى العرش فوجدت مكتوباً فيه: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فـرأيت اسمه مقروناً مع اسمك، فعرفته أحبّ الخلق إليك(١).

وروى البخاري، عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا أقحط الناس استسقى بالعباس فقال: اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبيك، ونستشفع إليك بشيبته، فسُقوا.(٢)

وروى أحمد بن حنبل أن عائشة قال لها مسروق: سألتك بصاحب هذا القبر ما الذي سمعت من رسول الله؟ يعني في حق الخوارج قالت: سمعته يقول: إنهم شرّ الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم عند الله وسيلة.(٣)

وروى في كنز العمال عن عليّ ﷺ أن يهودياً جاء إلى النبيّ ﷺ فقام بين يديه وجعل يحدّ النظر إليه، فقال: يا يهودي ما حاجتك؟ فقال: أنت أفضل أم موسى؟ فقال: له: إنه يكره للعبد أن يزكي نفسه، ولكن قال الله تـعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٤)، إن آدم لما أصابته خطيئته التي تاب منها كانت توبته: «اللـهمّ انـي

---

(١) مستدرك الحاكم: ج٢ / ٦١٥.

(٢) صحيح البخاري /كتاب الاستسقاء، باب ٣، كتاب فضائل النبي، باب ١١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ج١ / ١٤٠، ورواه في سنن الدارمي /كتاب الجهاد باب ٣٩، وفـي سنن ابن ماجة: المقدمة، باب ١٤، حديث ١٧٠.

(٤) الضحى: ١١.

أسألك بمحمد وآل محمد لمّا غفرت لي»، فغفر له.(١) ويشير عليه السلام إلى قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰ ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

وقد أطلق القرآن الكلمة على المقربين عنده تعالىٰ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾(٣)، وقال تعالىٰ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾(٤).

وكيف لا يكون آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسائل الدعاء إلى الله تعالىٰ وقد حباهم الله تعالىٰ بالزلفى، واجتباهم وحظاهم بأنعمه الخاصة، وجعلهم السبيل إليه تعالىٰ، فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾(٥)، وقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾(٦)، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾(٧).

فمودّتهم سبيل إليه، وهم الوسيله للتوجه إليه تعالىٰ، وقد أبان قربهم إليه من بين الأمة ومزيد عنايته بهم، حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(٨).

ثم لا يخفى أن التوسّل والاستشفاع بالمقربين إلى الباري تعالىٰ، هو من

---

(١) كنز العمال: ١١ / ٤٥٥.
(٢) البقرة: ٣٧.
(٣) آل عمران: ٤٥.
(٤) آل عمران: ٣٩.
(٥) الشورى: ٢٣.
(٦) سبأ: ٤٧.
(٧) الفرقان: ٥٧.
(٨) الأحزاب: ٣٣.

آداب الدعاء والتوجّه إلى الحضرة الإلهية، فإننا كما نتوجه بجسمنا في الصلاة إلى المسجد الحرام والكعبة بقصد التوجّه الحقيقي بقلوبنا إلى الله تعالىٰ، فليست الكعبة إلّا وسيلة للتوجه إليه تعالىٰ، ومن شرائط عبادته تعالىٰ، فهذا يفصح عن دور الوسيلة والوسائل في التوجّه والدعاء، مع أن الشأن أينما تولّوا فثمّ وجه الله، لكن ذلك لا ينفي خصيصة المسجد الحرام والكعبة المشرّفة، ألا ترى أن الباري تعالىٰ جعل آدم عليه السلام قبلة لسجود الملائكة مع كون السجود هو لله تعالىٰ، ولم يقبل من إبليس اللعين السجود لله تعالىٰ من دون أن يتّخذ آدم قبلة يتّجه بها إليه تعالىٰ، وكرّر تعالىٰ هذه الواقعة في سبع سور قرآنية، كل ذلك لأجل أن يبين تعالىٰ أن من آداب عبادته تعالىٰ ودعائه التوجّه إليه بأوليائه المقربين، وأن هذا الأدب اللازم هو نمط من التعظيم لله تعالىٰ، كما هو الشأن في الكعبة المشرّفة والبيت الحرام، فقد جعل تعالىٰ لهما حرمة وتقديس، وجعل حرمتهما وتعظيمهما من حرمته وتعظيمه، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(١).

ولا يخفى على الفطن اللبيب أن مقتضى قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

---

(١) الحج: ٣٢.

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

إن فعله تعالىٰ وخلقته وجهاً وآية له تعالىٰ، فإن مخلوقية ما في الشرق وما في الغرب، أي ما في الكون أجمع آيات تتجه بالمتدبّر فيها إلى الله تعالىٰ، فهي وجه له تعالىٰ، والقبلة ما يقابل عند الاتجاه، وتولية الوجه جهة القبلة المقابلة بما هي رمز لوجهه تعالىٰ، فكأنا نستقبل بتولية وجوهنا تجاه القبلة وجهه تعالىٰ، إذ الاستقبال والمقابلة إنما تحصل بتوجه المستقبِل بالكسر بوجهه تجاه وجه المستقبَل بالفتح ـ فآياته الكبرى سبحانه وجه له تعالىٰ، وكذلك كلماته التامات هي آياته، وهي وجهة له تعالىٰ يتجه بها إليه، كما مرّ أن النبيّ عيسى عليه السلام كلمته وآيته ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(٣)، كما وصف بذلك النبيّ موسى عليه السلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا

---

(١) البقرة: ١٤٢ ـ ١٤٨.

(٢) البقرة: ١١٥.

(٣) آل عمران: ٤٥.

﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾(١). فوجهه تعالىٰ ليس ما يذهب إليه المجسمة الزائغة عن التوحيد من اثبات الجسم والأعضاء، تعالىٰ الله عن ما يقوله الظالمون علواً كبيراً، بل هو آيات خلقته التامة الدالة على عظمته وكماله.

وإن التوجّه إلى أشرف مخلوقاته هو تولية لشطر الوجه نحو وجهه الكريم، وفي رواية الصدوق في أماليه في قصّة الشاب النبّاش للقبور، حيث كان يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها واقفاً على باب رسول الله ﷺ، فأُدخل فسلّم فردّ ﷺ، ثم قال: ما يبكيك يا شاب؟ قال: كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوباً إن أخذني الله عزّ وجلّ ببعضها أدخلني نار جهنم ولا أراني إلّا سيأخذني بها، ولا يغفر لي أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ يسائله عن نوع معصيته، هل هي الشرك أو قتل النفس أو غيرها، إلى أن أقرّ الشاب بجنايته، فتنفّر نبي الرحمة من فظاعة جرمه، فذهب الشاب إلى جبال المدينة وتعبّد فيها، ولبس المسوخ، وغلّ يديه جميعاً إلى عنقه ونادى: يا ربّ، هذا عبدك بهلول بين يديك مغلول، يا رب، أنت الذي تعرفني، وزلّ مني ما تعلم يا سيدي، يا رب، إني أصبحت من النادمين، وأتيت نبيّك تائباً فطردني وزادني خوفاً، فأسألك باسمك وجلالك وعظمة سلطانك أن لا تخيب رجائي سيدي، ولا تبطل دعائي، ولا تقنطني من رحمتك، فلم يزل يقول ذلك أربعون يوماً وليلة، وتبكي له السباع والوحوش، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ على نبيه ﷺ آية في توبته **﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾**(٢)،

---

(١) الأحزاب: ٦٩.

(٢) آل عمران: ١٣٥.

ويقول عزّ وجلّ: أتاك عبدي يا محمد تائباً فطردته فأين يذهب وإلى من يقصد، ومن يسأل أن يغفر له ذنباً غيري، ثم قال عزّ وجلّ: **﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾**(١).

فجعل الباري الإتيان إلى نبيه وقصده إتيان إلى بابه تعالىٰ وقصد إليه، ومن ثم قال تعالىٰ في آية أخرى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾**(٢).

اللهمّ إنا نسألك ونتوجّه إليك بنبيك نبي الرحمة، وإمام الهدى، وآله المطهّرين الذين أذهبت عنهم الرجس، وافترضت علينا مودتهم في كتابك، صلواتك عليه وآله، يا رسول الله، يا رسول الله، إنّا توجّهنا واستشفعنا بكم إلى الله، فاشفعوا لنا عند الله، فإنكم وسيلتنا إلى الله، وبحبّكم نرجو النجاة، فكونوا عند الله رجانا.

عشّ آل محمّد عليهم السلام / ١٤٢٦ هـ

محمّد سند

---

(١) آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) النساء: ٦٤.



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

إن هذا الكتاب يعدّ محاولة جادّة لدراسة عقيدة التوسّل ونظرية التوسيط، التي كانت ولا زالت مثار جدل ديني وبشري دائر بين ثنائية القبول والجحود.

والذي يطالع المسيرة التاريخية لهذه المسألة جيّداً يجد أن الفكر البشري ـ الذي خاض صراعاً مريراً بين قوىٰ الشرّ المتمثلة بالطغاة والجبابرة المستكبرين وبين قوى الخير التي قاد مسيرتها الأنبياء والأوصياء المصلحين آمن واعتقد بكافة أطيافه ومكوناته بضرورة التوسّل، وهكذا اتخذت البشرية لنفسها وسائط تربطها بربّها العلي العظيم، الذي لا يمكن الارتباط به ارتباطاً جسمانياً حسّياً ولا مواجهته مواجهة نفسية أو عقلية لعلوّه وعظمته تبارك وتعالىٰ ولكن وللأسف نرىٰ أن القرآن الكريم بعد أن أرّخ تلك الملحمة صرّح بأن البشرية حادت عن طريق الصواب عندما حكّمت إرادتها على الإرادة الإلهية والسلطان الإلهي، فأخطأت الأفراد والمصاديق الحقيقية لمتعلّق تلك العقيدة الفطرية، حيث آمنت تحكيماً لسلطانها بوسائل ووسائط موهومة اقترحتها من لدن ذاتها، محكّمة في ذلك هواها علىٰ سلطان الربّ وإرادته.

قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ النجم: ٢٣.

وفي الوقت ذاته نجد أن الآيات القرآنية كما سيتضح في فصول الكتاب ـ أكّدت ودعت وألزمت الخلق باتخاذ الوسائط الإلهية والآيات البينات والعلامات الشارعات والحجج الباسقات التي نصبها الله عزّوجلّ لمخلوقاته وأمرهم بالتمسّك والتوسّل والتوجّه بها واللواذ واللجوء إليها والارتماء في أحضانها وحضرتها المشرّفة، من أجل التوصّل إلىٰ بصيص عظمة الله تعالىٰ ونيل القرب منه وقبول وتحقّق العقيدة الصحيحة وارتفاعها بالعمل وتفتّح أبواب السماء لها بالآيات والحجج.

ولكن مع ذلك كلّه يُلاحظ أن كلاماً من هنا وهناك قد يطلقه بعض مَن لم يدرك حقيقة الأمر تقنيعاً لجحوده وتشويهاً لعقيدة التوسّل، حيث نجد أن أفراداً عندما جحدوا تلك العقيدة حاولوا أن يلصقوا تهمة الشرك وعبادة غير الله تعالىٰ بالمسلمين الذين آمنوا بعقيدة التوسّل وتعاطوا الوسائط وتوجّهوا إلىٰ الله تعالىٰ بآياته وحججه الكبرىٰ في عقيدتهم ودعائهم وعباداتهم.

ثمّ تفاقم الأمر حتىٰ بلغ الحال ببعضهم أن حكم بكفر طوائف من المسلمين واستحلّ دماءهم لتوسّلهم وتوجّههم واستجارتهم بأنبياء الله ورسله وخلفائه في الأرض.

واستمرت مسيرة الانحرف المقنّعة بشعارات التكفير حتىٰ اتخذت لنفسها أثواباً جديدة تتناسب ومتطلبات العصر، حيث وصفوا عقيدة التوسّل بالتسوّل والاستجداء، وقالوا إن التوسّل بالأنبياء والرسل والأوصياء صنمية

وغلوّ في الأشخاص، وقد تناسوا أن هذه مقالة إبليس عندما أبىٰ واستكبر بنفسه عن السجود إلىٰ خليفة الله وجعْله واسطة في نيل رضا الربّ عزّوجلّ، وأصبح بذلك مذموماً مدحوراً مطروداً عن ساحة الرحمة الإلهية.

خطة البحث:

لا يخفىٰ علىٰ القارئ الكريم أن هذا الكتاب هو مجموع الأبحاث التي ألقاها علىٰ جمع من طلبة العلم سماحة الأُستاذ المحقّق آية الله الشيخ محمّد السند، حيث قام بتسليط الضوء علىٰ عقيدة التوسّل وبيان مساحتها ودائرتها ومنزلتها ودورها في منظومة العقيدة الإسلامية علىٰ ضوء البيانات القرآنية المعتضدة بالعقل والسنّة النبويّة ومنهاج أهل البيت عليهم السلام.

وقد وفّقني الله تعالىٰ لتقرير هذه الأبحاث القيّمة فجاءت علىٰ أربعة فصول وخاتمة.

أما الفصل الأول: فقد تركّز البحث فيه علىٰ بيان حقيقة التوسّل في اللغة والاصطلاح، ثم إعطاء التصورات الصحيحة حول عقيدة التوسّل ودور الوسائط والوسائل والتوجّه إليها والتوسّل بها في العقيدة التوحيدية، وبعد ذلك تمّ التعرّض للأدلّة العقلية والتحليلية والتاريخية التي تنصّ علىٰ ضرورة التوسّل بحسب الدائرة الكونية والأدبيات الدينية وتأريخ الأديان وأعراف العقلاء وشرعياتهم.

وأما الفصل الثاني: فقد تمحور البحث فيه علىٰ الأدلّة والآيات القرآنية التي نصّت علىٰ التشريع الإلهي لعقيدة التوسّل، حيث ميّزت الآيات القرآنية الوسائط والوسائل المستنكرة عن غيرها، وإن الشرك بالتوجّه إلىٰ الوسيلة

المقترحة والمخترعة من سلطان العبد ذاته، وأن التوحيد التامّ بالتوسّل والتوجّه إلىٰ آيات الله وحججه التي أمر العباد باتخاذها وسيلة، والإعراض عن هذه الوسائط والاستكبار والصدّ عنها غلق لأبواب السماء وحبط للأعمال وطرد وإبعاد عن رحمة الله تعالىٰ.

وأما الفصل الثالث: فقد تمّ التعرّض فيه إلىٰ ضرورة وشرطية ولابدّية التوسّل في صحة العقيدة وسائر العبادات وكذا شرط في نيل المقامات الإلهية والمنح الربّانية، واستدللنا علىٰ ذلك بالآيات الصريحة التي تنصّ علىٰ أن التوسّل والتوجّه بالحجج الإلهية ليس أمراً راجحاً بيد العبد فعله أو تركه، بل هو أمر حتمي وضروري لابدّ منه، ومن دونه تكون أبواب السماء مقفلة بوجه العقيدة والعبادة ونيل المقامات ودرجات القرب.

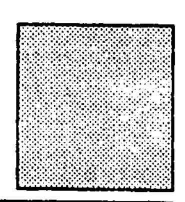
وفي الفصل الرابع: تم التعرّض لأهم الشبهات التي ذُكرت حول التوسّل مع الإجابة عنها.

وأما في الخاتمة: فقد ذكرنا بعض الروايات التي وردت في مجامع أهل سنة الجماعة، التي تنصّ علىٰ مشروعية التوسّل وضرورته، وكذا ذكرنا بعض كلمات أعلام السنّة حول التوسّل.

وختاماً أتوجّه إلىٰ الله عزّوجلّ بنبيه الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين أن يحفظ شيخنا الأُستاذ وأن يتقبّل منه ومنّا هذه البضاعة إنه نعم المولىٰ ونعم النصير.

الشيخ قيصر التميمي

٢٥ /ذي القعدة / ١٤٢٦هـ



الفصل الأول

- تمهيد
- التوسّل في اللغة والإصطلاح
- التوسّل عبادة توحيديّة
- الأدلة العقليّة والتاريخيّة
- الأدلّة التحليليّة

تمهيد

إنّ مبدأ التوسّل والدعاء وطلب الشفاعة والاستغاثة بالنبيّ ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام من المبادئ الأصيلة والأساسية في الدين التي دلّ علىٰ مشروعيتها وضرورتها صريح العقل والقرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام.

ولقد آمن بهذه العقيدة في الإسلام عموم المسلمين بكافّة فرقهم وطوائفهم، حيث أن سيرتهم جارية علىٰ اللجوء إلىٰ ساحة النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

ولكن حاول البعض تبعاً لمنهج الجحود والجاحدين بذريعة وغطاء وقناع التكفير والمكفّرين ـ أن يُلصق تهمة الشرك والكفر بهذه العقيدة الإسلامية، حيث تحايل لجحوده بأن ادّعىٰ أن التوسّل من أصناف الشرك في العبادة، وزعم أن الآيات والروايات دالّة علىٰ ذلك.

ونحن قبل الشروع في ذكر ما استعرضوه من أدلّة وشبهات والإجابة عنها، لابدّ من بيان ما هو الحقّ في المسألة، وذلك عن طريق إعطاء التصوّرات

الصحيحة والبراهين القاطعة الدالّة علىٰ مشروعية بل ضرورة التوسّل بأصفياء الله تعالىٰ، لأجل نيل القرب منه عزّ وجلّ وقبول الطاعات والعبادات وفتح أبواب السماء لاستجابة الدعاء وقضاء الحاجات، وأن المنكرين والجاحدين للتوسّل بأولياء الله يجعلون التوسّل بهم من التوجّه إلىٰ غير الله تعالىٰ ليفرّقوا بين الله ورسله قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾[١].

وذلك كلّه استناداً إلىٰ الأدلّة العقلية والتحليلية والتاريخية والقرآنية والروائية الناصّة علىٰ ذلك.

* * *

(١) سورة النساء ٤: ١٥٠.

التوسّل في اللغة والاصطلاح

١ ـ التوسّل لغة :

قال الفراهيدي في كتابه اللغوي «العين»:

وسل: وسّلت إلىٰ ربّي وسيلة ، أي عملت عملاً أتقرّب به إليه ، وتوسّلت إلىٰ فلان بكتاب أو قرابة ، أي تقرّبت إليه[1].

وقال الجوهري في الصحاح:

الوسيلة: ما يتقرّب بـه إلىٰ الغير ، والجـمع الوسـيل والوسـائل ، والتـوسيل والتوسّل واحد ، يقال: وسّل فلان إلىٰ ربّه وسيلة وتوسّل إليه بوسيلة ، أي تقرّب إليه بعمل[2].

ومثله ما في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير[3].

وقال ابن منظور في لسان العرب:

الوسيلة: المنزلة عند الملك ، والوسيلة: الدرجة ، والوسيلة القـربة ، ووسّـل فلان إلىٰ الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرّب به إليه ، والواسل الراغب إلىٰ الله.

---

(١) كتاب العين / الفراهيدي: ص٢٨٩.

(٢) الصحاح / الجوهري: ج٥ ص١٨٤١.

(٣) النهاية في غريب الحديث: ج٥ ص١٨٥.

وتوسّل إليه بوسيلة إذا تقرّب إليه بعمل.

والوسيلة الوصلة والقربىٰ، وجمعها الوسائل(١).

والذي يتحصّل من كلمات اللغويين أن التوسّل والوسيلة:

هي ما يجعله العبد من الواسطة بينه وبين ربّه لأجل التوصّل بها إلىٰ تحصيل المقصود وهو القرب منه عزّ وجلّ، أو مطلق ما يوسّطه الشخص للتقرّب به إلىٰ الغير من عمل أو كتاب أو قرابة أو غيرها.

٢ ـ التوسّل اصطلاحاً:

التوسّل في الاصطلاح قريب جدّاً من المعنىٰ اللغوي، بل هو عينه والاختلاف في تحديد المصاديق التي نصبها الله تعالىٰ للتوسّل والتقرّب بها إليه عزّ وجلّ.

وسيأتي مزيد إيضاح لبيان حقيقة التوسّل اصطلاحاً عند استعراض الأدلّة القرآنية حول التوسّل في الفصل اللّاحق.

* * *

(١) لسان العرب / ابن منظور: ج ١١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

التوسّل عبادة توحيدية

دور الوسائط الإلهيّة وضرورة التوسّل بها :

إنّ الحقيقة التي نريد أن ندّعيها تحت هذا العنوان ، هي: إن نفي الوسائل والوسائط الإلهيّة والإعراض عنها في حال توجّه العبد إلىٰ الله هو الشرك بعينه.

وإنّ توسّل العبد بالآيات الإلهيّة وتوجّهه وتشفّعه بالوسائط ، التي نصبها الله عزّ وجلّ من أجل قضاء حوائجه أو قبول توبته وأوبته وعبادته ونيله للحظوة والقرب من الله تعالىٰ ، هو التوحيد الحقيقي والتام المرضي عند الله عزّ وجلّ.

توضيح المدّعى :

من أجل إعطاء تصوّرات صحيحة حول ما ادّعيناه آنفاً نقول: إن الوسائل والوسائط إذا كانت مجعولة ومنصوبة من قبل الله عزّ وجلّ ، فإن التوسّل والتوجّه بها واللجوء إليها والاستغاثة والاستجارة بها إلىٰ الله تعالىٰ هو التوحيد التام ، وفي الوقت ذاته يكون الإعراض عنها والاستكبار عليها والتوجّه إلىٰ الله تعالىٰ بالمباشرة شركاً واستكباراً علىٰ الله عزّ وجلّ ومبارزة له في سلطانه.

وأما إذا لم تكن تلك الوسائط مجعولة ولا منصوبة من قبل الله تعالىٰ ، فإن

التوسّل بها والتزلّف إلىٰ الله عن طريقها يكون شركاً وصنمية ووثنية وعبادة لغير الله تعالىٰ، سواء كان صنماً قرشياً في الجاهلية أو وثناً عصرياً.

بيان الأدلّة:

ولهذه الدعوىٰ التي ذكرناها أدلّتها المتنوعة، ونحاول أن نشير في هذا الفصل إلىٰ الأدلّة العقلية والتاريخية والتحليلية، وأما الأدلّة القرآنية فسيأتي ذكرها في الفصل اللّاحق.

الأدلّة العقلية والتاريخية

١ ـ الدليل العقلي :

هنالك بيانات متعدّدة للدليل العقلي الدالّ علىٰ مشروعيّة وضرورة التوسّل، نستعرض فيما يلي بعض تلك البيانات العقلية:

البيان الأول:

(التوسّل بالوسائط الإلهيّة تحكيم لسلطان الله علىٰ سلطان العبد)

إنّ نصب الوسائط والأبواب من قبل المخلوقين والعبيد باقتراحهم واختراعهم يُعدّ تصرّفاً في سلطان الله عزّ وجلّ، ونوع من تحكيم إرادة العبد وهواه علىٰ إرادة ربّه، ويكون هذا الفعل من العبد شركاً ونديّة ووثنية جاهليّة.

فالعبد هو الذي ينادد ربّه في جعله الوسائط واختراعها، سواء من ناحية العمل كاتّخاذ الأحجار والأصنام وجعلها واسطة بين العبيد وبين ربّهم، أم كان من ناحية الفكر والمعتقد وذلك كاتّخاذ العقل الذاتي البشري ربّاً وزعم عدم محدوديته وأنّه يتّسع في الحكم والبتّ في الحقائق بلغ ما بلغ، فإن هكذا توسيط من قبل البشر وباقتراحهم يُعدّ مغالاة وشركاً في سلطان الله؛ لأنّها تكون منادّدة

لله تعالىٰ وصنميّة للعقل، بدعوىٰ (إن الحكم إلّا للعقل).

فمن يجعل لنفسه وسيطاً لم ينصبه الله عزّ وجلّ ولم يأذن به فهذه هي الصنمية، والتزلّف والتقرّب بتلك الوسائط غير المأذون بها هو الشرك الناقض للإيمان، لأنّه منازعة لله تعالىٰ في سلطانه، سواء كانت أصنام العرب أم غيرها من الجهالات والجاهليات الحديثة.

وأما التوسّل والتوجّه بالوسائط التي جعلها الله عزّ وجلّ ونصبها لخلقه فهو التوحيد التامّ، والإعراض عن تلك الحجج والأبواب الإلهيّة التي نصبها الله عزّ وجلّ وترك التوجّه إليها هو الشرك الناقض للإيمان أيضاً؛ لأنّه استكبار علىٰ إرادة الله تعالىٰ وسلطانه.

فالتوحيد التامّ إنما يكون بالانصياع والخضوع أمام الأبواب والوسائط التي جعلها الله عزّ وجلّ، وذلك بالتوسّل بها وتوسيطها بين العبد وربّه.

والسرّ في شرك المشركين والإنكار الإلهي لعقيدتهم الصنمية ليس لأصل شعورهم بالحاجة إلىٰ الوسائل والوسائط والشفعاء، بل كان شركهم في اقتراحهم الوسائط والتدخّل في سلطان الله تعالىٰ وتحكيم إرادتهم وسلطانهم، من دون الانصياع والطوعانية لإرادة الله عزّ وجلّ.

فمصبّ إنكار الباري تعالىٰ عليهم ليس هو إنكار نظرية ضرورة الوسائط، بل في كون الوسائط مقترحة من قبلهم.

والقرآن الكريم أيضاً كما سيأتي ـ لا يستنكر علىٰ المشركين نظرية ومقالة الأبواب والوسائط، بل علىٰ العكس؛ إذ القرآن يقرّها ويثبتها، وإنما تخطئته للمشركين بالصنميّة في اقتراحهم الوسائط والوسائل من قبل أنفسهم، ويحتّم

علىٰ المشركين أن تكون الوسائط بسلطان الربّ وإرادته.

والقرآن الكريم كما سيأتي أيضاً ـ يقرّر نظرية الوسائط بأنها أمر فطري وضروري لابدّ منه.

وبعبارة أُخرىٰ: لا يكفي في نفي الشرك وتحقّق التوحيد التام من العبد نفيه الوسائط المخترعة والمقترحة من قبل البشر، بل عليه أن يتوسّل بالوسائل والحجج التي نصبها الله عزّ وجلّ؛ وذلك لأن من يقف عند إنكار الوسائط المقترحة فقط كمن قال: (لا إله) وسكت من دون أن يذكر المستثنىٰ، حيث أنه يوجب الكفر لا التوحيد.

خصوصاً وأن كلمة (لا إله إلّا الله) ليست كلمة للتوحيد في الذات والصفات والأفعال فحسب، وإنما هي توحيد أيضاً في مقام العبادة والخضوع والتوجّه والدعاء، فلا عبادة ولا خضوع ولا توجّه إلّا لله تعالىٰ، ومعنىٰ ذلك نفي الوسائط والشفعاء الذين لم يأذن بهم الباري تعالىٰ، فلا إله ولا وله ولا تشفّع ولا تقرّب إلّا بما أثبته الله تعالىٰ، ولا يكفي نفي ونبذ الوسائط المقترحة، بل لابدّ من إثبات الوسائط التي جعلها ونصبها الله عزّ وجلّ.

والنبيّ الأكرم ﷺ والمعصومون ﷺ وسائط وأبواب منصوبة من قبل الله تعالىٰ.

والحاصل: إن الشريعة الإسلامية جاءت لنبذ الصنمية القديمة منها والحديثة والمغالاة في الأشخاص الذين لم ينصبهم الله تعالىٰ والتوجّه إليهم.

وأما من نصبهم الله عزّ وجلّ وجعلهم وسائط وأبواب، فلابدّ من التوجّه إليهم والتوسّل بهم والانشداد إليهم؛ لأن التوجّه والانشداد إلىٰ الآيات

والعلامات إنشداد وتوجّه إلىٰ من له الآيات، وكلّما تنمّر الشخص في الانشداد إليهم وأخلص في الولاء لهم كلما ازداد توحيده وازداد ولاؤه وانشداده إلىٰ الله تعالىٰ، والعكس بالعكس، نظراً لشدّة قربهم إلىٰ الباري، فالاقتراب منهم اقتراب منه والابتعاد عنهم ابتعاد عنه تعالىٰ، فإن الآية والعلامة كلّما كانت كبيرة وعظيمة في حكاية ذي الآية فهي نظير المرآة الشديدة زيادة في المعرفة لهوية الحقيقة التي تحكيها المرآة؛ لأنّ طبيعة المرآة والآية عبورية واستطراقية توصّل إلىٰ الحقيقة، والإيصال صفة ذاتية لها لا تنفكّ عنها، وهذه خاصية الآيات والوسائل المنصوبة من قبله تعالىٰ.

البيان الثاني: الاختلاف في المراتب الوجودية

وهو بيان عقلي فطري استند إليه آدم ﷺ في توسّله إلىٰ الله عزّ وجلّ بالنبيّ الأكرم ﷺ؛ لكونه أحبّ الخلق إلىٰ الله تعالىٰ، وكذلك استند إليه إبراهيم ﷺ في استغفاره لعمّه آزر، وهو الحفاوة والحظوة والزلفىٰ عند الله تعالىٰ.

بيان ذلك: هناك ضرورة عقليّة ذكرها الفلاسفة، وهي أن الله تعالىٰ وإن كان هو الخالق لكلّ شيء ولا خالق سواه، ولكن إيجاد المخلوقات من قبله تعالىٰ ليس علىٰ رتبة واحدة، بل هي ذات مراتب متعدّدة مشكّكة، وهذه ضرورة لابدّ منها، وليس ذلك لعجز في قدرة الباري، تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً؛ إذ هو علىٰ كلّ شيء قدير، وإنما النقص والعجز في طرف القابل والمخلوق؛ وذلك لأنّ شيئيّة الأشياء لا تتقرّر ولا يمكن أن تفرض متحقّقة إلّا بعد إمكانها، فمع عدم إمكانها لا شيئيّة لها، والموجودات والمخلوقات النازلة في الرتبة الوجودية،

كـالموجودات المـادّية مـثلاً أو البـرزخـية، لابـدّ لهـا مـن سـلسلة إعـدادات ومخلوقات سابقة، تكون مجاري فيض الله عزّ وجلّ، والمخلوق السـابق فـي الرتبة الوجودية يكون سبباً لتقرّر إمكان المخلوق اللّاحق، وليس ذلك إلّا لعجز القابل والمخلوق النازل في الرتبة عن التلقّي من الله تعالىٰ بالمباشرة، فلابدّ له من واسطة ومجرىً في الفيض الإلهي لأصل ذاته وكمال صفاته؛ ولذا الانسـان ببدنه المادّي مثلاً لا يتقرّر له إمكان إلّا بعد خلق المعدّات له وتسخير الأرض والسماء والماء والهواء والمخلوقات الحيّة وغيرها، ففي الخلقة المادية توجد إعدادات كثيرة أعدّها الله تعالىٰ وسخّرها للانسان، لكي يعيش حياة ممكنة في هذا الكون، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[1].

ومن هنا ورد من طرق الفريقين أن أوّل ما خلق الله تعالىٰ العقل، أو أوّل مـا خلق الله تعالىٰ نور النبيّ الأكرم ﷺ[2]، ولا تنافي بينهما.

وورد أيضاً أن الله تعالىٰ أبىٰ أن يُجري الأمور إلّا بأسبابها[3]، فسنّة الخلقة في هذا العالم الإمكاني عن طريق الأسباب والمسبّبات، بجعل المـخلوق السـابق سبباً لأن يخلق الله تعالىٰ المخلوق اللّاحق بنحو التقدّم والتأخّر الرتبي.

ولا شك أن التقدّم في الرتبة الوجودية بين المخلوقات مـعناه أن المـخلوق الأسبق رتبة أشرف وأكرم وأقرب إلىٰ الله تعالىٰ من المـخلوق اللّاحـق، وهـو مجرىٰ سيب الباري عزّ وجلّ إليه، وسبب لتفتّح أبواب السماء لتلقّي الفيض.

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) كشف الخفاء / العجلوني: ج١ ص٢٦٥، ينابيع المـودة / القـندوزي الحـنفي: ج١ ص٥٦، بحار الأنوار: ج٥٤ ص١٧٠.

(٣) بصائر الدرجات: ص٢٦، الكافي: ج١ ص١٨٣.

إذن أصل فكرة الوساطة والسببية والوسيلة سنّة إلهية تكوينية سنّها الله عزّ وجلّ في خلقة الممكنات، وحينئذٍ نقول: إنه مما اتفقت عليه طوائف المسلمين وفرقها أن السنّة التشريعية لا تخالف السنّة التكوينية، فالشريعة تتناسب وتتلاءم مع الخلقة والفطرة التكوينية، كما قال تعالىٰ: ﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾(١).

وهذا بيان عقلي واضح دالّ علىٰ ضرورة التوجّه والتوسّل بالمقرّبين وبالمخلوقات الكريمة علىٰ الله تعالىٰ، وهذه هي الحفاوة التي استند إليها آدم وإبراهيم عليهما السلام في استغفارهما إلىٰ الله تعالىٰ.

وبعبارة أخرىٰ: إن من المعاني والحقائق الذاتية للقرب والمقرَّب أن الاقتراب إلىٰ المقرَّب (بالفتح) يُقرِّب؛ لأنّه مقتضىٰ قربه، كما أن الابتعاد عنه ابتعاد عمّن هو قريب إليه بمقتضىٰ قربه أيضاً، وهذه القاعدة غير مختصّة بالقرب والبعد المكاني، بل هي مطّردة في كلّ أنماط القرب والبعد علىٰ الصعيد المعنوي، من كمالات الوجود من العلم والقدرة والحياة والنور، وعلىٰ ضوء ذلك يكون بيان الشرع لكون شيء مقرّب هو بنفسه تحضيضاً وتشريعاً للتوسّل به والتقرّب إلىٰ الله بالتوجّه إليه، وهذه الدلالة بديهية فطرية يدركها عامّة البشر بفطرتهم، فإن إعطاء المالك وذو القدرة والعظمة والعزّة لشيء القرب واتخاذه مقرّباً يلازم إعطاءه مقام الشفاعة، فيلازم الإذن بالاستشفاع والتوسّل به، كما أن إنكار الإذن بالتوسّل والاستشفاع به إنكاراً لكونه مقرّباً، وبالتالي يستلزم الإنكار تكذيب المالك والاعتراض عليه في اتخاذه ذلك الشيء مقرّباً، وكذلك الحال

---

(١) سورة الروم ٣٠: ٣٠.

فيما إذا أخبر من له السلطان والقدرة بأن شخصاً وجيهاً عنده، أي ذو حظوة وزلفىٰ لديه وحبيباً له، فإنه إذن وإعطاء المقام الشفاعة له، ويلازم الإذن بالاستشفاع والتوسّل به، فجحود التوسّل به جحود لوجاهته وزلفاه.

البيان الثالث: وجوب الاحترام والتعظيم

وهو أيضاً شرح وبيان للحفاوة والأقربية ومعتمد علىٰ أصول فطرية جبلّية، وذلك أن الأسلوب الجاري والمتّبَع في شرعيّات البشر وأعرافهم وآدابهم العقلائية والاجتماعية عند بعضهم البعض، هو أن طريقة الوفود علىٰ شخص يجب أن تكون بالاستئذان من الباب والحُجّاب والشفعاء والوسائل التي تؤدّي إليه، وأن يكون ذلك بمنتهىٰ الأدب والاحترام.

وبعبارة أُخرىٰ: إن الشخص عندما يتوسّل بشخص آخر للدخول علىٰ عظيم يُعدّ نوعاً من أنواع الاحترام والتعظيم والتأدّب، وزيادة في إبداء الحرمة والاحترام، فأنت مثلاً عندما تتّخذ المقدّمات والاجراءات اللّازمة وتأتي عن طريق الحُجب والأبواب صيانة لحرمة مَنْ تفد عليه، فإن في ذلك مزيد الأدب والاحترام وإن لم يكن ذلك الطرف محجوباً في نفسه، ولو لم تُراع تلك الاجراءات فكأنك تكون قد هتكت حريمه.

وقد ذمّ الله عزّ وجلّ الذين ينادون النبيّ الأكرم ﷺ من وراء الحجرات، وأمر بإتيان البيوت من أبوابها، وأن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتىٰ يستأذنوا فيؤذَن لهم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا

﴿الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

وقال أيضاً عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٣).

وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: **«أنا مدينة العلم وأنت ياعليّ بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها»**(٤).

ونجد أن هذا الأدب الإلهي قد قرّره الشارع المقدّس في الوفود علىٰ بيت الله الحرام، فجعل الإحرام مقدّمة للتهيّؤ وباباً للتعظيم.

لا يقال: أن الجاري في هذه الأعراف أمور متواضع عليها ولا ربط لها بالحقائق.

فإنه يقال: إن من المقرّر في محلّه أن الاعتبارات العقلائية ليست أموراً جزافية، بل لها مناشئ حقيقية ورابطة تكوينية، وقد أمضىٰ الله تعالىٰ تلك الاعتبارات.

ثم إن الله عزّ وجلّ نصب أبواباً ووجهاء مقرّبين يتوجّه بهم إليه من باب التأدّب مع الله تعالىٰ، ولذا عندما يريد الشخص المسلم أن يطلب حاجته من الله تعالىٰ في الدعاء وفي غيره، لابدّ من تقديم الثناء علىٰ الله عزّ وجلّ وشكره

---

(١) البقرة: ١٨٩.

(٢) النور: ٢٧.

(٣) الحجرات: ٤.

(٤) شواهد التنزيل / الحاكم الحسكاني: ج١ ص١٠٦، كنز العمال: ج١٣ ص١٤٨.

وحمده، ثم يطلب حاجته بعد ذلك، كما هو مذكور في كتب الفريقين(١).

وكما جاء ذلك في سورة الحمد، التي يقرؤها الفرد المسلم في اليوم والليلة عشر مرات على الأقلّ، حيث قُدّم فيها المدح والثناء والشكر والحمد لله تعالىٰ، ثم بعد ذلك يطلب المصلّي والقارئ للحمد حاجته من الهداية وعدم الغواية والضلال.

إذن التوسّل بمن يكون وجيهاً عند الله من التأدّب والتعظيم لله عزّ وجلّ، والوفود على الله مباشرة من قبل الأفراد العاديين الذين لا يحرز كون وجوههم مقبولة عند الله تعالىٰ، بل قد يكون مطروداً من ساحة العظمة بسبب ما يقترفه من الذنوب ـ يعدّ من الكبرياء والجفاء والجفوة مع الله تبارك وتعالىٰ والعتو عليه، وهذا على خلاف الفطرة التوحيدية، بل إن الله عزّ وجلّ ذمّ الذين يصدّون عن الوسائط ويطلبون الارتباط المباشر بالسماء، بما بيّناه في هذا الوجه، قال تعالىٰ: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا** ﴾(٢).

فنحن المذنبون المقصّرون القاصرون عن نيل المقامات الرفيعة يجب أن لا نطلب الحاجة إلى الله تعالىٰ إلّا بعد تقديم المقدّمات، والتوسّل بالمقربين والوجهاء المرضيين عند الله عزّ وجلّ، وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾.

والحاصل: إن التوسّل من مبادئ الأصول الفطرية والأخلاقية، وهو مقتضىٰ

(١) وسائل الشيعة: ج٧ ص٨١، عدّة الداعي / ابن فهد الحلّي: ص١٤٨، فتح الباري / ابن حجر: ج٣ ص٤.
(٢) الفرقان: ٢١.

التواضع والخضوع في التوجّه والوفود علىٰ الله تعالىٰ، وفيه زيادة ورفعة في التوحيد؛ لأنّ التواضع حالة توحيدية خالصة، ورفض التوسّل استكبار ورعونة لا تناسب الأدب التوحيدي، ويستنكره العقل ويشجبه العقلاء في تعاملهم.

ولابدّ من التنبيه علىٰ أن الآيات القرآنية كما تقدّم ويأتي في الفصل اللّاحق لا تثبت أن الوفود علىٰ الله تعالىٰ من دون التوسّل بالآيات الإلهية مخلّاً بالأدب مع الحضرة الربّانية فحسب، بل هي تصرّح بامتناع الوفود عليه عزّ وجلّ من دون آياته وحججه، وامتناع التوصّل إلىٰ ذاته المقدّسة؛ لقصور في القوابل والاستعدادات.

٢ ـ الدليل التاريخي (السيرة):

لا ريب أن هناك ضرورة إسلامية وقرآنية تؤكّد علىٰ أن فصل الشهادة الثانية وهي شهادة أن محمّداً رسول الله ـ عن الشهادة الأولىٰ وهي شهادة لا إله إلّا الله ـ وإنكارها يُعدّ شركاً، وخروجاً عن دائرة التوحيد التام، الذي جاءت به الشريعة الإسلامية الخاتمة.

وعندما نرجع إلىٰ القرآن الكريم نجده يحكم بالشرك والوثنية علىٰ الطقوس والمناسك العبادية التي يأتي بها أهل الكتاب، وإن كانوا يدّعون أنهم علىٰ دين موسىٰ أو عيسىٰ عليهما السلام.

وفي الوقت ذاته اعتبر القرآن الكريم عبادة قريش وحجّهم ومناسكهم وصلاتهم تجاه الكعبة من الشرك والجاهلية وعبادة الأوثان.

فالطقوس العبادية القرشية التي يزعمون أنها علىٰ ملّة إبراهيم عليه السلام، كالصلاة

إلىٰ الكعبة وحجّ بيت الله الحرام والاتيان بمناسكه كالطواف والسعي والوقوف بعرفات والمزدلفة وسَوق الهدي، كلّها حكم عليها القرآن الكريم بالوثنية والشرك والعبادة لغير الله تعالىٰ، وليس ذلك إلّا لعدم الرجوع إلىٰ رسول الله ﷺ وقطع الصلة به والابتعاد عنه والتخلّي عن ولايته، وعدم الخضوع والطاعة له، وعزل الشهادة الثانية وفصلها وبترها عن الشهادة الأولىٰ.

فإنّ ذلك كلّه يجعل العبادات والمناسك بأجمعها شركاً ووثناً وجاهليّة، كالطواف حول الكعبة مثلاً يعتبر شركاً وطاعة وعبادة لغير الله عزّ وجلّ فيما إذا افتقد الشهادة الثانية والتولّي لنبيّ الإسلام ﷺ.

والفرق بين حجّ المشركين وحجّ المسلمين، هو أن المشركين يأتون بالمناسك من دون الخضوع والتسليم والتولّي لخليفة الله تعالىٰ، وأما المسلمون فهم يأتون بمناسك الحجّ مع خضوعهم لولاية النبيّ ﷺ وإقرارهم بالشهادة الثانية، ولذا كان حجّهم طاعة وعبادة خالصة لله عزّ وجلّ.

وقريش إنما خرجت من مغبّة الشرك والوثنية ودخلت الإسلام بإقرارها بالشهادة الثانية وتولّيها للنبيّ الأكرم ﷺ والأخذ عنه والخضوع لطاعته وأوامره.

فليس التوحيد بالاتجاه مباشرة إلىٰ الله تعالىٰ والانقطاع عن الوسائط، ولا الشرك بجعل الواسطة بين العبد وربّه، بل الوثنية والشرك في منطق القرآن الكريم رفض التسليم لولاية خاتم الأنبياء ﷺ؛ وذلك لأن الوثن والوثنية طاعة غير الله عزّ وجلّ، والعبد إذا أنكر الواسطة التي نصبها الله تعالىٰ بينه وبين عبيده، لا يبقىٰ له مجال وطريق لاستعلام أوامر الله ونواهيه وإراداته وشريعته الحقّة، التي يريد من عبده السير علىٰ خطاها.

وحينئذٍ لا يكون لذلك العبد المنكر للوسائط إلّا إرادته وهواه وميول نفسه وسلطان ذاته، وهذه هي الوثنية؛ إذ يكون وثنه هواه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾(١).

فالهوىٰ وسلطان النفس وثن من الأوثان وإله من الآلهة وإن لم يكن من الأحجار؛ إذ لا يشترط في الوثن والصنم أن يكون من الحجارة، فإن المسلمين يتوجّهون في عبادتهم إلىٰ أحجار الكعبة ومع ذلك هم موحّدون ومطيعون لله تعالىٰ؛ لكون ذلك عن أمره وإرادته وسلطانه.

والحاصل: إن أي عبادة من العبادات إذا إنقطعت عن الخضوع لولاية سيّد الرسل وفقدت تواصلها مع الشهادة الثانية تدخل حيز الشرك والوثنية الجاهليّة، كما جاء ذلك في قوله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾(٢)، حيث حكم الله تعالىٰ في هذه الآية المباركة بشرك ونجاسة ما يأتي به غير المسلمين من العبادات والمناسك في المسجد الحرام.

ثمّ إن من يجحد ولاية أهل البيت عليهم السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يكون حاله كحال من جحد ولاية النبيّ صلى الله عليه وآله، إذ من بعده صلى الله عليه وآله كيف يستعلم العبد إرادة ربّه وأوامره؟!

ومن ثمّ يقول الإمام الباقر عليه السلام في حجّ من لا يؤمن بمودّة وولاية أهل البيت عليهم السلام: فعال كفعال الجاهلية، حيث ورد عنه عليه السلام أنه نظر إلىٰ الناس يطوفون

---

(١) القصص: ٥٠.

(٢) التوبة: ٢٨.

حول الكعبة، فقال: «**هكذا كانوا يطوفون في الجاهليّة، إنما أُمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودّتهم، ويعرضوا علينا نصرتهم، ثم قرأ هذه الآية ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِم ﴾**»[١].

وهذا برهان تاريخي وأدياني يؤكّد ضرورة الواسطة في صحّة العبادة وقبولها.

والواسطة هي الطاعة لوليّ الله تعالىٰ، بكلّ ما للطاعة من معنىٰ وتداعيات ومعطيات ومقتضيات تقتضيها تلك الطاعة وعلىٰ جميع مستوياتها، فكما أن بدء التوحيد متوقّف علىٰ الشهادتين كذلك بقاؤه في كلّ الأبواب الاعتقادية والعبادية، متوقّف علىٰ بقاء الشهادتين إلىٰ آخر المطاف.

* * *

(١) تفسير البرهان / السيد هاشم البحراني: ج٤ ص٣٣٧.



الأدلّة التحليلية

نرمي في استعراض هذه الأدلّة تحليل بعض المفاهيم الدينية والاعتقادية ويكون ذلك بدوره دالاً علىٰ مشروعية التوسّل وضرورته.

١ ـ مفهوم العبادة:

(مفهوم العبادة ينفي الوسائط المقترحة)

يمكننا عن طريق تحديد المفهوم الاصطلاحي للعبادة وبيان العبادة الخالصة لله تعالىٰ والعبادة غير الخالصة استكشاف مشروعية نظرية الوسائط، وأن المستنكر منها هي الوسائط المقترحة فحسب، وذلك بالبيان التالي:

ذُكر للعبادة في اللغة معانٍ متعدّدة، أهمّها: أنها بمعنىٰ الطاعة والخضوع.

والقرآن الكريم أيضاً استعمل مفهوم العبادة في عدّة معان، منها ما يلي:

١ـ مملوكية المنفعة.

كقوله تعالىٰ: ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾(١).

---

(١) النحل: ٧٥.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾(١).

٢ـ سيادة الطاعة، وإن لم تكن أصالة للمطاع.

كقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾(٢).

٣ـ الطاعة والخضوع والانقياد للمعبود علىٰ وجه التعظيم والتقديس، وأنه الغني بالذات ومصدر جميع الخيرات والنعم والكمالات مبدءاً وإصالة.

كقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٤).

وكقوله تعالىٰ لموسىٰ ﷺ: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾(٥).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٦).

إلىٰ غير ذلك من الآيات القرآنية المباركة، الدالّة علىٰ إرادة الانقياد إلىٰ المعبود علىٰ وجه التعظيم وأنه الغني بالذات من مفهوم ومعنىٰ العبادة.

---

(١) البقرة: ٢٢١.

(٢) يس: ٦٠.

(٣) الرعد: ٣٦.

(٤) الذاريات: ٥٦.

(٥) طه: ١٤.

(٦) هود: ١٢٣.

وهذا هو المعنىٰ الاصطلاحي لمفهوم العبادة.

وإذا كان هذا هو المعنىٰ الاصطلاحي للعبادة، فكيف كان توجّه المشركين إلىٰ الوسائط شركاً، مع أنهم لا يتوجّهون إليها بما هي مصدر الخيرات أصالة بل بما هي شفيعة ووسيطة؟ وكيف تتحقّق العبادة لغير الله تعالىٰ؟ وكيف تتحقّق العبادة لله عزّ وجلّ؟

والجواب هو ما تقدم، من أن الانكار ليس إنكاراً للوسيلة بما هي وسيلة، بل بما هي مقترحة ومخترعة من قبل العبيد، وأما إذا كانت الواسطة بجعل من الله تعالىٰ وإرادته وتحكيماً لسلطانه، فلا محالة يكون التوسّل والخضوع لتلك الوسيلة طاعة للباري تعالىٰ، لأنه يكون انقياداً له تعالىٰ علىٰ وجه الرغبة والخضوع وأنه مصدر الخيرات مبدءاً وأصالة، فأي فعل يكون منطلقه من أمر الله عزّ وجلّ لا يكون شركاً، وإن كان ذلك الفعل بالتوجّه والتوسّل بالوسائط، ومن ثمّ يكون سجود الملائكة لآدم كما سيأتي ـ عبادة لله لا لآدم؛ لأنه خضوع لله تعالىٰ وامتثالاً لأمره بما أنه مصدر الخيرات.

إذن المدار في تحقّق العبادة وعدمه ليس علىٰ ارتباط الطقوس العبادية بغير الله وعدم الارتباط بغيره، بل المدار في العبادة الخالصة وقوام التوحيد في العبادة علىٰ وجود الأمر الإلهي والإرادة الإلهية، وقوام الشرك في العبادة ليس علىٰ تعلّق الفعل العبادي بغير الله، بل الشرك في العبادة يتقوّم بعدم وجود الأمر والإرادة الإلهية، وإنما باقتراح من العبد نفسه.

ومن ثمّ لا يكون التوجّه بالكعبة إلىٰ الله عزّ وجلّ في الصلاة شركاً، بل هو شعار التوحيد.

فنحن في صلاتنا نتوجّه إلىٰ الكعبة الشريفة، مع أنها حجر ومع ذلك تكون عبادة لله تعالىٰ، وفي صلاة الطواف نتوجّه إلىٰ مقام إبراهيم عليه السلام، وكذا في الطواف نتوجّه إلىٰ الكعبة ونتبرّك بالحجر الأسود ونتمسّح به، مع أن ذلك كلّه لم يجعل من الكعبة صنماً ولا من الحجر الأسود وثناً يُعبد من دون الله، كلّ ذلك لوجود الأمر الإلهي بالصلاة والطواف حول الكعبة والتمسّح بالحجر الأسود، فيكون الامتثال تحكيماً لسلطان الله تعالىٰ علىٰ إرادة العبيد، وذلك بخلاف أصنام الوثنيين.

وهذا ممّا اتفق عليه علماء الأصول، حيث قرّروا أن العبادة لا تتحقّق إلّا بقصد امتثال الأمر وكون العبد ماثلاً طيّعاً أمام مولاه.

فإن وُجد الأمر تحقّق التوحيد في العبادة ولو مع الواسطة، وإن فقد الأمر كان الاتيان بالفعل شركاً ولو مع نفي الواسطة.

٢ ـ القول بالتجسيم من أسباب جحود التوسّل:

إنّ انكار التوسّل ورفض الوسائط ناتج إما من القول بالتجسيم أو القول بالنبوءة والتنبّي.

وأما من لا يدّعي النبوءة لنفسه وينكر الجسمية في الباري عزّ وجلّ، فلا محالة له من قبول الوسائط والوسائل في كلّ العوالم والنشآت.

وقبل البرهنة علىٰ هذا المدعىٰ لابدّ من بيان بعض الأمور:

الأول: ليس المقصود من دعوانا أن انكار التوسّل ناتج من التجسيم أو دعوىٰ النبوءة هو أن يكون القائل بذلك قد قال بأحدهما عنواناً وقولاً، بل قد يكون في

واقعه متبنّياً لحقيقة التنبّي أو التجسيم من دون أن يُسمّيه تنبّياً أو تجسيماً؛ وذلك لأنهما لا يدوران مدار العنوان والشعار، فالحقائق أو الأمور العدمية الباطلة تدور مدار واقعها، سواء واقعها العدمي في الأمور الباطلة أو واقعها الوجودي في الأمور الوجودية، فمن ينفي الوسائط فهو لا محالة إما يبني على التجسيم أو يدّعي التنبّي كما سيتّضح، وهذا نظير ما ذكره الفقهاء في بحوث المعاملات، من أن الشخص ربّما يقصد ماهية معاملية معيّنة ويسمّيها باسم تلك الماهية المقصودة، ولكنها في واقعها قرض ربويّ أو بالعكس.

الثاني: إن هناك دعاءاً يؤكّد مضمون ما نريد الخوض فيه، وهو من الأدعية المأثورة لتعجيل الفرج، وهو: «**اللّهمّ عرّفني نفسك فإنك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف رسولك، اللّهمّ عرّفني رسولك فإنك إن لم تعرّفني رسولك لم أعرف حجّتك، اللّهمّ عرّفني حجّتك فإنك إن لم تعرّفني حجّتك ضللت عن ديني**»[(١)].

ومفاد هذا الدعاء هو أن منظومة المعارف إنما تصحّ وتكون صائبة مع صوابية وحقّانية معرفة الانسان بربّه، وأن الخلل الناشئ في معرفة الأنبياء والرسل منبعه الخلل في معرفة الله تعالىٰ الصحيحة والتامة، كما أن الخلل في معرفة الحجج والأوصياء والأئمّة منشأه الخلل في معرفة الرسول، وبالتالي يكون ناشئاً من الخلل والنقصان في المعرفة المتعلّقة بالله تعالىٰ، كما تشير إلىٰ هذه الحقيقة مجموعة من الآيات القرآنية، منها:

قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ**

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة / الصدوق: ص٣٤٢.

شَيْءٍ﴾(١)، فإنكار الرسل وعدم الإيمان بهم ناشئ من جهلهم بقدر الباري وقدرته وعظيم حكمته وتدبيره، ومن خلل المعرفة في أفعال الله عزّ وجلّ.

ومن ثمّ هذا يؤكّد أن الذي ينفي الوسائط والوسائل والرسل والحجج، منشأ نفيه نقصان معرفته بالله تعالىٰ، إما بالقول بالتجسيم أو القول بالتنبّي.

والغريب من أصحاب هذه المقالة، قولهم بأن التجسيم باطل في النشأة الدنياوية فقط، وأما في الآخرة فنلاقيه والعياذ بالله بصورة شابّ أمرد، ويستدلّون علىٰ ذلك، بقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾(٢) و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٣) و﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٤)، فيصوّرون الفوقية علىٰ العرش فوقية مكانية، لا فوقية قدرة وهيمنة.

فهم يفترضون إن الله عزّ وجلّ في الآخرة جسم، وهذا ناتج ضعفهم وقصورهم في المسائل العقلية والاعتقادية؛ إذ لم يلتفتوا إلىٰ أن قولهم هذا يلزم منه كون الله تعالىٰ مادّياً، وكلّ أمر مادّي قابل للانقسام، فله أجزاء متولّدة من جسمه، وهو منافٍ لما نصّت عليه سورة التوحيد التي نفت التولّد والانقسام والتجسيم والمادّية.

ثم إن الجسم محدود، وهو تعالىٰ خالق الجسم ومهيمن عليه لا يحدّه حدّ.

وأهل البيت عليهم السلام يثبتون الرؤية القلبية لله عزّ وجلّ، وهو ما أكّدته الآيات

---

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) القلم: ٤٢.

(٣) القيامة ٧٥: ٢٢_٢٣.

(٤) طه: ٥.

القرآنية، كقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[١]، وهـم ﷺ يـنفون الرؤيـة البصرية، التي يشترط فيها المحاذاة والمقابلة الجسمانية، والله عزّ وجلّ منزّه عن الجسم والجسمية في جميع النشآت.

لقاء الله يوم الحساب بآياته وحججه :

وحيث أن حشر الخلائق بأجسامهم، فإن ملاقاة العباد لربّهم تكون بالوسائط والوسائل والآيات، وإلّا للزم أن تكون المقابلة والملاقاة جسمية، أي أن الباري والعياذ بالله يلاقي أجسام الخلائق بجسمه وهو باطل بالضرورة.

فإياب الخلائق وحسابهم لابدّ أن يكون عبر الوسائل والوسائط والآيات، وإلّا فإن الله عزّ وجلّ معنا أينما كنّا.

وذلك ديدن قرآني في الإسناد، كإسناد الإماتة إلىٰ الله عزّ وجلّ وإلىٰ ملك الموت وإلىٰ الرسل التي يديرها ملك الموت، فإياب الخلق وحسابهم علىٰ الله عزّ وجلّ، ولكن عبر آياته ووسائطه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٣].

فإذا ثبت أن الله عزّ وجلّ ليس بجسم، ونحن أجسام في شطر من ذواتنا وشطر من إدراكاتنا، التي تتحقق عبر الارتباط بالأجسام، سواء في الدنيا أو البرزخ أو الآخرة، فلا يمكن الارتباط مباشرة بربّ العزّة والجلال، وحيث أن الارتباط بالله عزّ وجلّ في الدنيا أو البرزخ أو في الآخرة ليس منقطعاً تماماً، لأن

---

(١) النجم: ١١.

(٢) الأنفال: ١٧.

(٣) التوبة: ٧٤.

معناه التعطيل في قدره الباري تعالىٰ، وحيث ثبت بطلان التعطيل، وأنه لا تعطيل لمعرفة ذاته تعالىٰ ولا لصفاته ولا لأفعاله ولا لعبادته ولا للقائه عزّ وجلّ، فلابدّ من القول إما بالوسائط أو النبوءة.

والمجسّمة قالوا بالتجسيم؛ لأنهم أنكروا الوسائط وخافوا من الوقوع في التعطيل أو دعوىٰ النبوءة، فلا محيص لهم عن القول بالتجسيم، هذا كلّه علىٰ المستوىٰ التحليلي لما ادّعيناه أولاً.

وأما الدليل القرآني على ذلك، فهو قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾(١).

فقوله تعالىٰ: ﴿ **لِبَشَرٍ** ﴾ للإشارة إلىٰ الجسم والخصوصيات الجسمانية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ بمثابة البرهان والاستدلال علىٰ مضمون الآية المباركة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ **مَا كَانَ** ﴾ لنفي الشأنية والامكان، لا لبيان عدم الوقوع فقط، وإلّا لكان حقّ التعبير أن يقال: إن الله لا يكلّم أحداً إلّا بالطرق الثلاثة المذكورة في الآية.

ومعنىٰ الآية الكريمة أنه لا توجد أي مجابهة جسمانية بين الله عزّ وجلّ وبين البشر، المحكومين بأحكام المادّة والجسمية، فتكليمه عزّ وجلّ للبشر إما وحياً، أي عن طريق جانب الروح في البشر، أو من وراء حجاب، أي عن طريق خلق الصوت وإيجاده في الأمور المادّية، كما في تكليم الله عزّ وجلّ

---

(١) الشورىٰ: ٥١.

لموسى عليه السلام، أو يرسل رسولاً أي إرسال الملائكة أو الأنبياء والحجج، بل وكذا الملائكة التكلّم معهم عن طريق الوحي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، إذن لا وجه للمواجهة الجسمانية مطلقاً، سواء في الدنيا أو البرزخ أو في الآخرة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي متعال أن يكون جسماً محاطاً ومحدوداً، فإن العلو يستلزم نفي الجسمية، وهو عزّ وجلّ حكيم، أي غير معطّل، فمن حكمته أن يرسل رسلاً ويقيم أئمة ويوسّط وسائط، فلا تجسيم ولا تعطيل.

وهذه الآية ليست دلالتها مقصورة علىٰ دار الدنيا فقط، بل هي بلحاظ كلّ النشآت الوجودية والتكوينية، فهو تعالىٰ عليّ متعال على الجسمية ومقابلة الأجسام، وحكيم غير معطّل بينه وبين خلقه عن طريق الوسائط والرسل، فهو عزّ وجلّ يُعرف برسله وأدلّته وحُججه.

وبعضهم حيث أنكر التجسيم وفرّ من مغبّة التعطيل ورفض الوسائط، بدعوىٰ أنها صنمية منافية لروح التحرر، وقع في القول بالتنبّي، ولجأ إلىٰ الإيمان بقدسية العقل وسعة مدياته وحدوده وأنه يصيب كلّ صغيرة وكبيرة، كما هي مقالة بعض المتعلمنين من الإسلاميين.

وحيث أن التنبّي والإيحاء إلىٰ الجميع باطل بنصّ القرآن الكريم، وثبت أن التشبيه والتجسيم وكذا التعطيل باطل، فلابدّ من الإيمان بالوسائط والوسائل، ويكون إنكار وليّ الله وحجته تجسيماً أو تعطيلاً أو استكباراً وإكباراً للنفس وصنميّة للعقل، وهي النبوءة المرفوضة في الكتاب والسنّة.

---

(١) الأنفال: ١٢.

إذن الوسيلة والواسطة أمر برهاني وضروري في كلّ النشئات، ولذا ورد في الروايات أن الذي بُعث في عالم الذرّ بين الله تعالىٰ وبين باقي الأنبياء هو النبيّ محمّد ﷺ.

وهذا هو ما قلناه من أن الشهادة الأولىٰ كما أنها مطلوبة في جميع النشئات، كذلك الشهادة الثانية وأن محمّداً رسول الله ﷺ باقية في كلّ النشئات أبديّة وأزلية، فوصف النبيّ ﷺ بالرسالة ليس خاصاً بالدنيا فقط، وإنما النبيّ ﷺ رسول في إنزال القرآن، وآياته غير مختصّة بالدنيا، بل تحكي كلّ النشئات وعالم الربوبية والصفات وعالم الذات، بما لم يُنبّئ به نبيّ من الأنبياء، وهذا معنىٰ واسطته ﷺ في كلّ العوالم والنشئات.

والحاصل: إن لم يكن في البين تشبيه ولا تعطيل، فلابدّ من النبوءة أو قبول الوسائط والحجج، وحيث أن التنبّئ للكلّ باطل، فلابدّ من الإيمان والاقرار بالوسائط بين الله تعالىٰ وبين مخلوقاته في كلّ العوالم، فالله عزّ وجلّ لا يُتوجّه إليه باتجاه جسماني، بل يُتوجّه إليه بالمعاني والآيات والحجج.

ومن ذلك كلّه يعلم عظم مكانة الآية والحجّة الإلهية، وأن إنكارها في الحقيقة بمنزلة إنكار الباري عزّ وجلّ، كما ورد ذلك في قوله تعالىٰ: **﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾**(١)، فإنكار خلافة خليفة الله في الأرض ليس ينصبّ على الوسيلة بما هي هي، بل يرجع إلىٰ الكفر بالله تعالىٰ **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾**(٢) وذلك لأن

---

(١) الأنعام: ٣٣.
(٢) الأنعام: ٩١.

الذات المقدّسة إذا لم يكن بينها وبين المخلوقات أي ارتباط معناه التعطيل، وهو بمنزلة الإنكار لله عزّ وجلّ لأنه إنكار لقدره تعالىٰ وقدرته وتدبيره.

فعظمة الوسائط والحجج والآيات بعظمة ذي الآية، التي أُضيفت إليه، ويكون الاستخفاف بها استخفافاً بالله عزّ وجلّ، فلابدّ من تعظيمها وإجلالها.

ووظيفة الخليفة هي الواسطة والوساطة في تدبير شؤون العباد، وهذا النظر والاعتقاد الحقّ مما امتاز به مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهو أن العوالم بجميع نشآتها لا تخلو عن حجّة وخليفة وواسطة.

والنقطة الأخرىٰ التى ينبغي الإشارة إليها في المقام، هي أن التوسّل والشفاعة والتوسّط والوسيلة تحمل في داخلها عدم المحورية الذاتية للشفيع والوسيط، أي ليس للوسيط والشفيع والوسيلة أي استقلالية عن الله عزّ وجلّ، وذلك لأن الواسطة معناه أن النظرة إليها آلية وحرفية، ليس لها من ذاتها إلّا الفقر والحاجة إلىٰ سلطان الله وإرادته.

ولذا نجد أن الوسائط التي اتخذت من دون الله عزّ وجلّ أخفقت في وساطتها ووجاهتها وكانت شركاً بالله عزّ وجلّ؛ لأنها استقلّت عن سلطانه وإرادته وإذنه.

والغريب في هذا المجال هو أن أصحاب هذه المقالة والجاحدين للتوسل آمنوا بأن الشفاعة والتشفّع بالنبيّ صلى الله عليه وآله في الآخرة ليس شركاً وكذا التشفّع بالنبيّ صلى الله عليه وآله حال حياته، وأما التشفّع به صلى الله عليه وآله حال موته فزعموا أنه من الشرك الأكبر.

ويرد عليهم السؤال التالي: إن دائرة الشرك من أين نتجت؟ هل من حدّ معنىٰ الشفاعة والواسطة، أو من حدّها التعبّدي، أو من خلال المعنىٰ العقلي؟

فاذا كان المعنىٰ عقلياً فالغيرية إذا أوجبت الشرك، فإنها توجبه في كلّ نشأة، سواء نشأة الدنيا أو الآخرة، وإذا لم توجب الغيرية الشرك لجهة الوساطة، فما هو الفرق بين أنواع التشفّع في الدنيا والآخرة، أو حال الموت وحال الحياة؟!

لا سيما وأن الشرك الأكبر (١) معنىً عقلي يدركه العقل، ونفيه وإثباته في متناول الأحكام العقلية، وهي لا تقبل التخصيص والاستثناء، لا سيما وأنها من الأحكام التي تقرب من البداهة.

وبعبارة أخرىٰ: إن الوسيلة والوساطة تعني تقوّم الواسطة والوسيلة بالله، وكونها مظهر فعله وظهوره، وهذا عين التوحيد في الأفعال والصفات، فكيف يُجحد تحت قناع أنه الشرك الأكبر، وتسمية ذلك الجحود بأنه توحيد؟!

فإن ذلك من التلبيس لأحد العنوانين مكان الآخر، خصوصاً وأنه قد مرّ أن إنكار الوسيلة والتوسّل بل يؤول إلىٰ إنكار الشهادة الثانية؛ لأنه يؤول إلىٰ إنكار ركنية ودخالة رسالة ومقام خاتم الأنبياء في التوحيد.

---

(١) المقصود من الشرك الأكبر أو الشرك الصريح هو الذي يوجب ردّة عن الدين، أما الشرك الأصغر أو الشرك الخفي غير الصريح هو الذي لا يوجب ردّة، وهو قلّما ينجو منه أحد إلّا المخلصين، والشرك الصريح إنما يوجب الردّة؛ لأنه منافٍ لمقررات الدين الإسلامي وثوابته وأولياته، والإذعان والإقرار بما هو مناف صراحة لأوليات الدين الإسلامي، وهذا نوع انشاء فسخ، وخروج عن عهود ومواثيق الشهادتين، وذلك لأن التشهد بالشهادتين لحصول الإسلام أو بالشهادة الثالثة لحصول الإيمان ـ كما هو عند الإمامية ـ يلزم منه الالتزام بعدّة عهود ومواثيق، فلو أنشأ الشهادات الثلاث، والتزم بما هو منافٍ لها صريحاً، فإنه يخرج عن العهد والميثاق الذي التزم به، وأما عدم إيجاب الشرك الأصغر ردّة في الدين، لأن المتكلم والمدّعي لأمر لا يعي تناقض ذلك الأمر مع الشهادتين، ولا يكون ظاهراً عرفاً في الفسخ للعهود والمواثيق.

الفصل الثاني

▣ الأدلّة القرآنيّة

١ ـ حقيقة التوسّل في أربع طوائف قرآنية

٢ ـ قصة آدم مع إبليس

٣ ـ الآيات البيّنات في المسجد الحرام

٤ ـ التوجه إلى القبلة طاعة للنبي ﷺ

٥ ـ المودة لذرية إبراهيم عليه السلام من شرائط الحجّ وغاياته

٦ ـ الولاية من شرائط المغفرة

٧ ـ الوفود على ولي الله من شرائط الحجّ

٨ ـ الأنبياء مصدر البركة

٩ ـ البقعة المباركة

١٠ ـ وجوب تعظيم الأنوار الإلهية

١١ ـ بناء المساجد على قبور الأولياء

١٢ ـ حبط الأعمال وقبولها

١٣ ـ آيات القسم بشخص النبيّ الأكرم ﷺ

١٤ ـ الآيات الآمرة بالتوسل بالنبيّ الأكرم ﷺ

١٥ ـ آيات التوسّل بمخلوقات كريمة أُضيفت إلى الأنبياء والأولياء عليهم السلام

خاتمة في:

أ ـ الروايات الواردة في مشروعية التوسّل.

ب ـ آراء أعلام السنّة في التوسّل

الأدلّة القرآنية

١ - (حقيقية التوسّل في اربع طوائف قرآنية) :

إنّ الآيات القرآنية المباركة الدالّة على أنّ الإنكار على المشركين مُنصبٌ على الوسائط المقترحة دون الوسائط الإلهيّة على طوائف متعدّدة:

الطائفة الأولى: وهي ما كانت بلسان استنكار الأسماء المقترحة من قبل العبيد ومن سلطانهم وهوى أنفسهم.

١- قوله تعالى: **﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾**(١).

وهذا الكلام يسجّله الله عزّ وجلّ في قرآنه الكريم على لسان نبيّه هود عليه السلام، حيث يحاجج عاداً قومه وينكر عليهم الوسائط المقترحة من عند أنفسهم والتي لم ينزل الله عزّ وجلّ بها سلطاناً.

وقد تقرّر في علم أصول الفقه أن النهي أو النفي إذا ورد على طبيعة مقيّدة بقيد، فإنما يقع ذلك النفي أو النهي على القيد لا على ذات المقيّد، كقولك: لا رجل طويل في الدار، فإنّ النفي في هذا المثال متوجّه إلى القيد وهو الطول،

---

(١) الأعراف: ٧١.

وليس المراد نفي أصل وجود الرجل في الدار، وبالنتيجة يكون المنفي الصنف والقيد وهو الرجل الطويل، لا ذات الطبيعة المقيّدة وهو عموم الرجل.

كذلك في المقام، فالآية في قوله تعالىٰ: ﴿ **مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** ﴾ تنفي صنفاً خاصّاً من الوسائط والوسائل، وهي الوسائط التي لم ينزّل بها الله تعالىٰ سلطاناً، والأسماء المقترحة والمجعولة من قبل أنفسهم وآبائهم.

فمصبّ الإنكار والتقريع والتخطئة هو كون تلك الأسماء والوسائط مقترحة من غير إذنٍ وسلطان إلهي.

ولم تنفِ الآية المباركة أصل وجود الوسائط والوسائل، وإلّا فلو كان أصل الوساطة والتوسيط أمراً مستنكراً فلا معنىٰ لذكر القيد، بل يكون ذكره لغواً ومخلّاً بالغرض والمراد.

مع أن الآية ركّزت علىٰ ذكر القيد، وأكّدت علىٰ أنّ الأسماء المستنكرة هي التي ﴿ **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** ﴾ لا مطلق طبيعة الأسماء والوسائط.

فليس الاشكال في أصل الاسم والوساطة، بل الاشكال في كونها مقترحة منهم ومسندة إليهم، من دون أن يُسمّها الله عزّ وجلّ أو يجعلها واسطة بينه وبين خلقه.

وفي الآية المباركة إشارة لطيفة، حيث لم يطلق فيها الاسم علىٰ ذات الباري عزّ وجلّ، بل أطلق علىٰ ذات الواسطة بينه تعالىٰ وبين عبيده، أي واسطة في النداء ووسيلة في التوجّه، فالإسم الذي يُدعىٰ به هو الوسيلة أو الواسطة التي يتوسّل بها إليه.

٢ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ**

سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾(١).

وتقريب الاستدلال بهذه الآية الكريمة بنفس ما تقدّم في الآية السابقة، حيث أنها تجعل مركز التخطئة والاستنكار هو التصرّف الاقتراحي من العبيد في سلطان الله تعالىٰ، وليست التخطئة لأصل مقالة الحاجة والضرورة إلىٰ الوسائط.

الطائفة الثانية: وهي ما كانت بلسان حصول الشرك بغير الله عزّ وجلّ، بسبب الوسائط التي لم تكن بسلطان الله وحكمه وإرادته.

١ـ قوله تعالىٰ: **﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾**(٢).

٢ـ قوله تعالىٰ: **﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾**(٣).

٣ـ قوله تعالىٰ: **﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾**(٤).

فسبب الشرك الذي وقعوا فيه هو تحكيم سلطانهم ورغبتهم وهواهم وإرادتهم علىٰ إرادة الله تعالىٰ وسلطانه، لا أن أصل الوساطة هو المرفوض في منطق القرآن الكريم.

الطائفة الثالثة: وهي ما كانت بلسان العبادة من دون الله تعالىٰ، وأن التوسّل

---

(١) النجم: ٢٣.

(٢) آل عمران: ١٥١.

(٣) الأنعام: ٨١.

(٤) الأعراف: ٣٣.

بالوسائط والشفعاء بغير سلطان وإذن من الله عزّ وجلّ يوجب عبادة مَنْ هو دونه، وهي الوسائط المقترحة.

١ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾(١).

٢ـ قوله تعالىٰ: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾(٢).

لا يقال: إذا كانت العبادة المرفوضة هي عبادة المعبود الذي لم ينزّل الله به سلطاناً، فهل هذا يعني أن العبادة لغير الله تعالىٰ تكون جائزة فيما إذا نزّل به الله عزّ وجلّ سلطاناً ؟!

لأننا نقول: العبادة لغير الله تعالىٰ ممنوعة مطلقاً، والباري تبارك وتعالىٰ لا يأمر بعبادة غيره، ومضمون هذه الطائفة من الآيات عين المضمون الذي تقدّم في الطوائف السابقة من الآيات، وهو أن العبادة من دون الله تعالىٰ تتحقّق فيما إذا كانت الوسيلة بإرادة العبيد واقتراحهم، وأما إذا لم تكن كذلك فلا تكون عبادة من دون الله، بل هي عبادة لله عزّ وجلّ، كما جاء ذلك في سجود الملائكة لآدم، فهو سجود وطاعة لله تعالىٰ، وامتثالٌ لأمره، لا أن السجود لآدم بنحو الاستقلال، لكي يكون عبادة وخضوعاً له من دون الله عزّ وجلّ.

فهذه الطائفة من الآيات تبيّن أن العبادة من دون الله تعالىٰ إنما تتحقّق فيما إذا كان التوجّه إلىٰ الوسائط المقترحة من قبل العبيد، من دون أن ينزّل بها الله

---

(١) الحج: ٧١.

(٢) يوسف: ٤٠.

سلطاناً، وأما إذا كانت الوسائط منصوبة من قبل الله عزّ وجلّ وبسلطان منه والتوجّه إليها بإرادته وأمره، فحينئذٍ يكون التوجّه إلىٰ الوسائط انقياداً وامتثالاً للأمر الإلهي وعبادة لله تبارك وتعالىٰ؛ لأنّه تحكيم لسلطانه وانصياع لأوامره.

فالذي يأتمر بأوامر الله تعالىٰ بالانقياد مطلقاً بالوسائط أو بغيرها هو الموحّد التامّ في مقام العبودية والطاعة، وفي غير ذلك يكون قد تجرّأ واستكبر علىٰ الباري تعالىٰ وكفر بربوبيّته، كما فعل إبليس عندما استكبر وكان من الكافرين.

الطائفة الرابعة: ومضمونها هو أن أخذ التشريع من غيره تعالىٰ يُعدّ شركاً في التشريع إذا كان من دون إذن الله عزّ وجلّ.

١ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾[(١)].

٢ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالاً قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾[(٢)].

نتيجة الطوائف الأربع:

إنّ الإنكار علىٰ الوثنية والمشركين ليس في فكرة الوسائط، بل باقتراحهم من الوسائط ما لم ينزّل الله بها سلطاناً، فشركهم بمنازعة سلطانهم لسلطان الله تعالىٰ.

إذن فمشركو الجاهلية مع أنهم توسّلوا وتشفّعوا بالأصنام والأوثان بُغية الزلفىٰ والتقرّب إلىٰ الله تعالىٰ، وهم يعلمون أن الأصنام ليست غنية بالذات،

---

(١) الشورىٰ: ٢١.

(٢) يونس: ٥٩.

وإنما هي وسائط وشفعاء إلىٰ الله عزّ وجلّ، مع ذلك كلّه اعتبرهم الله تعالىٰ من المشركين، وليس ذلك إلّا لكون محطّ الإنكار عليهم ليس في نظرية وعقيدة الحاجة إلىٰ الوسائط، بل لكون الوسائط والشفعاء التي تشفّعوا بها لم يأذن بها الله تعالىٰ، ولم تكن بإرادته وسلطانه، وإنما هي من تحكيم سلطانهم علىٰ سلطان الله تعالىٰ.

وهذه الطوائف من الآيات مفسّرة لكلّ آيات الإنكار علىٰ المشركين والوثنيين عبدة الأصنام وغيرهم، وأين هذا من المعنىٰ الذي يتوخّاه المنكرين لأصل التوسيط والوساطة، إذ جهة الزيغ والانحراف ليس في أصل فكرة الوسائط والوسائل والاحتياج إليها، بل من جهة كونها بإرادة العبيد وتحكيمها علىٰ إرادة الربّ وسلطانه.

٢ - قصة آدم مع إبليس

إنّ هذه الملحمة تعدّ من أوضح الأدلّة علىٰ ضرورة التوجّه إلىٰ الوسائط والحجج الإلهيّة، لطلب الزلفىٰ والقرب من الله عزّ وجلّ.

وهذه الواقعة تضفي بلونها علىٰ جميع أصول الدين، إذ هي جاءت لتعيين مصير ومعالم مسار البشرية في مبدأ وفاتحة الخليقة، وذلك واضح لمن تتبّع الآيات التي استعرضت هذه الواقعة.

ونحن هنا نتعرّض إلىٰ ما له صلة بالمقام:

وفيما يلي نذكر بعض السور والآيات التي استعرضت القصة:

١ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ**

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾(١).

٢ـ قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾(٢).

٣ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾(٣).

٤ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾(٤).

٥ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ

---

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) ص: ٧١ـ٧٨.

(٣) الأعراف: ١١ ـ ١٣.

(٤) الحجر: ٢٨ ـ ٣٥.

الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾[1].

هذه بعض الآيات التي تعرّضت للواقعة التي هي محلّ البحث.

وقد احتوت هذه القصّة علىٰ دلالات متعدّدة تنصّ علىٰ أسس المعارف الاعتقادية، وأحد تلك الجوانب المهمّة في القصّة هي أمر الله تعالىٰ الملائكة بالسجود لآدم، وذلك ضمن عدّة تعابير تبيّن شدّة الأمر بالانقياد والخضوع لآدم عليه السلام، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾[2]، حيث احتشدت فيها الدوالّ التأكيدية كـ(هم) و (أجمع) و (كلّ) و (الملائكة) وغيرها، وكقوله تعالىٰ: ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فهو أمر بالوقوع للسجود مباشرة بلا فصل، ولا يخفىٰ ما في التعبير بالوقوع من شدّة الخضوع والطوعانية وانقياد الملائكة لآدم عليه السلام.

وعلىٰ ضوء مقالة أصحاب الشبهات المتقدّمة الجاحدين للتوسّل يكون امتناع إبليس من السجود عين التوحيد، فحيث أن إبليس أبىٰ جعل الواسطة يكون أكبر موحّد؛ لكونه متقيّداً ومتشدّداً في العقيدة التوحيديّة وأول رائد لدعوة التوحيد ونفي العقيدة الشركيّة التي تورّط بها الملائكة بحسب زعم الجاحدين للتوسّل، ويكون إبليس علىٰ هذا صاحب تحرّر وانفتاح وشفّافية في العبادة لرفضه الواسطة.

ويكون انقياد الملائكة وخضوعهم للواسطة هو الشرك الأكبر، ويكونون بذلك مغالين في آدم، قد خلقوا منه صنماً والعياذ بالله لتقديسه وتعظيمه، بينما

---

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) الحجر: ٣٠.

القرآن الكريم يقرّر الحقيقة علىٰ خلاف ذلك، حيث يعتبر الملائكة موحّدون مطيعون، وأصبحوا بسجودهم في غاية القرب لله تعالىٰ؛ لامتثالهم وطوعانيتهم للأوامر الإلهيّة، وفي الوقت ذاته حكم علىٰ إبليس بالكفر، حيث عبّر عنه بأنّه كافر مستكبر مدحور ملعون مطرود عن ساحة الرحمة الإلهيّة.

ولا يستقيم معنىٰ كفر إبليس وتوحيد الملائكة في القرآن الكريم، إلّا علىٰ الضابطة التي ذكرناها، وهي أنّ المدار في الطاعة والعبادة وتوحيد الله تعالىٰ علىٰ وجود الأمر الإلهي، فمع مخالفة الأمر الإلهي يتحقّق الكفر والشرك، وإن كان مضمون المخالفة هو رفض الوسائط، وذلك ما صنعه إبليس فأصبح مذؤوماً مدحوراً، وأما الملائكة الذين انقادوا وخضعوا للأمر الإلهي، فهم الموحّدون المطيعون، ولو كان ذلك عن طريق الواسطة والسجود لآدم ﷺ، سواء فُسّر السجود بمعنىٰ جعل آدم قبلة لهم، أو بمعنىٰ الاحترام والتعظيم والانقياد لآدم والخضوع له.

إذن أصبح إبليس في غاية البعد من الله عزّ وجلّ واستحقّ الطرد من رحمة الله تعالىٰ؛ لاستكباره علىٰ طاعة الأمر الإلهي؛ ولأنّه أراد أن يُحكّم إرادته وسلطانه علىٰ إرادة الباري تعالىٰ وسلطانه، كما جاء ذلك في الحديث القدسي، قال إبليس: (ربّ اعفني من السجود لآدم وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، فقال جلّ جلاله: لا حاجة لي في عبادتك، إنما عبادتي من حيث أريد لا من حيث تريد)(١)، وليس ذلك إلّا لكون عبادته التي يزعمها مع رفضه السجود لوليّ الله وواسطته ـ تكبّراً وتجبّراً علىٰ الله عزّ وجلّ وتحكيماً لسلطانه

---

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ٤٢.

علىٰ سلطان الله تعالىٰ، وهذا ينافي مضمون حقيقة العبادة، التي هي الخضوع والطوعانية للأوامر الإلهية؛ إذ ليس مدار العبادة علىٰ وجود الواسطة وعدمها كما سبق.

فإبليس في حقيقة الأمر كان عابداً لهواه، والعابد أصبح هو المعبود لنفسه؛ إذ لم تكن عبادته خاضعة للأوامر الإلهية.

ثم إن مقام السجود والخضوع والانقياد لآدم عليه السلام لم يكن من مختصّاته، بل إن ذلك مقام الخلافة الإلهيّة، فكلّ من يتحلّىٰ بهذا المقام ويتسنّم منصب الخلافة يكون مسجوداً للملائكة والجنّ وغيرهم ممّا خلق الله عزّ وجلّ.

إذن فالخطاب والأمر بالسجود شامل لكلّ خلفاء الله تعالىٰ، خصوصاً وأن بعض الخلفاء الإلهيّين أعلىٰ وأشرف منزلة من آدم عليه السلام في مقام الخلافة.

وعلىٰ ذلك صحّ أن يقال: أن الآيات والأمر الإلهي بالسجود شامل وعام، أي اسجدوا لمحمّد ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وهارون وداود وأوصياء الأنبياء عليهم السلام، الذين هم خلفاء الله في الأرض بنحو أشدّ وأكثر خضوعاً ممّا كان لآدم عليه السلام.

ومعنىٰ ذلك أن الله عزّ وجلّ يُطوع جميع مخلوقاته ويأمرهم بالخضوع إلىٰ خليفته ويأمرهم بالسجود له، أي يفترض عليهم ولايته وطاعته، بمعنىٰ أن يتوجّهوا في عباداتهم إلىٰ الله تعالىٰ بالخليفة الذي جعله واسطة بينه وبينهم.

وهذا هو معنىٰ جعل وليّ الله قبلة يتوجّه به إلىٰ الله تعالىٰ.

وقد ورد التعميم في حكم السجود والخضوع لمطلق الخليفة في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1]، فالبشر الذي خلقه الله تعالىٰ من طين وشرّفه بروح منه وهو روح القدس، لابدّ من السجود والخضوع والانقياد له في التلقّي عن الله تعالىٰ.

ملحمة إباء إبليس وسجود الملائكة لا زالت راهنة مستمرّة في هذا العصر

وإذا عرفت هذا وتمعّنت فيه يتّضح لك أن الملائكة وسائر الموجودات المخلوقة لا زالت ساجدة خاضعة منقادة لوليّ الله وخليفته في أرضه، ولا زال إبليس وأعوانه وأتباعه وأشياعه من الجنّ والإنس يستكبرون علىٰ خليفة الله، وينكرون وساطته ويرفضون الخضوع له والتوجّه إليه والتوسّل به إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ.

وهذا الذي ذكرناه كما ينطبق علىٰ النبيّ الأكرم ﷺ كذلك يصدق علىٰ الأوصياء الأصفياء والأئمّة والخلفاء من بعده من أهل بيته عليهم السلام.

وهذا أيضاً نداء قرآني للمسلمين وكافّة البشر بالانقياد لمحمّد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام بمعنىٰ الخضوع لهم والتوجّه بهم إلىٰ الله عزّ وجلّ في مقام العبادة، وهذا هو النمط الثاني لفرض ولايتهم وطاعتهم عليهم السلام، مضافاً إلىٰ النمط الأول وهو معرفتهم والإيمان بهم.

والحاصل: أن ما اقترحه إبليس علىٰ الله عزّ وجلّ من السجود المباشر من دون توسيط وليّ الله تعالىٰ وهو آدم عليه السلام عين الشرك والكفر؛ لأنّه تكبّر وتجبّر

(١) ص: ٧١ ـ ٧٢.

وتمرّد على الله عزّ وجلّ، وهو ينافي العبادة والعبودية التي مدارها على الطوعانية والانصياع.

والملائكة في سجودهم لآدم موحّدون في العبادة؛ لكونهم خاضعين منقادين لأمر الله عزّ وجلّ، وهو معنى العبادة والاستسلام لإرادة الباري عزّ وجلّ.

وكان سجودهم وخضوعهم وانقيادهم لآدم عبادة لله تعالى وطاعة له؛ لكونها ناشئة عن أمره عزّ وجلّ، ولذا ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال في سجود الملائكة: **«لم يكن سجودهم عبادة له، وإنما كان سجودهم طاعة لأمر الله عزّوجلّ»**(١).

وهذا هو الفارق الأساس الذي يفصل بين التوجّه لأحجار الكعبة الشريفة وبين التوجّه للأصنام، مع أن كلّ منهما حجر، فهذا شرك وذاك توحيد، ومداره وجود الأمر الإلهي وعدمه.

ثمّ إنّ السجود لآدم والسجود تجاه الكعبة والتبرّك بالحجر الأسود وغير ذلك ليس عبادة لها، بل هي عبادة لصاحب الأمر، وهو الله عزّ وجلّ، فهو الذي أمر بذلك، والعباد منقادون مطيعون لأمره تبارك وتعالى.

الإمامة ركن التوحيد:

ومن المعالم المهمّة أيضاً، والتي استعرضتها الآيات القرآنية في قصّة آدم هي الولاية والخلافة، فالتوحيد في العبادة لا يكون إلّا بالانصياع والتذلّل لخليفة

---

(١) بحار الأنوار: ج١٦ ص٣٤٢.

الله تعالىٰ المنصوب من قبله عزّ وجلّ، فإبليس الذي استكبر علىٰ الخلافة والإمامة في الأرض كافر بنصّ القرآن الكريم، والملائكة الذين خضعوا وسجدوا لخليفة الله تعالىٰ موحّدون في العبادة.

فالإمامة معلم من معالم توحيد الله تعالىٰ في الطاعة، والمطيع والخاضع لوليّ الله ووسيلته، هو الموحّد الحقيقي، وبذلك يكون الكون بأجمعه مأموراً بالطاعة والانقياد لمقام الخلافة والإمامة في الأرض، بما فيهم كبار الملائكة المقرّبين، حيث أخذ الله عزّ وجلّ الولاية للإمام والخليفة علىٰ جميع الملائكة، فمن يأبىٰ ذلك يندرج تحت قوله تعالىٰ: ﴿ **أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾.

ولا شكّ أن الإيمان بهذه العقيدة من مختصّات المذهب الإمامي، الذي آمن بأن السبب المتّصل بين الأرض والسماء لم ينقطع بعد وفاة النبيّ الأكرم ﷺ، وأن الولاية الفعلية لله تعالىٰ والحاكمية السياسية والقضائية والتنفيذية والتشريعية، لا زالت قائمة بعد النبيّ الأكرم ﷺ، فولاية الله تعالىٰ في تدبير النظام الاجتماعي بشكل مطلق غير معطّلة.

وبذلك كلّه نخلص إلىٰ: أنّ إنكار الواسطة المنصوبة من الله عزّ وجلّ هو ما قام به إبليس، حيث يدّعي التوحيد في العبادة، لكن باطن دعواه الشرك، فلابدّ أن يُلتفت إلىٰ أن العبادة في جوهرها وروحها ليست بهيئة السجود أو الركوع أو تحريك اللسان أو بالقصد إلىٰ بيت الله الحرام فيما إذا كان المكلّف يحمل في طيّات نفسه الإباء والاستكبار علىٰ ربّه، فإن هذا هو محطّ الكفر والصنمية والفرعنة.

ضابطة العبادة :

ومن هنا قد ينبثق إشكال أشرنا إليه سـابقاً وأجـبنا عـنه إجـمالاً نـحاول أن نجيب عنه بشيء من التفصيل.

وحاصل الاشكال: هو أن البحث انتهىٰ بنا إلىٰ أن المدار في العبادة علىٰ قصد الأمر وعدمه، فلو كان كذلك فهل يعقل أن الباري يأمر بعبادة غيره ؟!

فإذا كان ذلك غير معقول فلا يكون المدار علىٰ وجـود الأمـر وعـدمه، بـل المدار علىٰ تخصيص العبادة بالله تعالىٰ وعدم تخصيصها به.

وبعبارة أخرىٰ: لو كان المدار علىٰ وجود الأمر وعدم الأمر لكان من المعقول أن الله تعالىٰ يأمر بعبادة غيره، والحال أن القرآن الكريم في آيات عديدة يـنهىٰ عن الكفر والشرك وعبادة غير الله تعالىٰ.

وحينئذٍ يكون المدار علىٰ ذات الفعل وذات الخضوع، فإن كان لغير الله فلا يعقل أن يؤمر به مـن قـبل الله عـزّ وجـلّ، وإن كـان لله عـزّ وجـلّ فـهو العـبادة التوحيدية، فالخضوع والفعل العبادي لا يقبل التوسيط، بل لابدَّ مـن تـوجيهه وتخصيصه وإضافته إلىٰ الله عزّ وجلّ، ولا يعقل أن يتوجّه إلىٰ غير الله عزّ وجلّ في الفعل.

فالضابطة ليس علىٰ وجود الأمر فـقط، بـل عـلىٰ اسـناد الفـعل أيـضاً، فـإذا تمحّض الفعل في الإضافة إلىٰ الله عزّ وجلّ يكون توحيداً في العبادة، وإذا امتزج الفعل في الإضافة إلىٰ غير الله تعالىٰ يكون شركاً، فالمدار علىٰ إثبات الواسـطة ونفيها.

والجواب: هو أن المدار علىٰ وجود الأمر لا غيره، والذي يُحقّق كون العبادة

والخضوع مضافتين إلىٰ الله عزّ وجلّ دون غيره هو نفس وجود الأمر وامتثاله.

وذلك كما ذكرنا في الفارق بين التوجّه إلىٰ الكعبة وهي أحجار وبين التوجّه إلىٰ الأصنام من قبل الوثنية، وهو وجود الأمر وعدمه.

وبعبارة أخرىٰ: مع وجود الأمر الإلهي لا يكون الخضوع والعبادة للواسطة، بل لأمر الله محضاً، ومع عدم وجود الأمر لا يكون الخضوع لله وإن نفيت الواسطة، بل يكون خضوعاً لهوىٰ النفس واستكبارها.

فإن العبادة بتسالم علماء الإسلام ليس تحقّقها بالهيئة فقط، وإنما جوهر العبادة وروحها بالخضوع والطوعانية والسلم والاستسلام.

ومن الواضح أن الهيئات والأفعال البدنية، من السجود والركوع وألفاظ الدعاء، من درجات العبادة النازلة في القوىٰ الإنسانية، وأما درجات ذات الانسان العالية كقوة عقله وقلبه فإن عبادته بالتسليم والانقياد والإذعان، وهي المعرفة الإيمانية، ومن ثم ورد أن **«الأعمال بالنيّات»** أي أن قيمة العبادة بلحاظ النيّة، والنيّة هي التوجّه القلبي المتولّد من الإيمان.

وعليه فما اشتهر من تقسيم التوحيد إلىٰ توحيد الذات والصفات والأفعال وتوحيد العبادة لا يخلو من مسامحة، لأن التوحيد في مقام المعرفة هو توحيد عبادة أيضاً، حيث أن إذعان القلب والعقل والروح وتسليمها بتوحيد الذات والصفات والأفعال خضوع للباري تعالىٰ، وإخبات وتسليم، فهي عبادة لله من العقل والقلب والروح، ولا يمكن أن يكون للبدن والنفس عبادة لله ولا يكون للعقل والقلب والروح عبادة لله بالإيمان والإذعان والتسليم والإخبات وعدم الجموح والتمرّد علىٰ الله تعالىٰ، إذ أن جوهر العبادة هو التسليم والإنقياد

والطاعة والطوعانية وكون العبد طيعاً مطاوعاً.

فإذا أمر الباري تعالىٰ بهيئة معينة في العبادة فطاعة ذلك الأمر هو العبادة التوحيدية، وإن كان لهيئة العبادة المأمور بها علاقة وإضافة إلىٰ وسيلة وواسطة معيّنة، فقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾(١).

إنما هو جعل إلهي للواسطة والوسيلة وهي الكعبة، وهذا لا يعني أن الله تعالىٰ يأمر بعبادة الكعبة والسجود والخضوع لها، بل إنما السجود والخضوع له تبارك وتعالىٰ، وباب التوجّه إليه عزّ وجلّ هي الكعبة، فهي وجه الله عزّ وجلّ، حيث أطلق الباري على الكعبة والمسجد الحرام بأنه وجه الله؛ لأنه تعالىٰ قال: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ والوجوه إنما يقابلها وجه يكون واسطة بين العبد والمعبود، ثم بعد ذلك يُعقّب الله عزّ وجلّ بأنني عندما أقول توجّهوا إلىٰ الكعبة واجعلوها قبلة ووجهاً لا يعني انحصار الوجه الإلهي بالكعبة، بل ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢)، وإنما الوجه الأساس الذي جعل في التوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ في الصلاة هو الكعبة الشريفة.

فإذا كانت الكعبة تستحقّ أن تكون وجهاً لله تعالىٰ، فكيف لا يكون سيّد الرسل ﷺ وجهاً من وجوه الله عزّ وجلّ، بل أعظم الوجوه لله تعالىٰ؟!

مع أن الكعبة المشرّفة عبارة عن أحجار.

---

(١) البقرة: ١٤٤.

(٢) البقرة: ١١٥.

نعم المجسّمة يقولون إن وجه الله تعالىٰ هو العضو الجسماني منه، وهو قول باطل بالضرورة؛ إذ لا وجه ولا يد ولا رجل لله عزّ وجلّ بمعنىٰ أنه عين ذاته، نعم يده من مخلوقاته بمعنىٰ القدرة والتصرّف، ووجهه بمعنىٰ التوجّه إليه تعالىٰ بآياته، التي هي علامات ودلالات مخلوقة لله تعالىٰ لابدّ من الاستدلال بها على ذي الآية.

وحينئذٍ فالمدار علىٰ وجود الأمر، وهو الذي يخصّص الخضوع بكونه لله تعالىٰ لا لغيره وإن أضيف إلىٰ الواسطة، إذ ليست هي إضافة خضوع وعبادة، بل إضافة وسيلة وتوجّه بحسب ما هو الأمر الإلهي، والأمر هو مقام الآمرية والمولوية لله عزّ وجلّ، وإعمال سلطنة علىٰ العبد، وانقهار العبد واستسلامه لإرادة مولاه يُعدّ عبادة لمولاه لا لغيره، فمع وجود الأمر لا يعقل أن تكون العبادة لغير الله، لأن العبادة التي هي الطاعة لغير الله لا يتحقّق معناها مع وجود الأمر من الله تعالىٰ، ومع عدم وجود الأمر لا يكون الإتيان بالفعل طاعة وعبادة لله وإن حذفت الوسائط، بل يكون شركاً وطاعة لهوىٰ النفس وتكبّراً واستكبار علىٰ آيات الله تعالىٰ وحججه.

والحاصل: إن المدار في العبادة ليس على هيئة الأفعال والطقوس فحسب، كما تسالم علىٰ ذلك علماء المسلمين من فقهاء ومحدثين ومتكلّمين ومفسّرين، فإن اللّاعب الرياضي قد يتخذ هيئة خاصة كالسجود والركوع وغيرهما، ولكن قصده الرياضة من شدّ عضلات الظهر أو الركبتين أو غيرها، وكذا دفع الخمس أو الزكاة بقصد الرشوة أو السمعة والرياء، فإن ذلك كلّه ليس من العبادة، وإن كانت هيئته هيئة عبادية، وليس ذلك إلّا لكونه خارجاً عن إطار

الأوامر الإلهية.

ولذا كان امتثال الأمر الإلهي بالسجود أو الركوع إلىٰ الكعبة والاعتكاف في المسجد والوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة والازدلاف إلىٰ منىٰ والطواف حول البيت الحرام ليس عبادة للكعبة أو المسجد أو عرفة أو غيرها، وإنما إضافة تلك الهيئات العبادية إليها إضافة امتثال وطاعة وتوسّل وتوجّه إلىٰ الله تعالىٰ انقياداً لأمره، ولا يعني ذلك صنمية أو عبادة لتلك البقاع الطاهرة؛ إذ مع وجود الأمر الإلهي يكون الامتثال انقهاراً واستسلاماً من العبد لربّه، ولا يمكن أن تكون عبادته عبادة لغير الله تعالىٰ، بل قد تكون أفعال ونسك الحج والصلاة إلىٰ الكعبة شركاً، كما كان في عهد الجاهلية قبل الإسلام، وتكون توحيداً إذا كانت بولاية ولي الله وهو الرسول كما في أفعال الحج بعد الإسلام، فالسجود والخضوع لمن أمر الله عزّ وجلّ بالخضوع له طاعة لله بالأصالة، وليس المسجود له إلّا واسطة في العبادة، وآية في المعرفة والانقياد.

٣ - الآيات البينات في المسجد الحرام:

قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾[1]، فالآية تتحدّث عن بناء البيت الحرام وأنه أوّل بيت وأشرف بيت وضع للناس لأجل عبادة الله تعالىٰ، فهو إمام المساجد وأوّلها، ومنه تتشعّب بقيّة بيوت الله تعالىٰ، التي وضعت للعبادة، ففي

---

(١) آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

الآية الكريمة مزج بين حقيقتين:

الأولى: أن البيت الحرام هو أوّل بيت وضع للعبادة وللحجّ.

الثانية: ما يحويه هذا البيت المبارك من آيات بيّنات، وهي مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً.

فعندما أراد الله تعالىٰ أن يبيّن حقيقة بيته المبارك وأنه وضع للعبادة والتوحيد والتطهير من الشرك والهداية للعالمين، ذكر سبب ذلك، وهو أنه فيه آيات بيّنات.

إذن الركن الركين في ماهية البيت الإلهي وفي كونه هداية للعالمين ومحلّاً للعبادة والتوحيد ونفي الشرك هو كونه فيه آيات بيّنات، فالذي يُعظّم شأنه ويجعل العبادة فيه عبادة توحيدية توفّره علىٰ تلك الآيات البيّنات، والعطف في الآية المباركة عطف بيان، فالآيات المقصودة في الآية المباركة هي مقام إبراهيم عليه السلام أوّلاً، ومن دخله كان آمناً ثانياً، وهاتان الآيتان في البيت الحرام ذُكرا على سبيل التمثيل لا الحصر؛ ولذا جاء التعبير في الآية بلفظ الجمع وهو (آيات بيّنات).

فالبيت الذي وضع للناس من أجل العبادة والهدى ونفي الشرك ميزته التي جعلته كذلك هي أنه فيه آيات بيّنات، والحجّ الذي هو شرعاً القصد إلىٰ بيت الله الحرام للوفود علىٰ الله تعالىٰ جُعل مقروناً بالآيات، وهي مقامات الأنبياء وقبورهم ومناسكهم؛ ليكون دليلاً وشاهداً علىٰ أن التوجّه والسير إلىٰ الله عزّ وجلّ لا يتمّ إلّا بالتوجّه بأنبيائه وأصفيائه والتوسّل بهم إلىٰ الله تعالىٰ.

فلا ينفكّ توحيد الله وعبادته عن التمسّك بالآيات البيّنات، كما مرّ ذلك في

سورة الأعراف، وهو قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾**(١)، حيث ربطت بين التمسّك بالآيات وبين استجابة الدعاء والتقرّب وقبول الأعمال والنجاة من النار.

وفيما يلي نحاول استعراض بعض هذه الآيات البيّنات الموجودة في البيت الحرام، وهي:

١ـ مقام إبراهيم عليه السلام.

٢ـ الأمن والأمان بالنسبة إلىٰ داخليه من الحجّاج والمعتمرين وغيرهم.

٣ـ المستجار أو الملتزم.

٤ـ حجر إسماعيل وقبره وقبر أُمه وقبر سبعين نبيّ.

٥ـ الصفا والمروة.

٦ـ الحجر الأسود.

٧ـ مشاعر الحجّ ومناسكه، كالمزدلفة ومنىٰ والجمرات وعرفة.

مقام إبراهيم:

هذه الآية الإلهية من أبرز معالم وآيات المسجد الحرام، وقد نصّت علىٰ ذلك الآية التي هي محلّ البحث، وقد ورد في سورة البقرة أيضاً قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى**

---

(١) الأعراف: ٤٠.

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(١)، والتعبير بـ(مقام) في كلا الآيتين للدلالة على التفخيم والتعظيم لذلك المكان وهو حجر من الأحجار كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾(٢) وقوله تعالىٰ: ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾(٣)، وليس ذلك إلّا لكونه لامس بدن إبراهيم عليه السلام، حيث كان يقف عليه عند بنائه للبيت الشريف.

فهذا الحجر عظّمه الله تعالىٰ وفخّمه وسمّاه مقاماً، وأمرنا أن نتّخذه مصلّىٰ، أي نتّخذه قبلة بالاتجاه إليه وإلىٰ الكعبة أثناء صلاة الطواف وغيرها في شعيرة الحجّ والعمرة، التي هي القصد والتوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ، فالحاج عندما يريد أن يقصد ويتوجّه إلىٰ ربّه بعمرة أو حجّ في الطواف وفي بيت التوحيد ومعقله، لابدّ له من التوجّه بالحجج والوسائط والآيات إلىٰ الله تعالىٰ، وهو مقام إبراهيم والكعبة المشرّفة، وليس ذلك كلّه إلّا لتبرّك الحجر بملامسة بدن إبراهيم عليه السلام، فيتوجّه به إلىٰ الله في الصلاة، فلا يستطيع المسلم أن يتجنّب أو يستبعد آيات الله وحججه في أبرز معالم التوحيد وهو الحجّ.

وإذا كان الحجر بملامسته بدن إبراهيم عليه السلام هذه حاله، فكيف بك بنفس النبيّ إبراهيم؟ ألا يتوجّه به إلىٰ الله عزّ وجلّ بالأولوية، فيقال: ياوجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله؟!

وقد جاء في دعاء الندبة ما يقرب من هذه المضامين.

والحاصل: إن هناك رمزاً آخر بالاضافة إلىٰ رمزية الكعبة، لابدّ من التوجّه

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) سورة النازعات: ٤٠.

(٣) سورة الإسراء: ٧٩.

إليه واستقباله في الصلاة، ومن لم يصلِّ صلاة الطواف إلىٰ المقام والكعبة معاً فصلاته باطلة، وبالتالي يكون نُسكه باطلاً وقصده إلىٰ الباري تعالىٰ لم يتحقّق، لعدم إتيان البيوت من أبوابها.

بيان آخر للآية الكريمة:

ثبت في علم الأصول أن الحكم معلول لموضوع نفسه ولا يمكن أن يكون علّة له، ففرض الموضوع سابق ومتقدّم علىٰ فرض الحكم، والحكم في قوله تعالىٰ، ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ هو وجوب اتخاذ المقام مصلّىٰ، والموضوع هو مقام إبراهيم عليه السلام، ومتعلّق الحكم هو استقبال مقام إبراهيم عليه السلام في الصلاة.

وحيث أن الموضوع سابق علىٰ الحكم سبق العلّة علىٰ معلولها، فلابدّ من فرض المفروغية عن جعل سابق لتحقّق الموضوع في نفسه، وهو كون مقام إبراهيم عليه السلام محلّ للقربات والتعبّد والبركة والقداسة، وحينئذٍ وبعد الفرغ عن ذلك يأتي المحمول، وهو وجوب اتخاذه مصلّىٰ باستقباله في الصلاة إلىٰ جهة الكعبة.

فالحكم دالّ علىٰ أن للموضوع أسبقية في القداسة وكونه معلماً من معالم الدين، وليس المقام المذكور إلّا صخرة لامست قدمي إبراهيم عليه السلام فتقدّست بذلك وأصبحت ذات حرمة يتولّد منها وجوب اتخاذه مصلّىٰ، بأن يجعل قبلة مع الكعبة، فيستقبل في صلاة الحجّ والطواف في بيت الله الحرام، ويتقرّب بالاتجاه به إلىٰ الله تعالىٰ.

فالمثابة إلىٰ بيت الله الحرام من دون اتخاذ مقام إبراهيم مصلّىٰ يكون وثناً وشركاً كعمل المشركين ومناسكهم.

ومن ذلك يتّضح أن البيت الحرام إنما يجب أن يقصد بشرط، وهو أن تُقرن العبادة التوحيدية للحجّ بوليّ الله إبراهيم عليه السلام، والمقامات المقدّسة والمشاهد المشرّفة، التي حلّ فيها أو لامست بدنه المبارك، فالمسلم يقصد في حجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ الوصول إلىٰ آثار الأنبياء ومقاماتهم؛ لكونها مواطن شعّرها الله عزّ وجلّ وجعلها أسباباً ووسائط لنيل القربىٰ والزلفىٰ إليه تعالىٰ.

وإذا كانت صخرة لامست قدمي إبراهيم عليه السلام لها تلك القداسة والعظمة والبركة، فكيف بك بمشاهد النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، الذين هم أفضل وأعظم من إبراهيم وجميع الأنبياء عليهم السلام، حيث نصّ القرآن علىٰ كون علي عليه السلام بمنزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله، وهذا مقام لم يحظَ به أحد من الأنبياء والمرسلين، وكذلك قرنهم الله تعالىٰ بنبيّه في مواطن عديدة كما سيأتي بيانه، إختصهم بذلك دون بقية الأنبياء والمرسلين، كما نعتهم بأنهم أوتوا علم الكتاب كلّه في قوله: ﴿ **لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** ﴾[1] وهم أهل آية التطهير، وكذا ما في قوله تعالىٰ: ﴿ **قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾[2] بينما لم يثبت الله تعالىٰ علم الكتاب كلّه لأحد من الأنبياء، ففي النبي عيسىٰ عليه السلام قال تعالىٰ علىٰ لسانه: ﴿ **وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ** ﴾[3] وفي شأن النبي موسىٰ عليه السلام:

---

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٧٩.

(٢) سورة الرعد ١٣ : ٤٣.

(٣) سورة الزخرف ٤٣ : ٦٣.

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً ﴾[١] فلم يكن من مقامهما عليهما السلام أن يبيّنا كلّ ما يختلف فيه بني إسرائيل ولم يكتب في ألواح موسىٰ عليه السلام كلّ شيء، بل من كل شيء؟! وعلىٰ هذا كلّه ألا تكون مشاهدهم والأماكن التي حلّوا فيها محلاً للبركة والقداسة وموجبة للزلفىٰ إلىٰ الله عزّ وجلّ؟!

إذن هذه الآية المباركة تفيد عموم التبرّك بمواضع الأنبياء والأولياء وأنه من صميم التوحيد ونبذه من صميم الوثنية والجاهلية.

وليس ذلك إلّا لكونها من شعائر الله، فيجب تعظيمها تعظيماً لله تعالىٰ، فهذه الآية الكريمة دالّة بالنصّ علىٰ تشعير مواطن الأنبياء والمصطفين للقربىٰ والعبادة.

ثم إنه لا يخفىٰ ما في التعبير بـ(المقام) في الآية المباركة من الدلالة علىٰ ما تقدّم؛ لأن التعبير بـ(مقام) له دلالة شرعية أديانية بكون ذلك المكان محلاً يتبرّك به.

وهكذا إضافة المقام إلىٰ إبراهيم مُشعر بالعليّة، فليس ذلك الحكم حكماً لكلّ حجر، بل الحجر المنتسب إلىٰ إبراهيم عليه السلام.

بل قد حكىٰ القرطبي في تفسيره عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء أن مقام إبراهيم الحج كلّه، وعن عطاء أنه عرفة ومزدلفة والجمار وقاله الشعبي، النخعي: الحرم كلّه مقام إبراهيم، وقاله مجاهد[٢]، فعلىٰ هذه الأقوال في تفسير مقام إبراهيم يتّضح جليّاً أن الحج والحرم كلّه قد مُلأ ببصمات وإضافات منتسبة

(١) سورة الأعراف ٧: ١٤٥.

(٢) تفسير القرطبي: ج ٢ ص ١١٣.

إلىٰ النبي إبراهيم عليه السلام وأنه لأجل ذلك استأهلت تلك الأماكن أن تكون مواطن لعبادة الله، وأن الحج جعل عبادة توحيدية عظيمة بوسيلة التوجّه بأنبياء الله في الأعمال والنسك التي يؤتىٰ بها، حيث أضيفت إليهم عليهم السلام، وسيأتي مزيد من الإيضاح لذلك في بقية مقامات الحج.

ولأجل ذلك كلّه ورد الحثّ عن أهل البيت عليهم السلام لأصحابهم بالتواجد في الأماكن التي شهدها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وتشرّفت بحلوله صلى الله عليه وآله فيها.

من ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال لعبد الأعلىٰ: «**إذا مررت بوادي محسّر فاسعَ فيه، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله سعى فيه**»(١).

وعن عقبة بن خالد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام إنا نأتي المساجد التي حول المدينة فبأيها أبدأ؟ فقال: «**ابدأ بقبا فصلّ فيه وأكثر، فإنه أوّل مسجد صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه العرصة، ثم إئت مشربة أم إبراهيم فصلّ فيها، فإنها مسكن رسول الله صلى الله عليه وآله ومصلّاه**»(٢).

كذلك عن أبي عبد الله عليه السلام قال لمعاوية بن عمّار: «**لا تدع إتيان المشاهد كلّها، مسجد قبا فإنه المسجد الذي أسّس على التقوى من أوّل يوم، ومشربة أمّ إبراهيم، ومسجد فضيخ، وقبور الشهداء ومسجد الأحزاب وهو مسجد الفتح**»(٣).

والروايات في هذا المجال كثيرة جداً نكتفي منها بهذا المقدار.

هذه هي الآية الأولى من الآيات البيّنات في المسجد الحرام.

---

(١) تهذيب الأحكام / الطوسي: ج ٥ ص ١٩٥.
(٢) الكافي: ج ٣ ص ٥٦٠.
(٣) الكافي: ج ٣ ص ٥٦٠.

حجر إسماعيل:

لقد ورد في الروايات أن حجر إسماعيل يضمّ قبره وقبر أمه هاجر وقبر سبعين نبيّاً أو تسعة وتسعين.

ففي الكافي عن معاوية بن عمّار قال: «**سألت أبا عبدالله‍ عليه السلام عن الحجر أمن البيت هو أو فيه شيء من البيت؟ فقال: لا ولا قُلامة ظفر، ولكن إسماعيل دفن أمه فيه فكره أن توطأ، فحجّر عليه حجراً، وفيه قبور أنبياء**»(١).

وقال السيوطي في الدرّ المنثور: (وتوفّي إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلي الكعبة مع أمه هاجر)(٢).

وأخرج القرطبي في تفسيره، عن عبد الله بن ضمرة السلولي: (ما بين الركن والمقام إلىٰ زمزم قبور تسعة وتسعين نبيّاً)(٣).

وفي الطبقات لابن سعد، عن أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: (لما بلغ إسماعيل عشرين سنة توفيت أمه هاجر وهي ابنة تسعين سنة فدفنها إسماعيل في الحجر)(٤).

وأخرج أيضاً عن أبي جهم بن حذيفة بن غانم قال: (أوحى الله علىٰ إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت وهو يومئذٍ ابن مائة سنة وإسماعيل يومئذٍ ابن ثلاثين سنة فبناه معه، وتوفّي إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلي الكعبة مع

---

(١) الكافي / الكليني: ج ٤ ص ٢١٠.

(٢) الدر المنثور: ج٣ ص١٠٣، وكذا فضائل مكة للحسن البصري: ص٢٠، ومعجم البلدان للحموي: ج٢ ص٢٢١.

(٣) تفسير القرطبي: ج٢ ص١٣٠.

(٤) الطبقات الكبرى: ج١ ص٥٢.

أمه هاجر)(١).

وفي كتاب فضائل مكّة للحسن البصري، عن رسول الله ﷺ قال: «**إن حول الكعبة قبر ثلثمائة نبيّ، وما بين الركن اليماني والركن الأسود قبر سبعين نبيّاً**»(٢).

ثم إن من طاف حول الكعبة بإخراج حجر أسماعيل فطوافه باطل، وقد نصّ علىٰ ذلك الفقهاء من الفريقين، أما فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام فهو واضح، وقد صرّحت بذلك روايات أهل البيت عليهم السلام، وأما فقهاء أهل سنّة الجماعة، فقد صرّحوا بهذه الحقيقة أيضاً، ففي مواهب الجليل للرعيني، قال: (وقال ابن مسدي في منسكه: وأما قولنا ويطوف من وراء حجر إسماعيل فهو الاجماع، ثم اختلفوا، فقال أصحاب الرأي: يطوف من وراء الحجر استحباباً، وقال جمهور العلماء بالوجوب إلىٰ أن قال ـ ثم اتفقوا علىٰ أن من طاف ببناء البيت الظاهر ولم يُدخل الحجر في طوافه أنه يعيد الطواف ما دام بمكّة، ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة ومن تبعه: يعيد استحباباً، وقال جمهور العلماء: يعيد وجوباً؛ لأنه كمن لم يطف، فإن لم يذكر حتىٰ انصرف إلىٰ بلاده، فقال ابن عباس: هو كمن لم يطف، وإليه ذهب مالك والشافعي وأبو ثور وأحمد بن حنبل وإسحاق وداود وغيرهم من أهل العلم، وقالوا: عليه أن يرجع من حيث كان، يطوف من وراء الحجر)(٣).

وقال الشافعي: (وإكمال الطواف بالبيت من وراء الحجر ووراء شاذروان

(١) الطبقات الكبرى: ج١ ص٥٢.

(٢) فضائل مكّة والسكن فيها: ص ٣٠.

(٣) مواهب الجليل / الحطّاب الرعيني: ج٤ ص١٠١.

الكعبة ، فإن طاف بالبيت وجعل طريقه من بطن الحجر أعاد)(١).

وعن ابن عباس: (من طاف بالبيت فليطف من وراء الحجر)(٢).

وليس ذلك إلّا لكون الحجر من تلك الآيات التي عرّف الله عزّ وجلّ بيته المبارك بها ، والطواف فيه نوع من المدارية والمحورية للكعبة الشريفة ، فحينما يتمحور الحاج ويدور ويطوف حول الكعبة التي تشرّفت بحجج الله وآياته ، فإن ذلك معناه أن تلك الآيات هي الأبواب إلىٰ الله عزّ وجلّ وبها يعبد ويقصد ويتوجّه إليه.

فإسماعيل وهو نبيّ من الأنبياء على ملّة أبيه إبراهيم حنيفاً مسلماً ، ويعلم أن الكعبة أوّل بيت وضع للناس كافّة ولجميع الأجيال مناراً للعبادة والطهارة والتوحيد ، مع ذلك قام ببناء قبر لأمّه ، وهي وليّة من الأولياء ، مع سبعين نبياً من الأنبياء ، وجعل الطواف كما هو طواف بالكعبة طواف بقبر أمه وكذا قبره وقبر سبعين أو أكثر من الأنبياء.

والقرآن يأتي بعد ذلك ويقرّ هذه الحقيقة ويجعلها من الأمور التربوية للمسلمين ، فيقول إن هذا البيت معرفته وشرفه أنه فيه آيات بيّنات ، هي قبور الأنبياء والأولياء.

ففي تشريع الملّة الحنيفية أن قبور الأنبياء تقصد ويتوجّه إليها ويطاف بها ، وهذا من التوحيد التام ، لا سيما وأن الله عزّ وجلّ أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الشرك والمشركين ، قال تعالىٰ: ﴿ **وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ**

---

(١) الأم / الشافعي: ج٢ ص١٩٣.

(٢) البخاري: ج٤ ص٢٣٨.

طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[١] ومن تشريعات الملّة الحنيفية، التي توجب الطهارة من الشرك والتشرف بمعالم التوحيد ويكون ذلك البيت أعظم وأطهر مسجد في الأرض يُعبد فيه الله تعالىٰ، هي الآيات البيّنات، قبر إسماعيل وهاجر وعدد كبير من الأنبياء، ويكون الطواف كما هو طواف بالكعبة طواف بالقبور والآيات، التي بها كان البيت طاهراً من الشرك ومباركاً وهدىٰ للعالمين.

إذن الطواف الذي هو صلاة لابدّ أن يتوجّه فيه إلىٰ القبور، ولابدّ من الدخول إلىٰ البيت من أبوابه وإلّا كان الطواف باطلاً، ولم يكن البيت هدىٰ للعالمين، هذه هي الملّة الحنيفية.

المستجار او الملتزم:

هذه هي الآية الثالثة من آيات المسجد الحرام، وهذه الآية الإلهية في نفس جدار الكعبة مما يقرب من الركن اليماني ويقابل من جهته الأخرىٰ باب الكعبة، الذي يقرب من الحجر الأسود، وفي نصوص الفريقين يستحب التزام الكعبة وأن يستجير الداعي بالله تعالىٰ في ذلك المكان.

أما الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام فهي كثيرة جدّاً:

فعن معاوية بن عمّار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إذا فرغت من طوافك وبلغت مؤخّر الكعبة وهو بحذاء المستجار دون الركن اليماني بقليل فابسط يديك وألصق بدنك وخدّك البيت، وقل: اللّهمّ البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مكان**

---

(١) البقرة: ١٢٥.

العائذ بك من النار، ثم أقرّ لربّك بما عملت، فإنه ليس من عبد مؤمن يقرّ لربّه بذنوبه في هذا المكان إلّا غفر الله له إن شاء الله»(١).

كذلك عنه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«لما طاف آدم بالبيت وانتهى إلى الملتزم، قال له جبرئيل: ياآدم أقرّ لربّك بذنوبك في هذا المكان ـ إلى أن قال ـ فأوحى الله إليه ياآدم قد غفرت لك ذنبك، قال: ياربّ ولولدي أو لذريتي، فأوحى الله عزّوجلّ إليه: ياآدم من جاء من ذريتك إلى هذا المكان وأقرّ بذنوبه وتاب كما تبت ثم استغفر غفرت له»**(٢).

وغيرها من الروايات في هذا المجال.

وقال الشربيني في مغني المحتاج: (الدعاء يستحبّ في خمسة عشر موضعاً بمكة: في الطواف، والملتزم، وتحت الميزاب، وفي البيت، وعند زمزم، وعلى الصفا والمروة، وفي السعي، وخلف المقام، وفي عرفات، ومزدلفة، ومنى، وعند الجمرات الثلاث)(٣).

وفي حواشي الشرواني، أخرج ذلك عن الحسن البصري(٤).

والمضمون ذاته جاء في مواهب الجليل للحطّاب الرعيني(٥).

وقال الشافعي: (وأُحبّ له إذا ودّع البيت أن يقف في الملتزم، وهو بين الركن والباب، فيقول: اللّهمّ إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك،

(١) وسائل الشيعة / الحرّ العاملي: ج١٣ ص٣٤٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٣ ص٣٤٧.
(٣) مغني المحتاج / الشربيني: ج١ ص٥١١.
(٤) حواشي الشرواني: ج٤ ص١٤٣.
(٥) مواهب الجليل: ج٤ ص١٥٨.

حملتني على ما سخّرت لي من خلقك، حتىٰ سيّرتني في بلادك وبلّغتني بنعمتك، حتى أعنتني على قضاء مناسكك، فإن كنت رضيت عنّي فازدد عنّي رضاً، وإلّا فمن الآن قبل أن تنأىٰ عن بيتك داري)(١)، وقال النووي بعد ذكره لهذا الدعاء: (واتفق الأصحاب علىٰ استحبابه)(٢).

وقال النووي أيضاً عندما ذكر الملتزم: (سمّي بذلك لأن الناس يلزمونه عند الدعاء)(٣).

وقال أيضاً: (قال القاضي أبو الطيّب في تعليقه: قال الشافعي في مختصر كتاب الحجّ: إذا طاف للوداع استحبّ أن يأتي الملتزم فيلصق بطنه وصدره بحائط البيت ويبسط يديه علىٰ الجدار، فيجعل اليمنىٰ مما يلي الباب واليسرىٰ مما يلي الحجر الأسود، ويدعو بما أحب من أمر الدنيا والآخرة إلىٰ أن قال وعن ابن عباس: أنه كان يلتزم ما بين الركن والباب، وكان يقول ما بين الركن والباب يُدعىٰ الملتزم، لا يلزم ما بينهما أحد يسأل الله عزّ وجلّ شيئاً إلّا أعطاه إيّاه)(٤).

وأخرج البيهقي في سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: (رأيت رسول الله ﷺ يُلزق وجهه وصدره بالملتزم)(٥).

وكذا أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «**ما بين الركن والمقام**

---

(١) الأم / الشافعي: ج٢ ص٢٤٣.

(٢) المجموع / النووي: ج٨ ص٢٥٨.

(٣) المجموع / النووي: ج٨ ص١٣.

(٤) المجموع / النووي: ج٨ ص٢٦١.

(٥) السنن الكبرى: ج٥ ص١٦٤.

ملتزم ما يدعو به صاحب عاهة إلّا برأ»(١).

فالمستجار والملتزم معلم من معالم الطواف والكعبة، وهو الموضع الذي انشقّ الجدار منه لفاطمة بنت أسد رضوان الله عليها، عندما أخذها الطلق بسيّد الأوصياء عليه السلام، حيث استجارت بالكعبة الشريفة من ذلك الموضع، فانشقّ لها الجدار ودخلت الكعبة وولدت أمير المؤمنين عليه السلام فيها، كما نصّت على هذه الملحمة التأريخية كتب الحديث والسير والتواريخ من الفريقين:

أخرج الصدوق في علل الشرائع بسنده عن سعيد بن جبير قال: (قال يزيد بن قعنب كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب وفريق من عبد العزّى بإزاء البيت الحرام، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام وكانت حاملة به تسعة أشهر، وقد أخذها الطّلق، فقالت: ربّ إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإني مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل عليه السلام وإنه بنى البيت العتيق، فبحقّ الذي بنى هذا البيت وبحقّ المولود الذي في بطني لما يسّرت عليّ ولادتي، قال يزيد بن قعنب فرأينا البيت وقد انفتح عن ظهره، ودخلت فاطمة وغابت عن أبصارنا والتزق الحائط، فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا أن ذلك أمر من الله تعالى، ثم خرجت بعد الرابع وبيدها أمير المؤمنين عليه السلام إلى آخر القصة ـ)(٢).

وقال الحاكم النيسابوري في مستدركه: (تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة)(٣).

---

(١) المعجم الكبير / الطبراني: ج١ ص٢٥٤.

(٢) علل الشرائع: ج١ ص١٣٥، وكذا كشف الغمة للأربلي: ج١ ص٦١.

(٣) المستدرك: ج٣ ص٤٨٤.

وقال ابن الصباغ المالكي: (ولد عليّ عليه السلام بمكة المشرّفة بداخل البيت الحرام إلىٰ أن قال: ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه، وهي فضيلة خصّه الله تعالىٰ بها إجلالاً له وإعلاءً لمرتبته وإظهاراً لتكرمته)(١).

وهذه آية أخرىٰ وشعيرة أخرىٰ من شعائر البيت الحرام، حيث يتأسّىٰ الطائف ويتوسل ويتبرّك بموضع له صلة بأمير المؤمنين وأمه فاطمة بنت أسد، من أجل قبول الدعاء وغفران الذنوب.

السعي بين الصفا والمروة:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾(٢)، والصفا والمروة محلّ هبوط آدم وحوّاء ولبركة هبوطهما جُعلا من شعائر الله وآياته، وسمّيا بهذين الاسمين، لهبوط آدم وحوّاء عليهما، حيث ورد في الروايات أن آدم لما نزل علىٰ الصفا وهو صفيّ الله تعالىٰ سُمّي الصفا، ولما نزلت حوّاء علىٰ المروة سُمّيت مروة؛ لأنها مرأة فاشتقّ منها مروة.

وأما في تشريع السعي بين الصفا والمروة فورد أن هاجر سعت بين الصفا والمروة لاستطلاع وجود الماء سبع مرات فشرّع كذلك.

وإليك بعض تلك الروايات:

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض أهبط على**

---

(١) الفصول المهمة / ابن الصباغ المالكي: ص ١٧١.

(٢) البقرة: ١٥٨.

الصفا ولذلك سُمّي الصفا؛ لأن المصطفى هبط عليه، فقطع للجبل اسم من اسم آدم، يقول الله عزّوجلّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[١]، وأهبطت حوّاء على المروة، وإنما سُمّيت المروة لأن المرأة هبطت عليها، فقطع للجبل اسم من اسم المرأة، وهما جبلان عن يمين الكعبة وشمالها»[٢].

كذلك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إن إبراهيم عليه السلام لما خلّف إسماعيل بمكة عطش الصبي، وكان فيما بين الصفا والمروة شجر، فخرجت أمه حتى قامت على الصفا، فقالت: هل بالوادي من أنيس؟ فلم يجبها أحد، فمضت حتى انتهت إلى المروة، فقالت: هل بالوادي من أنيس؟ فلم يجبها أحد، ثم رجعت إلى الصفا، فقالت كذلك حتى صنعت ذلك سبعاً فأجرى الله ذلك سنّة»**[٣].

وعن ابن عباس في حديثه عن هاجر أم اسماعيل قال: (ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت وليس بمكّة يومئذٍ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفىٰ إبراهيم منطلقاً إلىٰ أن قال:

فجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتىٰ إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجاع، وجعلت تنظر إليه يتلوّىٰ أو قال: يتلبّط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحداً، فهبطت من الصفا حتىٰ إذا

---

(١) آل عمران: ٣٣.

(٢) الكافي: ج٤ ص١٩١.

(٣) علل الشرائع / الصدوق: ج ٢ ص ٤٣٢.

بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الانسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال النبيّ ﷺ: فلذلك سعى الناس بينهما)(١).

إذاً بسبب الأنبياء والأصفياء والأولياء، كآدم وإسماعيل وحوّاء وهاجر جعل منسك السعي بين الصفا والمروة من مناسك الحجّ والتوحيد.

والباري تعالىٰ عبّر عن هذه الآية بأنها من شعائر الله، وهو ذات التعبير بكونها آيات بيّنات، أي محلّ هداية للعالمين وآية وعلامة وشعيرة بيّنة من معالم التوحيد.

فالمسجد الحرام والبيت الشريف بورك به وكانت له تلك المنزلة الرفيعة؛ لما حلّ فيه من الوسائل والوسائط والآيات والشعائر الهادية إلىٰ التوحيد، وهم الأنبياء والأصفياء ومقاماتهم، التي أصبحت أقرب الوسائل إلىٰ الله عزّ وجلّ ببركتهم؛ لكونهم كلمات الله وأسمائه التي يتوجّه بها إليه عزّ وجلّ.

بئر زمزم:

من الأمور التي سنّها الله عزّ وجلّ بعد طواف الحجّ الشرب من ماء زمزم، الذي نبع ببركة هاجر وإسماعيل عليهما السلام، فأصبح من أعمال الحجّ الندبية.

فهو من توابع البيت الحرام وآية من آياته؛ لما له من الصلة بهاجر وإسماعيل.

أخرج البخاري عن ابن عباس في معرض حديثه عن هاجر أمّ إسماعيل: (فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ـ حتىٰ ظهر

---

(١) السنن الكبرى / النسائي: ج ٥ ص ٥٩، فضائل الصحابة / أحمد بن حنبل: ص ٨٢.

الماء فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها عيناً معنياً، قال: فشربت وأرضعت ولدها)[١].

وأما من طرقنا فقد أخرج القمي في تفسيره، أن هاجر لما سعت سبعة أشواط: (فلمّا كان في الشوط السابع وهي على المروة نظرت إلىٰ إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجله، فعادت حتىٰ جمعت حوله رملاً، فإنه كان سائلاً فزمّته بما جعلته حوله؛ فلذلك سُمّيت «زمزم»)[٢].

أعمال الحجّ ومناسكه:

لا ريب أن من لاحظ روايات الفريقين يجدها متّفقة علىٰ أن أعمال الحجّ كلّها لها صلة وثيقة في تشريعها بأنبياء الله ورسله، فسُمّيت عرفة بهذا الإسم لاعتراف النبيّ آدم وإبراهيم عليهما السلام بذنوبهما[٣]، وما يأتي به الحجّاج في يوم عرفة تأسّياً بما جاء به الأنبياء، كآدم وإبراهيم عليهما السلام، وكذا سمّيت المزدلفة بذلك؛ لأن آدم وإبراهيم ازدلفا من عرفات ليقترّبا إلىٰ البيت الحرام ويكون ذلك قُرباً حسّياً كناية عن القرب المعنوي، ومنىٰ أيضاً سُمّيت بهذا الاسم، إما لدعاء آدم وإبراهيم عليهما السلام وطلبهما لما يأملان، أو لأجل طلبهما التطهّر من الأماني الباطلة،

(١) صحيح البخاري: ج٤ ص١١٤.

(٢) تفسير القمي: ج١ ص٦٢.

(٣) المراد من نسبة الذنب إلى النبيّ المعصوم هو ما يراه في نفسه من التقصير في طاعة الله عزّ وجلّ لعظم حقّه، فالانسان العارف بالله تعالى يجد نفسه مقصراً وإن كان في أعلى درجات الطاعة والعبادة، وذلك من باب أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فالمقرّب مُطالب بأدب إلهي أعظم مما يطالب به الأبرار.

كذلك الجمرات جعلت منسكاً لرمي آدم وإبراهيم عليهما السلام الشيطان في تلك المواضع.

إذن الحجّ بكلّ أجزائه ومناسكه ومواطنه متعلّق ومتلوّن بأفعال الأنبياء والأولياء وأسمائهم، فهم أبواب بيت الله وآياته البيّنات وشعائره الباسقات، فإذا أراد الحاج والموحّد أن يسلك السبيل إلىٰ الله عزّوجلّ لابدّ أن يسلك ماسلكه أنبياء الله ورسله ويحاذي في فعله سيرهم وسلوكهم، ويتوسل إلىٰ الله عزّوجلّ في تلك المواضع التي سُمّيت بأسماءالأنبياء وأفعالهم، تذكيراًبهم وإحياءاً لأمرهم وتأكيداً علىٰ أن القصد والتوجّه إلىٰ الله عزّوجلّ لا يُسلك إلّا بحجج الله ورسله.

والحاصل: أن الحجّ بمجموعه آية بيّنة علىٰ أن العبد لا يمكنه أن يفد علىٰ الله تعالىٰ إلّا بالتوسل بذوات الأنبياء وأفعالهم وما يتصل بهم؛ لكونهم شعائر الله وأبوابه، التي لا سبيل للقصد إلىٰ الله عزّ وجلّ إلّا بها.

فائدة:

مما ذكرنا سابقاً من ضرورة التمسّك بالآيات والحجج، لحصول البركة والطهارة والهداية والوفود علىٰ الله تعالىٰ، يظهر المعنىٰ المراد من الروايات، التي نصّت على أن زيارة النبيّ صلى الله عليه وآله وزيارة المعصوم والإقرار بالولاية له بعد إتمام مناسك الحجّ هي الطهارة العظمىٰ، وأن قضاء التفث له معنىٰ تأويلي غير المعنىٰ التنزيلي هو لقاء الإمام المفروض الطاعة والإقرار له بالولاية، وذلك لأنه باب الله الذي منه يؤتىٰ والآية البيّنة التي لا يقبل عمل إلّا بالتوسل بها.

أخرج الصدوق بسنده عن عبد الله بن سنان عن ذريح المحاربي ، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الله أمرني في كتابه بأمر فأحبّ أن أعلمه ، قال عليه السلام: **وما ذاك؟** قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** ﴾[1] قال: ﴿ **لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ** ﴾ **لقاء الإمام** ﴿ **وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** ﴾ **تلك المناسك**»[2].

قال عبد الله بن سنان: «فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** ﴾؟ قال عليه السلام: أخذ الشارب وقص الأظفار وما أشبه ذلك ، قال: قلت: جعلت فداك فإن ذريحاً المحاربي حدّثني عنك أنك قلت له: ﴿ **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ** ﴾ لقاء الإمام ﴿ **وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** ﴾ تلك المناسك؟ فقال: **صدق ذريح، وصدقت، إن للقرآن ظاهراً وباطناً، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟**»[3].

فلابدّ من الورود على الإمام المعصوم المفروض الطاعة ، للطهارة من الشرك والهداية إلى التوحيد.

٤ - التوجه إلى القبلة طاعة للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله:

قال تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ** ﴾[4].

فإن هذه الآية المباركة صريحة في أن استقبال الكعبة المكرمة أو بيت

---

(١) الحج: ٢٩.
(٢) الكافي / الكليني: ج٤ ص٥٤٩.
(٣) معاني الأخبار: ص٣٤٠ ح١٠.
(٤) البقرة: ١٤٣.

المقدس، لم يكن الغرض منه نفس بيت المقدس أو الكعبة بما هي، بل من أجل استعلام الطوعانية والانصياع إلىٰ سيّد الرسل ﷺ، وهي بدورها تؤدّي إلىٰ طاعة الله تعالىٰ.

إذن لابدّ من توسيط ولاية النبيّ الأكرم ﷺ وطاعته في قبول العبادة، والاستكبار عليه وعدم الانصياع إلىٰ أوامره بالاعتراض علىٰ القبلة التي يأمر بالتوجهّ إليها في العبادة اعتبرته الآية المباركة كفراً وارتداداً وانقلاباً علىٰ الأعقاب، كما فعلت ذلك قريش عندما اعترضت علىٰ النبيّ الأكرم ﷺ بجعله بيت المقدس قبلة يتوجّه إليها في العبادة، واتهمته بأنه هوّد فتيان قريش.

٥ - المودّة لذريّة إبراهيم٧ من شرائط الحجّ وغاياته:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(١).

هذه الآية المباركة من آيات الحجّ، التي تتعرّض لبيان ركن هامّ من أركان مناسك الحجّ أو العمرة.

بيان ذلك:

إن هذه الآيات القرآنية المباركة نصّت علىٰ أن إبراهيم عليه السلام جاء بذريّته

---

(١) إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧.

وأسكنها البيت الحرام بكلّ ما أحاط بذلك الإسكان من ملابسات وعناء ومشقّة ووحشة وغربة وجوع وعطش بلا أنيس أو كفيل لتلك الذريّة الطاهرة سوىٰ الله تعالىٰ امتثالاً لأمر الله عزّ وجلّ؛ لغايتين إلهيتين شريفتين، اقتضتهما الحكمة الإلهية من ذلك الإسكان، إحداهما غاية متوسّطة والأخرىٰ غاية قصوىٰ ونهائية تترتب علىٰ إسكان الذريّة إلىٰ جنب المسجد الحرام:

الغاية الأولى: قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾، والمراد من ذلك عمارة المسجد الحرام وتشييد معالم الدين وأركان التوحيد، وذلك بإقامة الصلاة والطواف والسعي وبقيّة مناسك الحجّ وكافّة العبادات وجميع الشعائر الإلهية، والصلاة إنما ذكرت في الآية المباركة مثالاً لهذه الغاية.

وحاصل هذه الغاية هو جعل المركزية للكعبة المشرّفة في التوجّه إلىٰ الله تعالىٰ لإقامة الدين ومناسك العبادة.

ولكن هذه الغاية غير كافية ولا مقبولة عند الله عزّ وجلّ ما لم تتحقّق الغاية النهائية، التي أراد الله تعالىٰ تحقّقها من ذلك الإسكان.

الغاية الثانية: قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ** ﴾[1]

فإن الفاء في قوله عليه السلام ﴿ **فَاجْعَلْ** ﴾ للتفريع، وذلك لبيان أن لعمارة المسجد الحرام وإقامة الصلاة والحجّ وشعائر الدين غاية أخرىٰ لابدّ من تحقّقها، وهي أن تهوىٰ القلوب تلك الذريّة الطاهرة، التي أسكنها عند المسجد الحرام.

إذن لابدّ أن يكون التوجّه إلىٰ الله تعالىٰ في العبادات والشعائر الدينية بالكعبة المشرّفة، التي جعل إبراهيم عليه السلام لها المركزية والمحورية، بإسكان ذريّته فيها

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

لإقام الصلاة، وكذا بالذريّة الطاهرة عن طريق هويّ القلب ومحبّتهم ومودّتهم والرجوع إليهم.

فالناس إذا توجّهوا إلىٰ بيت الله الحرام وجعلوه قبلة ومركزاً ومحوراً في مناسكهم العبادية، لابدّ أن يتوجّهوا أيضاً إلىٰ الذريّة ويستعرضوا لهم المودّة والنصرة والطاعة والموالاة.

ومن ذلك يتضح أن هذه الآية المباركة من آيات المودّة في القربىٰ، ولا يمكن فصل هذه الآية الكريمة عن الآيات التي ترسم ماهية الحجّ، فغاية الحجّ ومركزية مكّة لمعالم الدين محبّة تلك الذريّة وولايتهم، والمحبّة والولاية من شرائط الحجّ الغائية وكذا من شرائط استقبال الكعبة وقبول العبادات، فالولاية ركن من معالم الدين.

وإن عزل الحج عن مبدأ الولاية والمودّة في القربىٰ يكون وثناً من الأوثان وشركاً من فعال الجاهلية.

والحاصل: إن الغاية من إسكان الذريّة المباركة في البيت المحرم جعل المحورية والمركزية إلىٰ مكّة المكرمة والذريّة الطاهرة، فلا صلاة ولا حجّ من دون التوجّه إلىٰ الكعبة، ولا قيمة للتوجّه إلىٰ الكعبة ما لم يعقبة الإزدلاف إلىٰ الذريّة والمودّة في القربىٰ.

من هم الذريّة الذين تهواهم افئدة الحجاج والطائفين والركّع السجود؟

بعد أن تبين من الآية المذكورة أن مودّة وولاية الذريّة التي أسكنها إبراهيم عند المسجد الحرام ركن من أركان الدين وشرط في قبول العبادات، لابدّ من

التعرّف علىٰ تلك الذريّة لكي يحرز الشخص دينه وعبادته بالتوجّه إليها ومودّتها.

وفي هذا المجال نقول:

إن هذه الذريّة من نسل إسماعيل، وهي الأمة المسلمة، التي جعلها الله عزّ وجلّ كلمة باقية في عقب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تشرك بالله عزّ وجلّ طرفة عين في كلّ زمان.

قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾(١)، ولا شك أن هذه دعوة مستجابة من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تكشف عن وجود بعض من ذريتهما وهي الأمة المسلمة بدرجة من الإسلام والتسليم التي نالها إبراهيم وإسماعيل، وهي ذرية باقية في عقبهما لا تشرك بالله تعالىٰ أبداً، معصومة لها الولاية والإمامة علىٰ الناس؛ لأنها هي الذريّة الإبراهيمية التي طلب إبراهيم عليه السلام لها الإمامة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾(٢).

وهذه الأمة المسلمة هي التي يُبعث فيها خاتم النبيين، الذي هو دعوة إبراهيم وإسماعيل، حيث قالا: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾(٣).

---

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) سورة البقرة ٢: ١٢٩.

أخرج ابن المغازلي في كتابه المناقب، بإسناده إلىٰ عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»، قلت: يا رسول الله وكيف صرت دعوة إبراهيم أبيك؟ قال: **أوحى الله عزّوجلّ إلى إبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فاستخفّ إبراهيم الفرح، فقال: ياربّ ومن ذريتي أئمة مثلي؟ فأوحى الله عزّوجلّ إليه: أن ياإبراهيم إني لا أعطيك عهداً لا أفي لك به، قال: ياربّ ما العهد الذي لا تفي لي به؟ قال: لا أعطيك عهداً لظالم من ذريتك، قال: ياربّ ومن الظالم من ولدي الذي لا ينال عهدك؟ قال: من سجد لصنم من دوني لا أجعله إماماً أبداً ولا يصلح أن يكون إماماً، قال إبراهيم: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾(١) قال النبيّ ﷺ: فانتهت الدعوة إليّ وإلى أخي عليّ لم يسجد أحدنا لصنم قطّ، فاتخذني الله نبياً واتخذ علياً وصياً**»(٢).

وأخرج العياشي في تفسيره عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «قلت له: أخبرني عن أمة محمّد عليه الصلاة والسلام مَن هم؟

قال: **أمة محمّد بنو هاشم خاصّة**، قلت: فما الحجّة في أمّة محمّد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟

قال: **قول الله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٣). فلما أجاب الله إبراهيم وإسماعيل وجعل من ذريّتهم أمة مسلمة وبعث فيها رسولاً منها، يعني من تلك**

---

(١) إبراهيم: ٣٥ـ٣٦.

(٢) المناقب: ص ٢٧٦ ح ٣٢٢.

(٣) البقرة: ١٢٧ـ١٢٨.

الأمة، يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ردف إبراهيم عليه السلام دعوته الأولى بدعوته الأخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصح أمره فيهم ولا يتبعوا غيرهم، فقال: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١)، ففي هذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأمة المسلمة التي بعث فيها محمّداً صلى الله عليه وآله إلّا من ذرية إبراهيم لقوله: ﴿ اجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾»(٢).

ولذا قال الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾: «نحن منهم، ونحن بقية تلك الذريّة»(٣).

ويشير إلى الذرية أيضاً قوله تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾(٤) فهذه الأمة التي هي بعض من ذرية إبراهيم وإسماعيل التي بعث فيها خاتم النبيين وهم على صلة منه وقد سمّاهم النبي إبراهيم وإسماعيل قبل ولادتهم بالمسلمين.

والحاصل: إن الآيات والروايات تصرّح بأن ذريّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طائفة خاصّة طهّرها الله عزّ وجلّ وأذهب عنها الرجس وجعل فيها الإمامة، وطلب إبراهيم عليه السلام لهذه الذريّة المودّة والمحبّة وهويّ الأفئدة إليها، وهذه

---

(١) إبراهيم: ٣٥ـ٣٦.

(٢) تفسير العياشي: ج١ ص٧٩ ح١٠١.

(٣) نفس المصدر: ج٢ ص٢٤٩ ح٣٥.

(٤) سورة الحج ٢٢: ٧٨.

الذريّة هم الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، فبهم يتقرّب ويتوسل إلىٰ الله عزّ وجلّ، وبمودّتهم وولايتهم تقبل الطاعات، ومحبّتهم ركن ركين في الدين، لا يعرض عنه إلّا كافر أو مشرك، ومن هنا جعل النبيّ الأكرم ﷺ عدل الرسالة وأجرها المودّة في القربىٰ كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[1].

ومن ذلك كلّه يتضح أن من تمام الحجّ وسائر العبادات لقاء الإمام وإظهار المودّة والنصرة والتولّي له، وإلّا فلا حجّ ولا طواف ولا صلاة مقبولة عند الله تعالىٰ، فالتوحيد في العبادة هو الإقرار بولاية أهل البيت عليهم السلام.

ومن هنا أيضاً يتضح المراد من قول الإمام الباقر عليه السلام: **«تمام الحجّ لقاء الإمام»**[2].

وكذا قول الإمام الصادق عليه السلام: **«ابدؤوا بمكة واختموا بنا»**[3].

وقول الإمام الباقر عليه السلام: **«إنما أمروا أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرتهم»**[4].

وكذا قال عندما رأىٰ الناس يحجّون بمكّة: **«فعال كفعال الجاهلية، أما والله ما أمروا بهذا، وما أمروا إلّا أن يقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم فيمرّوا بنا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرتهم»**[5].

---

(١) الشورىٰ: ٢٣.

(٢) الكافي / الكليني: ج٤ ص٥٤٩.

(٣) نفس المصدر: ص٥٥٠.

(٤) نفس المصدر: ص٥٤٩.

(٥) الكافي: ج١ ص٣٩٢.

٦ - الولاية من شرائط المغفرة:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾(١)، فلا تحصل المغفرة ولا التوبة ولا الإيمان ولا يقبل العمل الصالح إلّا بشرط الهداية، والمراد من الهداية في هذه الآية المباركة مقام الإمامة؛ لأنها تعني الإيصال إلىٰ المطلوب، وهي مرحلة بعد مقام النبوّة الذي هو إراءة الطريق فقط.

فإن مجرّد إراءة الطريق شأن النبيّ والرسول، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(٢).

وأما مقام الإمامة فنجد أن القرآن الكريم كلّما تعرّض إليه تعرض معه لذكر الهداية بياناً وتفسيراً، قال تعالىٰ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾(٣)، وقال أيضاً عزّ وجلّ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٤)، فوصف الله عزّ وجلّ الإمامة بالهداية وصف بيان وتعريف وتفسير، هذا في إمامة الحقّ.

كذلك في إمامة الباطل والكفر، فإن فرعون الذي هو من أئمة الكفر، قال تعالىٰ في حقّه: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾(٥)، فإمامة الكفر أيضاً فيها هداية وإيصال، ولكن إلىٰ الضلال وخلاف المقصود من الكمال الإنساني؛ ولذا

---

(١) طه: ٨٢.

(٢) إبراهيم: ٤.

(٣) الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣.

(٤) السجدة: ٢٤.

(٥) القصص: ٤١.

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾[1].

فإمامة الحقّ هي الهداية والإيصال إلىٰ المطلوب وولاية على الناس في أعمالهم بأمر ملكوتي من الله عزّ وجلّ، كما يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾.

وإمامة الباطل أيضاً هداية وإيصال، ولكن إلىٰ الضلال وخلاف المقصود.

والحاصل: أن مقام الهداية الإلهية الحقّة بقول مطلق يساوق مقام الإمامة والخلافة الربّانية.

وهذا يعني أن هناك مقاماً ثالثاً غير الشهادة الأولى والشهادة الثانية لابدّ أن يعتقد به المسلم، لكي يكون مهتدياً مؤمناً، فقوله تعالىٰ: ﴿ آمَنَ ﴾ إشارة إلىٰ الشهادة الأولىٰ والثانية، وقوله ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ إشارة إلىٰ الإيمان والعمل بالشريعة الذي هو مقام النبوّة، وقوله: ﴿ ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ إشارة إلىٰ ذلك المقام الثالث والشهادة الثالثة، وهي الولاية والإمامة.

سورة الحمد وإمامة أهل البيت عليهم السلام:

وإذا لم يعتقد بها الشخص ولم يجعلها واسطة بينه وبين ربّه لا يتحقّق منه الإيمان ولا العمل الصالح، فولاية وإمامة أهل البيت عليهم السلام واسطة ووسيلة يتوسل بها العبد إلىٰ الله عزّ وجلّ لقبول عقيدته وعبادته، وهذا ما صرّحت به سورة الحمد، التي يقرؤها المسلم في اليوم والليلة عشر مرّات علىٰ أقل تقدير.

فإن سورة الحمد تعرّضت للشهادة الأولىٰ والشهادة الثانية والشهادة الثالثة،

---

(١) طه: ٧٩.

فقوله تعالىٰ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾(١) إشارة إلىٰ الشهادة الأولىٰ، وهي كلمة (لا إله إلّا الله)، وقوله تعالىٰ: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾(٢) إشارة إلىٰ أصل المعاد، الذي هو من أصول الدين، وقوله تعالىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٣) إشارة إلىٰ مقام التشريع والنبوّة؛ لأن العبادة لا تتحقّق إلّا بالسير علىٰ خطىٰ النبوّة والرسالة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾(٤)، إشارة إلىٰ مقام الإمامة في الأمة، فهناك مجموعة في الأمة الاسلامية ندعو الله عزّ وجلّ في اليوم والليلة أن يهدينا صراطهم المستقيم، المنزّه عن الغضب في العمل وعن الضلال في العلم، أي صراط المعصومين علماً وعملاً، وهؤلاء الهداة الهادون إلىٰ الصراط المستقيم وصفهم الله تعالىٰ بثلاثة نعوت:

الأول: أنهم منعم عليهم بنعمة خاصّة دون بقية الأمة وسائر البشر، نظير ما أنعم الله علىٰ النبيين.

الثاني: أنهم لا يغضب الله عليهم قطّ، وإلّا لما كانت لهم صلاحية الهداية لجميع الأمة.

الثالث: أنهم لا يضلّون قط، وإلّا لم يكونوا هداة هادين لكل الأمة.

ولم يحدّثنا القرآن عن ثلّة عن هذه الأمة قد خصصوا بنعمة وحظوة وحبوة

---

(١) الحمد: ٢ ـ ٣.

(٢) الحمد: ٤.

(٣) الحمد: ٥.

(٤) الحمد: ٦ ـ ٧.

إلهية خاصة دون بقية الأمة إلّا أهل البيت عليهم السلام كما في ولاية الفيء في قوله تعالىٰ: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾(١) وكما في ولاية الخمس في قوله تعالىٰ: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾(٢)، وكذا التطهير في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾(٣) والمودّة والولاية في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾(٤) وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾(٥) وعلم الكتاب في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾(٦) وغيرها من الآيات المخصصة لهم عليهم السلام بمقامات دون سائر الأمة إلىٰ يوم القيامة، فلا توجد مجموعة في الأمة الإسلامية معصومة عن الغضب والضلال سوىٰ أهل البيت عليهم السلام، الذين أنعم الله عزّ وجلّ عليهم بالطهارة من الرجس والغواية في العلم والعمل، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾(٧).

ويتحصّل من ذلك: أن سورة الحمد اشتملت علىٰ أصول الدين من التوحيد والمعاد والنبوّة والإمامة، وقارئ الحمد يطلب من الله تعالىٰ الهداية إلىٰ الصراط

---

(١) سورة الحشر ٥٩: ٧.
(٢) سورة الأنفال ٨: ٤١.
(٣) سورة الأحزاب ٣٣: ٣٣.
(٤) سورة الشورى ٤٢: ٢٣.
(٥) سورة المائدة ٥: ٥٥.
(٦) سورة الواقعة ٥٦: ٧٧-٧٩.
(٧) الأحزاب: ٣٣.

المستقيم وأن يجعل له هداة وأئمة يهتدي بهم، وهذا يعني أن ضمّ الشهادة الثالثة بالإمامة إلىٰ الشهادة الثانية بالرسالة والنبوّة للنبيّ الأكرم ﷺ يوجب الخروج عن الشرك وقبول الإيمان والعبادة.

ومن ذلك كلّه يتضح المراد من قول الإمام الباقر عليه السلام لسدير وهو مستقبل البيت: «**ياسدير إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثم يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا، وهو قول الله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾(١) ثم أومأ إلىٰ صدره إلىٰ ولايتنا**»(٢).

إذن تمام الحجّ وسائر العبادات بالهداية إلىٰ ولاية أهل البيت عليهم السلام والتوسّل والتوجّه بهم إلىٰ الله عزّ وجلّ.

٧ - الوفود على ولي الله من شرائط الحجّ:

قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾(٣).

فهذه الآية المباركة تنصّ علىٰ أن الله عزّ وجلّ جعل مكان البيت مبوّءاً وسكناً لإبراهيم عليه السلام، وأن إبراهيم عليه السلام هو المتكلّم الأوّل والناطق الرسمي عن الله تعالىٰ في الندبة إلىٰ الحجّ، فهو يأمر الناس بحجّ بيت الله الحرام كما نصّت علىٰ ذلك روايات الفريقين.

---

(١) طه: ٨٢.

(٢) أصول الكافي: ج ١ ص ٣٩٣.

(٣) الحج: ٢٦ ـ ٢٧.

ثم إن التعبير الآخر في الآية المباركة بعد الأذان في الناس بالحجّ ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ فالمجيء ليس إلىٰ البيت ولا إلىٰ الله عزّ وجلّ مباشرة، بل المجيء أوّلاً إلىٰ إبراهيم عليه السلام.

فالإتيان إلىٰ الحجّ تلبية وإجابة للنداء الإلهي إنما يتمّ بالوفادة علىٰ وليّ الله، ويكون الحجّ الذي هو القصد إلىٰ الله عزّ وجلّ بواسطة الإتيان إلىٰ إبراهيم عليه السلام، الذي هو وجيه عند الله تعالىٰ، يتوجّه إليه ويقصد لإقامة الصلاة والطواف وسائر مناسك الحجّ العبادية، فلابدّ من الوفود علىٰ إبراهيم عليه السلام ومحبّته وهويّ الأفئدة إليه.

وهذه الآية المباركة تتوافق في المضمون مع ما تقدّم من قوله تعالىٰ:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾(١)، فإبراهيم عليه السلام وذرّيته أسكنهم الله عزّ وجلّ البيت الحرام وبوّأهم فيه لإقامة الصلاة وتشييد الدين وتطهير البيت للطائفين والقائمين والرّكع السجود، والإيذان في الناس بالحجّ، ولكن لا قيمة للحجّ ولا مقبولية عند الله عزّ وجلّ إلّا بالمجيء إلىٰ إبراهيم عليه السلام وذريّته من ولد إسماعيل عليه السلام، وهويّ القلوب والأفئدة إليهم ومحبّتهم ومودّتهم وتولّيهم وإبراز الطاعة لهم وجعلهم واسطة في القصد إلىٰ الله تعالىٰ.

فتبوئ الله عزّ وجلّ لإبراهيم البيت، وإسكان إبراهيم ذريته فيه من أجل الوفود عليهم ومودّتهم، هو الذي جعل من البيت الحرام مكاناً ومقصداً لإقامة العبادة فيه، والأحجار بما هي أحجار لولا ذلك تكون وثناً يعبد من دون الله

(١) إبراهيم: ٣٧.

عزّ وجلّ، كما كان الحجّ في الجاهلية.

ولذا ورد أن من المستحبّات عند الدخول إلىٰ البيت الحرام إلقاء التحيّة والسلام علىٰ سيّد الأنبياء محمّد ﷺ ثم السلام علىٰ النبيّ إبراهيم عليه السلام(١).

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**فإذا انتهيت إلى باب المسجد فقم وقل: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، بسم الله وبالله ومن الله وما شاء الله، والسلام على أنبياء الله ورسله والسلام على رسول الله، والسلام على إبراهيم والحمد لله رب العالمين**»(٢).

فالمجيء إلىٰ النبيّ الأكرم ﷺ ثم إلىٰ إبراهيم عليه السلام مجيء وإتيان وقصد إلىٰ الله عزّ وجلّ، وكذا أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم الذريّة والأمة المسلمة الذين دعا إبراهيم والنبيّ الأكرم إلىٰ مودّتهم ومحبّتهم.

إذن الأنبياء والأوصياء هم أبواب الله التي يتّجه إلىٰ الله تعالىٰ بها، ولولا ذلك لا يكون الحجّ حجّاً إبراهيمياً بل حجّ الجاهلية.

٨ - الأنبياء مصدر البركة:

قال تعالىٰ حكاية عن قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا** ﴾(٣).

وهذا يعني أن عيسى عليه السلام جعله الله عزّ وجلّ مصدر البركة والتبرّك أين ما حلّ؛ ولذا كان ببركته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ بإذن الله تعالىٰ، فهو

---

(١) الوسيلة / ابن حمزة: ص١٧٢.

(٢) المقنع / الصدوق: ص٢٥٥.

(٣) مريم: ٣١.

وجيه وواسطة في قضاء الحوائج في كلّ مكان حلّ فيه، فما بالك بخاتم الأنبياء ﷺ وأهل بيته الأطهار ومن يصلّي عيسىٰ خلفه عند نزوله ويكون وزيراً له؟!

وكذا ورد في الآيات المباركة أن الماء مصدر البركة والخيرات كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾(١)، فإذا كان الله تعالىٰ ببركة الماء المنزل من السماء ينبت الجنان ويحيي الأرض بعد موتها، فكيف بك بأنبياء الله ورسله وخلفائه الأوصياء؟!

٩ - البقعة المباركة:

وهي الطائفة من الروايات التي تعرّضت لذكر البقعة المقدّسة والمباركة التي كلّم الله عزّ وجلّ فيها موسى ﷺ:

كقوله تعالىٰ: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾(٣). وكذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾(٤).

---

(١) ق: ٩.

(٢) طه: ٩ ـ ١٢.

(٣) النازعات: ١٥ ـ ١٦.

(٤) مريم: ٥١ ـ ٥٢.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ **فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾(١).

وقد أقسم الله عزّ وجلّ بهذه البقعة المباركة، لعظمتها بالإضافة إلىٰ بقع ثلاث أخرىٰ، وذلك في قوله تعالىٰ، ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ** ﴾(٢)، وهذا قسم من الله عزّ وجلّ ببلد التين وهو المدينة، وبلد الزيتون وهو بيت المقدس، وطور سينين الكوفة، والبلد الأمين وهو مكّة، كما ورد ذلك عن الإمام الكاظم عليه السلام، حيث قال: «**واختار من البلدان أربعة فقال عزّوجلّ: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾(٣) فالتين المدينة والزيتون بيت المقدس وطور سنين الكوفة وهذا البلد الأمين مكّة**»(٤).

هذا من طرقنا.

وكذلك من طرق السنّة، ولكن بتفسير التين بالبيت الحرام، وتفسير الطور بأنه الجبل الذي كلّم الله عزّ وجلّ فيه موسىٰ عليه السلام(٥)، ولا تنافي في ذلك إذ لعلّ ذلك هو الوادي المقدّس بين جبل طور والكوفة، كما ذكر ذلك بعض المفسّرين.

---

(١) القصص: ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) التين: ١ ـ ٣.

(٣) التين: ١ ـ ٣.

(٤) الخصال / الصدوق: ص٢٢٥، روضة الواعظين / النيسابوري: ص٤٠٥.

(٥) زاد المسير / ابن الجوزي: ج٨ ص٢٧٥.

وقد ورد في الحديث أن محلّ قبر أمير المؤمنين ﷺ أوّل طور سيناء، عن أبي جعفر الباقر ﷺ قال: «**كان في وصيّة أمير المؤمنين ﷺ: أن أخرجوني إلى الظهر [أي ظهر الكوفة] فإذا تصوّبتْ أقدامكم واستقبلتكم ريح فادفنوني، وهو أوّل طور سيناء، ففعلوا ذلك**»(١).

والحاصل: إن القرآن يؤكّد أن هناك بقعة مقدّسة مباركة، فيها هبطت الملائكة بالوحي على موسى ﷺ، ولابدّ أن تقدّس وتُعظّم ويُتقرّب فيها إلىٰ الله عزّ وجلّ ويكلّم الله تعالىٰ فيها الأنبياء.

قال القرطبي في تفسيره: (قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾(٢).

المقدّس: المطهّر، والقدس: الطهارة، والأرض المقدّسة أي المطهّرة إلىٰ أن قال: وقد جعل الله تعالىٰ لبعض الأماكن زيادة فضل علىٰ بعض، كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل علىٰ بعض)(٣).

وهذا يعني أن هناك أماكن مقدّسة فيها ينزل الوحي وتفتح أبواب السماء، وفيها يزداد الأجر ويقبل الدعاء ويتوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ.

١٠ - وجوب تعظيم الأنوار الإلهيّة:

خلقة الأنوار الخمسة لأصحاب الكساء في سورة النور

قال تعالىٰ: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا**

---

(١) تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣٤.

(٢) طه: ١٢.

(٣) تفسير القرطبي: ج ١١ ص ١٧٥.

شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاة وَإِيتَاءِ الزَّكَوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾(١).

إن هذه الآية المباركة تنصّ علىٰ وجود بيوت خاصّة أذن الله أن ترفع وتعظّم ويذكر فيها اسمه، وفي تلك البيوت يسبّح لله عزّ وجلّ وتقبل العبادة ويسمع الذكر، وتحت قبّتها يرفع الدعاء وتفتّح أبواب السماء وتحصل القربة إلىٰ الله تعالىٰ، فهي بيوت مباركة ومقدّسة جعلها الله تبارك وتعالىٰ وسيلة وواسطة ومحلاً لقبول العبادة والذكر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار.

ومن الجدير بالذكر أن تلك البيوت بيوتاً خاصّة وهي مهبط الوحي والقداسة والطهارة.

والشاهد علىٰ ذلك أن الجار والمجرور في قوله تعالىٰ: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلّق بذلك النور الذي ضربه الله عزّ وجلّ مثلاً للناس، فالنور في بيوت أذن الله أن ترفع، وقد ذكرت الآية المباركة أن هذا النور نور السماوات والأرض، أي محيط بهما ومهيمن عليهما وأشرف منهما في الخلقة والرتبة الوجودية.

ثمّ إن ذلك النور مخلوق من مخلوقات الله تعالىٰ، أُضيف إليه عزّ وجلّ في الآية إضافة الفعل إلىٰ فاعله، وهو عبارة عن أنوار خمسة شامخة، ضرب الله تعالىٰ لكلّ واحد منها مثلاً حسّياً لتقريب الفكرة وتنزيل الحقيقة إلىٰ رقيقة

---

(١) النور: ٣٥ ـ ٣٧.

يفهمها البشر، وليس هذا النور عين الذات الإلهية، لأنها أحدية المعنىٰ لا تعدّد ولا تكثّر فيها، والنور المذكور في الآية المباركة متعدّد منشعب إلىٰ خمسة أنوار، مستقل بعضها عن البعض الآخر.

والأنوار الخمسة التي ضُربت مثلاً هي:

أولاً: المشكاة.

ثانياً: المصباح.

ثالثاً: الزجاجة.

رابعاً: الكوكب الدريّ.

خامساً: الشجرة المباركة.

ثم تقول الآية الكريمة بعد ذلك: ﴿ **نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾.

وفي اللغة العربية يقول علماء البلاغة كل تشبيه جملة مستقلة برأسها، وتفيد معنىً ومغزىً مستقلاً، فالآية بصدد التعرض إلىٰ خلقة النور، وأن أحد مراحل الخلقة الإلهية هي المخلوقات النورية، وهي أنوار خمسة، تعظم في الخلقة الملائكة والروح والجنّ والإنس ومطلق الموجودات الأخرىٰ، وهي أنوار **مشتقّ بعضها من بعض، ومرتبط بعضها بالبعض الآخر كما هو ظاهر الآية المباركة.**

وهذه الأنوار المباركة المحيطة بالسماوات والأرض، هي الأسماء والكلمات التي لم تعلم بها الملائكة، مع أن الملائكة ملأت أركان السماوات والأرض؛ لأنها هي التي تدبّرها وتدير شؤونها، وهو المشار إليه في تعليم آدم الأسماء وعرض الله تعالىٰ لها علىٰ الملائكة، فلم يعلموا بها، فأنبأهم آدم بها،

ووصفها الله بأنها غيب السماوات والأرض[1]، وكما ورد هذا المعنىٰ في روايات الفريقين[2].

ولو كانت تلك الأسماء من عالم السماء والأرض لعلمت بها الملائكة، ومن ذلك يعلم أن الأسماء التي علّمها الله عزّ وجلّ آدم وجهلتها الملائكة، كانت مخلوقات محيطة بعالم السماوات والأرض.

وهذا نوع من أنواع التشاهد بين الآيات القرآنية، فالأنوار الخمسة المذكورة في سورة النور هي الأسماء التي خفيت عن الملائكة وعلّمها الله تعالىٰ آدم، وهي كما سيأتي موجودات حيّة عاقلة شاعرة من عالم النور، كما عبّر عنها في سورة البقرة بضمير (هم) واسم الاشارة (هؤلاء) وهما لفظتان لا تستعملان في الذوات الجامدة، بل في الذوات الحيّة الشاعرة العاقلة.

ويتحصّل من ذلك وجود مخلوقات خمسة نورية محيطة بالسماوات والأرض، أفضل من الملائكة ولا تحيط الملائكة بها علماً، بل إن الله تعالىٰ شرّف آدم علىٰ جميع مخلوقاته، بما فيهم المقرّبين من كبار الملائكة، كجبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل بفضل تلك الأنوار، وبفضلها أيضاً استحقّ مقام الخلافة الإلهية، وسجد له الملائكة كلّهم أجمعون.

ومن ذلك يتضح أن هذه الأنوار الخمسة هي باطن (غيب) وملكوت السماوات والأرض؛ لأن نور كلّ شيء بمنزلة الروح له، ومن دونه يكون ظلمانياً، والنور في المقام ليس هو النور الحسّي الذي يظهر الصفات العارضة

---

(١) سورة البقرة من الآية ٣٣-٣١.

(٢) بصائر الدرجات: ص٨٩، المعجم الأوسط / الطبراني: ج ٤ ص ٤٤.

علىٰ الشيء، بل هو نور الخلقة الذي يوجد الشيء ويكوّنه ويظهره من كتم العدم إلىٰ الوجود، فنور السماوات والأرض أي ملكوتهما وباطنهما ومظهرهما من ظلمة العدم إلىٰ نور الوجود، وهو اسم الله الأعظم الذي هو غير المسمّىٰ، يفوق في القدرة والعظمة كافّة المخلوقات في السماوات والأرض.

وسيأتي أن تلك الأنوار الخمسة المباركة - وهي الأسماء التي علّمها الله تعالىٰ آدم وتاب بفضلها عليه من خطيئته، وابتلىٰ بها إبراهيم لنيل مقام الإمامة - هم خمسة أصحاب الكساء وأهل آية المباهلة، محمّد ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فهم أهل البيت، وهم النور الإلهي الذي حلّ في بيوت أذن الله أن ترفع، لتكون محلاً للذكر والتسبيح والعبادة والتوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ وتشييد معالم الدين.

ولذا أخرج السيوطي في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن أنس ابن مالك وبريدة، قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ** ﴾ فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يارسول الله؟ قال: **بيوت الأنبياء**، فقام إليه أبو بكر، فقال: يارسول الله هذا البيت منها؟ وأشار إلىٰ بيت عليّ وفاطمة عليهما السلام، قال: **نعم من أفاضلها**»(١).

وعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ** ﴾ قال: «**هي بيوت النبيّ ﷺ**»(٢).

كذلك عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، في قوله: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ**

---

(١) الدرّ المنثور: ج ٥ ص ٥٠.

(٢) الكافي: ج٨ ص ٣٣١ ح ٥١٠.

تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قال: **«هي بيوت الأنبياء، وبيت علي منها»**(١).

وقد تقدّم رواية الحاكم في المستدرك أن من الكلمات التي تاب الله بها علىٰ آدم، وهي الأسماء التي شُرّف آدم بها على الملائكة كخليفة، لأن الكلمات أعظم مقاماً من آدم؛ إذ بها تاب الله عليه، أن من أعظم تلك الكلمات والأسماء هو خاتم النبيين ﷺ، وقد ورد في المستدرك أنه لولاه لما خلق آدم ولا الجنة ولا النار(٢) ويتشاهد هذان الحديثان النبويان علىٰ أن أوّل الأنوار الخمسة والأسماء التي تعلّمها آدم وتوسّل بها هو خاتم النبيين ﷺ.

هذا بالنسبة إلىٰ الأنوار الخمسة المباركة.

الأئمة التسعة من ولد الحسين عليه السلام في آية النور:

وأما قوله تعالىٰ: **﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾** فهو إشارة إلىٰ استمرار وديمومة قانون الإمامة والخلافة الإلهية بعد تلك الأنوار الخمسة إلىٰ يوم القيامة، نور علىٰ نور يهدي الله لنوره من يشاء و(علىٰ) أي علىٰ إثر وعقب لغة في أحد المعاني المستعملة في لفظ (علىٰ) بالتضمين لمعنىٰ الإثر.

والشاهد علىٰ ذلك ما تقدّم من أن الهداية هي الإيصال إلىٰ المطلوب، وقد جاء ذكر الهداية تفسيراً وبياناً لمقام الإمامة والولاية، كما في قوله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾**، فالتعبير بالهداية في الآية المباركة يراد منه الإمامة وهو مقتضىٰ معنىٰ النور أيضاً؛ إذ هو الهادي إلىٰ صراط الله تعالىٰ.

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٧٩.

(٢) المستدرك: ج٢ ص ٦٧١ و ٦٧٢.

ولذا ورد عن الإمام محمّد بن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ **نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ** ﴾ قال: «**يعني إماماً مؤيّداً بنور العلم والحكمة في إثر إمام من آل محمّد صلى الله عليه وآله، وذلك من لدن آدم إلى يوم القيامة**»[1].

وعن الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: (قلت: ﴿ **نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ** ﴾؟ قال: «**الإمام في أثر الإمام**»[2].

وورد أيضاً عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ قال: «**يهدي لولايتنا من أحبّ**»[3].

بيان آخر للآية المباركة

هناك بيان آخر للآية الكريمة التي نحن بصدد الاستدلال بها، أدقّ وأعمق وأدلّ علىٰ المطلوب من البيان الأول، وهو:

بعد أن تبيّن أن قوله تعالىٰ: ﴿ **فِي بُيُوتٍ** ﴾ متعلّق بالنور، وأن النور في بيوت أذن الله أن ترفع، نقول:

إن الآية الثالثة التي ذكرناها في المقام، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاة وَإِيتَاءِ الزَّكَوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾ هذه الجملة من المبتدأ والخبر كلّها بدل من قوله تعالىٰ ذكره ﴿ **فِي بُيُوتٍ** ﴾، أي أنها في محلّ جرّ بدل من البيوت.

ويكون المعنىٰ على ذلك! أن البيوت رجال لا تلهيهم تجارة، وليست هي

---

(١) توحيد الصدوق: ص١٥٨ ح٤.

(٢) نفس المصدر: ص١٥٧ ح٣.

(٣) مناقب ابن المغازلي: ص٢٦٣ ح٣٦١.

بيوت حجارة ولا طين.

والشواهد علىٰ ذلك من نفس الآيات المباركة كثيرة نشير إلىٰ بعضها:

أ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ** ﴾ ليس فاعلاً لقوله عزّ وجلّ ﴿ **يُسَبِّحُ** ﴾ وذلك طبقاً لقراءة أهل البيت عليهم السلام، حيث أن قراءتهم لكلمة (يسبَّح) بفتح الباء مبني للمجهول، وبناءً على هذا لا تكون كلمة ﴿ **رِجَالٌ** ﴾ فاعلاً لـ(يسبَّح) وإنما تكون مبتدءاً والجملة التي بعدها خبر، والجملة بتمامها عطف بدل علىٰ بيوت، فالبيوت هي رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع، وإلىٰ ذلك يشير قول الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام إلىٰ قتادة البصري فقيه أهل البصرة عندما سأله قائلاً:

(أصلحك الله، والله لقد جلست بين يدي الفقهاء، وقدّام ابن عباس، فما اضطرب قلبي قدّام واحدٍ منهم ما اضطرب قدّامك؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «**ويحك أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿ بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاة وَإِيتَاءِ الزَّكَوةِ ﴾ فانت ثَمَّ، ونحن أولئك**»، فقال له قتادة: صدقت والله جعلني الله فداك، والله ما هي بيوت حجارة ولا طين»(١).

وكذلك ما ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، حيث قال: «**إنّه من أتى البيوت من أبوابها اهتدى ومن أخذ في غيرها سلك طريق الردى، وصل الله طاعة وليّ أمره بطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وطاعة رسوله بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله، وهو الإقرار بما نزل من عند الله ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ والتمسوا البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فإنه**

(١) الكافي: ج٦ ص٢٥٦ ح١.

أخبركم أنهم ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاة وَإِيتَاءِ الزَّكَوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾»(١).

ثم إن تلك القراءة بفتح الباء في (يسبَّح) قرأ بها أيضاً ابن عامر وأبو بكر وابن شاهي عن حفص(٢).

إذن يتحصّل أن النور في بيوت هي رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع.

اهل البيت عليهم السلام معصومون بأعالي درجات العصمة:

ب ـ قوله عزّ وجلّ: **﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاة وَإِيتَاءِ الزَّكَوةِ ﴾** فإن هذا المقطع من الآية المباركة يشير إلىٰ أن هؤلاء الرجال معصومون بأعلىٰ درجات العصمة، وهي عصمة السرّ التي هي فوق عصمة الجوارح، إذ لا يلهون برهة من حياتهم عن ذكر الله، فهم في ذكر دائم، وهذا يعني أن أولئك الرجال ثلّة خاصة في الأمة الإسلامية يتميّزون عن بقيّة المسلمين وأصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله، الذين انفضّ أكثرهم من حوله وتركوه قائماً عندما سمعوا بالتجارة، كما نصّت علىٰ هذه الحادثة سورة الجمعة، وذلك في قوله تعالىٰ: **﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾**(٣).

ففي الروايات لم يبقَ مع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله إلّا إثني عشر أو ثمانية رجال،

---

(١) نفس المصدر: ج ١ ص ١٨٢ ح ٦.

(٢) لاحظ التبيان / الطوسي: ج ٧ ص ٤٣٩ وزاد المسير / ابن الجوزي: ج ٥ ص ٣٦٤.

(٣) الجمعة: ١١.

وانفضّ الباقون إلىٰ اللّهو والتجارة(١).

وفي بعض الروايات لم يبقَ إلّا علي عليه السلام(٢).

ولا شك أنه لا يوجد ثلّة معصومة في هذه الأمة غير أهل آية التطهير، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فنالوا بذلك أعلىٰ درجات العصمة والطهارة.

وهذا يعني أن تلك الأنوار الخمسة المباركة في بيوت وأبدان طاهرة، وهم رجال معصومون من الغفلة عن ذكر الله عزّ وجلّ، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.

وتلك البيوت والرجال أذن الله أن يرفع ذكرهم، كما قال الله تعالىٰ لنبيّه: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾، ولا شك أن معنىٰ ذلك هو وجوب التعظيم والطاعة لهم والإنقياد لولايتهم والتوجّه بهم إلىٰ الله تعالىٰ في العبادة، كما أمر الله عزّ وجلّ الملائكة بالخضوع والسجود لآدم، وجعل الخضوع واسطة للإنقياد إلىٰ الأوامر الإلهية.

إذن لا يقبل الله عزّ وجلّ من العباد الطاعة، إلّا برفع تلك البيوت وتعظيم أولئك الرجال، والإتيان بالطاعات امتثالاً لأمر الله وأمر رسوله وأمر أُولي الأمر من هذه الأمة.

قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ

(١) لاحظ جامع البيان / الطبري: ج٢٨ ص١٣٢.

(٢) تأويل الآيات / شرف الدين: ج٢ ص٦٩٣.

عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وعن الأصبغ بن نباتة، قال: كنت جالساً عند أمير المؤمنين عليه السلام فجاء ابن الكوّا، فقال: ياأمير المؤمنين مَنْ البيوت في قول الله عزّ وجلّ: **﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾**(٢)؟

قال عليّ عليه السلام: «**نحن البيوت التي أمر الله بها أن تؤتى من أبوابها، نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منه، فمن تابعنا وأقرّ بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها ومن خالفنا وفضّل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها**»(٣).

ج ـ قوله تعالىٰ: **﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾**.

وقد بيّن القرآن الكريم في آيات أخرىٰ الذين يخافون من ربّهم، كما في سورة الدهر، قال تعالىٰ: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾**(٤).

فقد روىٰ الفريقان أن هذه الآيات نزلت في أهل البيت عليهم السلام، وقصة هذه الآيات المباركة مفصّلة تعرّضت لها كتب التفاسير (٥).

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) تفسير فرات الكوفي: ص١٤٢.

(٤) الانسان: ٧ ـ ١١.

(٥) لاحظ تفسير القمي: ج٢ ص٣٩٨، تفسير القرطبي: ج١٩ ص١٣٤.

وهذا يكشف عن حقيقة أولئك الرجال الذين اختصّهم الله عزّ وجلّ بنوره، وهم أهل بيت العصمة والطهارة، والبيوت التي أذن الله أن ترفع وتعظّم ويتوسل بها إلىٰ الله عزّ وجلّ، ويذكر في حضرتها اسمه، ويسبّح له بالغدو والآصال.

لا يتبادر إلىٰ الذهن أن من أهل البيت فاطمة عليها السلام، فكيف تكون من الرجال المقصودين في الآية المباركة؟

فإن الجواب عن ذلك واضح؛ لأن كلمة الرجل والرجال في الآية المباركة بمعونة القرائن والشواهد التي احتفّت بها يراد منها الشخصية العظيمة، الثابتة الأقدام في المقامات الشامخة، فيراد من الرجال في الآية المباركة تلك الشخصيات التي تسنّمت بأرجل القدرة المقامات العالية والدرجات الرفيعة في مجال العصمة والتقوىٰ، وقد جاء التعبير القرآني بالرجل عن الأعم من الذكر في آيات عديدة، كقوله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام: **﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾**(١)، فالمراد في هذه الآية الكريمة الإقدام بأرجل الإيمان إلىٰ دعوة إبراهيم عليه السلام للحجّ أعم من كون القادم ذكراً أو أنثىٰ، ونظير ذلك أيضاً قوله تعالىٰ: **﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾**(٢) فوصفهم بالرجولية هنا للثبات والاستقامة والصدق.

ولا شك أن هذا كلّه مع القرينة لا مطلقاً، والقرائن الدالّة علىٰ إرادة الأعمّ من الذكر والأنثىٰ في الآية التي هي محلّ بحثنا كثيرة جداً، منها ما ذكرناه سابقاً من

---

(١) الحج: ٢٧.

(٢) سورة الأحزاب ٣٣: ٢٣.

القرائن الدالّة علىٰ أن المقصود بالرجال في الآية هم أهل البيت عليهم السلام ومنهم فاطمة الزهراء عليها السلام.

خلقة أهل البيت عليهم السلام النورية:

ونختم الحديث في هذه النقطة بذكر بعض الشواهد الدالّة على أن الله تعالىٰ خلق أهل البيت أنواراً مضافاً إلىٰ ما تقدّم في آية النور:

الأول: قوله تعالىٰ لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾[1]، فهذه الآية المباركة صريحة في أن الله عزّ وجلّ أوحى إلىٰ نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله نوراً وهو الروح من أمره، ولا شك أن الإيحاء الخفيّ إنما هو إلىٰ ذات وحقيقة النبيّ الأكرم المباركة، فيتّحد ذلك النور بشخص النبيّ صلى الله عليه وآله؛ ولذا قالت الآية المباركة أن من آثار ذلك النور ﴿ **نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ ثم جعلت ذلك الأثر بعينه لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، حيث قالت: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ وهذا صريح في اتحاد الذات النبويّة الطاهرة مع ذلك النور في الحقيقة والأثر.

وإذا كانت ذات النبيّ الأكرم نوراً يهدي إلىٰ صراط مستقيم، فكذلك أهل بيته عليهم السلام الذين هم نفس النبيّ صلى الله عليه وآله بنصّ آية المباهلة وآية التطهير، بل وبنص نفس هذه الآية المباركة في المقام، حيث ذكر فيها أن هذا الروح الأمري الذي أوحي إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله يهدي به الله ويوحيه إلىٰ من يشاء ويجتبيه من عباده، فلم

(١) الشورىٰ: ٥٢.

يخصص ذلك بالأنبياء أو بكونهم أنبياء أو رسل، ونظير ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ **يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾(١) فذكر لفظ العباد ولم يخصص بلفظ الأنبياء أو الرسل ويدلّ علىٰ أن الذين يشائُهم الله وتتعلّق مشيئته بهم ويجتبيهم لذلك غير منحصر بالأنبياء والرسل، بل يعم من يصطفيهم للعصمة والطهارة والوصاية، وهكذا الأحاديث المتواترة في كون فاطمة عليها السلام بضعة منه صلى الله عليه وآله(٢)، وكون الحسن والحسين عليهما السلام من النبيّ صلى الله عليه وآله وهو منهم(٣)، وكذا قوله صلى الله عليه وآله: «**عليّ مني وأنا منه**»(٤).

الثاني: قول النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «**كنت أنا وعلي بن أبي طالب نوراً بين يدي الله قبل أن يخلق آدم بأربعة آلاف عام، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزئين، فجزء أنا وجزء عليّ بن أبي طالب**»(٥).

الثالث: الروايات المتضافرة التي دلّت على أن النبيّ صلى الله عليه وآله كان نوراً يتنقل من الأصلاب الشامخة إلىٰ الأرحام المطهّرة، وقد أضاء منه صلى الله عليه وآله نوراً عند ولادته ملء الخافقين، كما نقلت ذلك آمنة بنت وهب (سلام الله عليها) أم النبيّ صلى الله عليه وآله حين ولادته، قالت: (إنّي رأيت حين ولدته أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور بصرىٰ من أرض الشام)(٦).

---

(١) سورة النحل ١٦: ٢.

(٢) لاحظ فضائل الصحابة / لابن حنبل: ص ٧٨.

(٣) مسند أحمد: ج ٤ ص ٢٧٢.

(٤) فضائل الصحابة: ص١٥.

(٥) الخصال / الصدوق: ص ٦٤، نظم درر السمطين / الزرندي الحنفي: ص ٧٩، تاريخ مدينة دمشق / ابن عساكر: ج٤٢ ص٦٧، ميزان الاعتدال / الذهبي: ج ١ ص ٥٠٧.

(٦) المعجم الكبير / الطبراني: ج ٢٤ ص ٢١٥، تفسير ابن كثير: ج ٤ ص ٣٨٤.

إلىٰ غير ذلك من الشواهد الدالّة علىٰ الخلقة النورية للنبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

١١ - بناء المساجد على قبور الأولياء معالم الدين:

كما في قوله تعالىٰ في قصّة أصحاب الكهف: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا** ﴾(١).

ذكر المفسرون: أن أصحاب الكهف لما بعثوا بأحدهم إلىٰ المدينة بورقهم لجلب الطعام عثر عليهم أهل المدينة وعلموا بأمرهم جاءوا إلىٰ الكهف، فلما دخل الذي هو من أصحاب الكهف دعا الله تعالىٰ مع أصحابه أن يميتهم لئلا يكونوا فتنة للناس، فأماتهم الله تعالىٰ، وخفي على أهل المدينة مدخل الكهف، فلم يهتدوا إليه، فقال المشركون: نبني عليهم بنياناً ونحوطهم بجدار نجعلهم وراءه، وقال المسلمون: بل نحن أحقّ بهم، هم منّا، نبني عليهم مسجداً نصلّي فيه ونعبد الله فيه(٢).

وقال المفسّرون أيضاً: إن قوله تعالىٰ: ﴿ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا** ﴾ دلّ علىٰ أن الغلبة كانت للمؤمنين بقرينة ذكر اتخاذ المسجد(٣).

ثم إن القرآن الكريم في استعراضه لهذه الواقعة أقرّ المؤمنين علىٰ رأيهم، ولم يفنّد اتخاذهم المسجد علىٰ قبور أصحاب الكهف من أجل التبرّك والعبادة،

---

(١) الكهف: ٢١.

(٢) لاحظ التبيان / الشيخ الطوسي: ج ٧ ص ٢٥، جامع البيان / الطبري: ج ١٥ ص ٢٨٢.

(٣) مجمع البيان / الطبرسي: ج ٦ ص ٣٢٨، فتح القدير / الشوكاني: ج ٣ ص ٢٧٧.

خصوصاً وأن القرآن الكريم إنما عرض لنا قصّة أصحاب الكهف، لأجل تعميق مبدأ الإيمان والتوحيد، والقرآن يذكر القصّة في ضمن بيان مآثر ومعالم أهل الكهف المشيدة والخالدة، وأنهم بُني على قبورهم مسجداً لإظهار معجزتهم، وليبقىٰ ذكرهم خالداً في أذهان البشر ويكون ذلك موعظة للمؤمنين، فلو كان بناء المسجد علىٰ قبورهم والتبرّك بهم والتعبّد عندهم شركاً ووثناً من الأوثان، لكان ذلك علىٰ خلاف المطلوب، ومنافياً للحكمة التي أرادها الله عزّ وجلّ من سرد القصّة.

إذن قبور الأولياء وبناء المساجد عليها والتبرّك بها وجعلها واسطة في التوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ في العبادة من المبادئ القرآنية الصريحة والشعائر الإلهية، التي يوجب تخليد ذكرها تخليد الدين ومعالم التوحيد، التي شيّدوها بسيرتهم المباركة ونهجهم التوحيدي، وهذا عين الأمر الإلهي باتخاذ مقام إبراهيم مصلّى، فإن تشعير مقام إبراهيم وتخليد ذكره بذلك، يكون سبباً لخلود التوحيد وباعثاً للناس علىٰ التمسّك بهديه.

ومن ذلك أيضاً قول النبيّ ﷺ: «**ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنّة**»(١) فإن ذلك تشعيراً لقبره ﷺ وجعله محلاً للعبادة ونيل القربان والمقامات عند الله تعالىٰ.

وذلك كلّه يعني أن مقامات الأنبياء والأولياء والحجج من الحريّ بها أن تعمّر وتشعّر محلاً للعبادة والتقرّب إلىٰ الله تعالىٰ.

(١) قرب الاسناد / الحميري: ص ١٣، من لا يحضره الفقيه / الصدوق: ج ٢ ص ٥٦٨، مسند أحمد: ج ٣ ص ٦٤، صحيح البخاري: ج ٢ ص ٥٧.

ولا شك أن الآيات والوسائط علامات علىٰ عظمة الصفات الإلهية، ففعل الذات العظيمة عظيم أيضاً، فلابدّ أن يعظّم، وتعظيمه تعظيماً لله عزّ وجلّ، والذي يحقّر آيات الله ويهينها بكلّ نوع من أنواع الإهانات يكون قد هتك الحرمة والحريم الإلهي، ولذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾(١).

والحاصل: أن ترك تعظيم وليّ الله والإعراض عن التوسّل والتوجّه به إلىٰ الله تعالىٰ إخفاق في عقيدة التوحيد.

١٢ - حبط الأعمال وقبولها:

قال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾(٢).

هذه الآية المباركة صريحة أيضاً في أن الخضوع للنبيّ الأكرم والإقبال عليه والتوجّه إليه وتوقيره وتعظيمه وحفظ الأدب في حضرته سبب وواسطة في قبول الأعمال، وموجب لتحقّق التقوىٰ والمغفرة والقرب من الله تعالىٰ ونيل الأجر العظيم؛ وذلك لأن الخضوع للنبيّ ﷺ تعظيم له بما هو آية كبرىٰ من آيات الله عزّ وجلّ وشعيرة من شعائره ومعلماً من أعلام دينه، وقد سبق قوله تعالىٰ:

---

(١) الحج: ٣٢.

(٢) الحجرات: ٢ ـ ٣.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾.

وأما الذين لا يخضعون للنبيّ الأكرم ﷺ ولا يحافظون على التزام الآداب في ساحة الحضرة النبويّة، برفعهم الأصوات فوق صوته، والتعامل معه كأحدهم، فقد توعّدهم الله تعالىٰ بحبط أعمالهم؛ لأن ذلك يوجب الإعراض عن الآيات الإلهية والوسائط الربانية التي نصبها لعباده والاستكبار عنها، فلا يكون لأعمالهم حينئذٍ وزن عند الله تعالىٰ، بما في ذلك العقيدة، التي هي عمل من الأعمال الجوانحية.

١٣ - آيات القسم الإلهي بشخص النبيّ الأكرم ﷺ:

لقد وردت آيات عديدة يُقسم فيها الله تعالىٰ بالنبيّ ﷺ نذكر بعضاً منها:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(١)، **والقسم بعمر النبيّ الأكرم ﷺ من قبل الله تعالى يدلّل على تعظيمه وتشريفه، خصوصاً وأن المفسّرين ذكروا أن الباري تعالىٰ لم يقسم بعمر أحد في القرآن الكريم، سوىٰ القسم بعمر خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين ﷺ.**

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾(٢)، قال بعض المفسّرين أن (لا) في قوله تعالىٰ: ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ أصلية نافية، والمعنىٰ هو أن الله تعالىٰ لا يقسم بمكّة والنبيّ حلّ وحالّ فيها وذلك تعظيماً له ﷺ، وأنه مع وجوده في مكّة هو الأحرىٰ أن يقسم به دون غيره، ذكر

---

(١) الحجر: ٢٢.

(٢) البلد: ١ ـ ٣.

ذلك أبو البقاء العكبري في إملائه، حيث قال:

(وقيل: لا أقسم به وأنت حلّ فيه، بل أقسم بك)[١].

وفي فتح القدير للشوكاني قال: (وقيل: المعنىٰ لا أقسم بهذا البلد وأنت حالّ به ومقيم فيه وهو محلّك، فعلىٰ القول بأن «لا» نافية غير زائدة يكون المعنىٰ لا أقسم به وأنت حالّ به، فأنت أحقّ بالإقسام بك)[٢].

والبعض الآخر من المفسّرين قال إن (لا) أصلية أيضاً، ولكن المعنىٰ هو: لا أقسم بهذا البلد وأنت لا حرمة لك في هذا البلد، يستحلّون دمك وقتالك، وفي ذلك دلالة واضحة على عظمة الرسول الأكرم ﷺ؛ وذلك لأن القسم لأجل عظمة المقسوم به والنبيّ ﷺ له عظمة فوق ذلك، فهو ﷺ موضع قسم أيضاً؛ إذ لو كان ما هو دونه من موارد القسم ولا يقسم به لعظمة النبيّ ﷺ، فكيف بك بذات النبيّ الأكرم ﷺ، الذي هو أعظم من الكعبة؟ وعلىٰ هذا يكون في هذه الآية مديح له ﷺ بأنه أكرم الخلق علىٰ الله تعالىٰ.

ذكر هذا المعنىٰ عدد وافر من المفسّرين:

منهم: علي بن إبراهيم القمّي، حيث قال في تفسيره: (﴿ **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ كانت قريش لا يستحلّون أن يظلموا أحداً في هذا البلد، ويستحلّون ظلمك فيه)[٣].

ومنهم: الطبرسي في مجمع البيان، قال: (وقيل: معناه لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ فيه، منتهك الحرمة، مستباح العرض، لا تحترم، فلم يبن للبلد حرمة،

---

(١) إملاء ما منّ به الرحمن / أبو البقاء العكبري: ج ٢ ص ٢٨٧.

(٢) فتح القدير / الشوكاني: ج ٥ ص ٤٤٣.

(٣) تفسير القمي: ج ٢ ص ٤٢٢.

حيث هتكت حرمتك، عن أبي مسلم، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كانت قريش تعظّم البلد، وتستحلّ محمّداً صلى الله عليه وآله فيه، فقال: لا أقسم بهذا البلد، وأنت حلّ بهذا البلد، يريد أنهم استحلّوك فيه، فكذّبوك وشتموك... فاستحلّوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يستحلّوه من غيره، فعاب الله ذلك عليهم)(١).

ومنهم: ابن الجوزي في زاد المسير، حيث ذكر لقوله تعالىٰ: ﴿ **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ ثلاث معانٍ، قال: (والثالث: أنت حلّ عند المشركين بهذا البلد يستحلّون إخراجك وقتلك ويحرّمون قتل الصيد، حكاه الثعلبي)(٢).

وبعض ثالث قال إن (لا) زائدة، ولكن مع ذلك هي دالّة على أفضلية النبيّ صلى الله عليه وآله على الكعبة، وأن شرفها لحلول النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فيها، والقسم بها لأجل ذلك، فإذا كان القسم بها لأجل حلول النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فيها يكون القسم بذات النبيّ صلى الله عليه وآله أولى وأدلّ.

وقد ذكر هذا المعنىٰ أيضاً كثير من المفسّرين:

منهم: الشيخ الطوسي، حيث قال بعد تصريحه بأن (لا) زائدة: (وقيل: معناه أنت حلّ بهذا البلد أي أنت فيه مقيم وهو محلّل، والمعنىٰ بذلك التنبيه علىٰ شرف البلد بشرف من حلّ فيه من الرسول الداعي إلىٰ تعظيم الله وإخلاص عبادته المبشِّر بالثواب والمنذر بالعقاب)(٣).

ومنهم: الشوكاني في فتح القدير، قال: (وعلى القول بأنها زائدة، يكون المعنىٰ: أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً وتعظيماً لقدرك؛ لأنه قد صار

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٦١.

(٢) زاد المسير: ج ٨ ص ٢٥١.

(٣) التبيان: ج ١٠ ص ٣٥٠.

بإقامتك فيه عظيماً شريفاً وزاد على ما كان فيه من الشرف والعظم)(١).

كذلك ذكر بعض المفسّرين أن قوله تعالىٰ: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ المقصود منه إبراهيم والولد هو النبيّ الأكرم ﷺ، قال ابن الجوزي: (والثاني: أن الوالد إبراهيم وما ولد محمّد، قاله الحسن أبو عمران الجوني)(٢).

وهذا قسم آخر بالنبيّ ﷺ، كما نصّ على ذلك القاضي عياض(٣).

ثمّ إن هذه الآية المباركة دالّة على أن إنكار ولاية الرسول الأكرم ﷺ وكونه واسطة ووسيلة بينهم وبين الله تعالىٰ مع تعظيم الكعبة من عمل المشركين، وأن تعظيم البيت الحرام بضمّ تعظيم النبيّ الأكرم وببركة وجوده فيه.

٣ـ قوله تعالىٰ: ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾(٤).

٤ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾(٥).

٥ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾(٦).

٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ الرٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾(٧).

٧ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾(٨).

وقد ورد عن الإمام السجّاد عليه السلام في الصحيفة السجّادية بأن كلّ قسم في

---

(١) فتح القدير: ج ٥ ص ٤٤٣.

(٢) زاد المسير / ابن الجوزي: ج٨ ص ٢٥١.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ: ج ١ ص ٣٤.

(٤) ص: ١.

(٥) ق: ١.

(٦) يس: ١ و٢.

(٧) الحجر: ١.

(٨) النمل: ١.

القرآن الكريم بالقرآن والكتاب يسبقه اسم فهو من أسماء النبيّ ﷺ، قال عليه السلام في دعائه: «**وقلت جلّ قولك له حين اختصصته بما سمّيته من الأسماء ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ وقلت عزّ قولك: ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ وقلت تقدّست أسماؤك: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ وقلت عظمت آلاؤك: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ فخصصته أن جعلته قسمك حين أسميته وقرنت القرآن به، فما في كتابك من شاهد قسم والقرآن مردف به إلّا وهو اسمه، وذلك شرف شرّفته به، وفضل بعثته إليه، تعجز الألسن والأفهام عن وصف مرادك به**»(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**يس اسم رسول الله ﷺ**»(٢).

ذكر بعض المفسّرين أن صاد وقاف وغيرهما من أسماء النبيّ ﷺ.

وقال ابن الجوزي: (والثالث: أن معناها **جيّسج** يامحمّد، قاله ابن الحنفيّة والضحّاك)(٣).

كانت هذه هي بعض الموارد التي أقسم الله عزّ وجلّ بنبيّه الأكرم ﷺ تعظيماً له، وتبياناً لعلوّ مقامه ومكانته عند الله عزّ وجلّ، وأنه أكرم مخلوقاته.

والقسم بالشيء نحو توسيط له؛ وذلك لأن القسم نوع من الذمّة والتوثيق، وهو نحو من أنحاء الشفاعة، لأن أحد أشكال القسم هو قسم المناشدة كما في المقام، وفي المناشدة يُذكر القسم لأجل التشفّع وجعل الشفيع والوسيط، فإذا صحّ القسم بذات النبيّ الأكرم ﷺ، فيقسم على الله تعالى به في قضاء الحوائج في الدنيا والآخرة، إذاً القسم كما يستخدم للاستيثاق من الخبر، يستخدم أيضاً

---

(١) الصحيفة السجادية: ص ٣١٠ـ٣١١.

(٢) تفسير القمي: ج ٢ ص ٢١١.

(٣) زاد المسير: ج ٦ ص ٢٦١.

في الاستيثاق من التشفّع والتوسّل كما لو كان القسم على إنشاء، كقولك: (والله لتفعلنّ كذا)، وإذا صحّ التشفّع به ﷺ بالقسم صحّ التوسّل به والتشفّع مطلقاً، وهذا نوع من الاستدلال بالدلالة الالتزامية البيّنة.

١٤ - الآيات الآمرة بالتوسل بالنبيّ الأكرم ﷺ وسائر الأنبياء والأوصياء:

الآيات القرآنية الواردة في هذا المجال عديدة نشير إلىٰ بعضها:

١ ـ قوله تعالىٰ ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** ﴾(١).

فإن هذه الآية المباركة ناصّة وصريحة في أن التوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ والإقبال عليه بالاستغفار والتوبة والأوبة لابدّ أن يكون عن طريق التوجّه والمجيء إلىٰ الباب الذي نصبه الله تعالىٰ لذلك، وهو النبيّ الأكرم ﷺ، حيث قال تعالىٰ: ﴿ **جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ** ﴾ أي يأتونك ويتوجّهون إلىٰ الله بك، فالمجيء إلى النبيّ ﷺ مجيء إلى الله تعالىٰ.

إذن استغفارهم لأنفسهم عند الله تعالىٰ لا يغنيهم عن التوجّه بالنبيّ ﷺ، ومعنىٰ ذلك أن للمجيء عند النبيّ ثم الاستغفار موضوعية في حصول المغفرة.

ولا شك أن الاستغفار وطلب المغفرة عبادة من العبادات ونوع خاص من أنواع الدعاء وحالة من الارتباط بين العبد وربّه، وللكون عند النبيّ الأكرم ﷺ والمجيء عنده دخالة في قبول تلك العبادة وتوثيق الدعاء والارتباط بين العبد

---

(١) النساء: ٦٤.

وربّه والإقبال علىٰ الله تعالىٰ.

وهذا هو معنىٰ أن لله عزّ وجلّ مواضع ومواطن مشرّفة يُقبل الدعاء بـالكون فيها والمثول تحت قبّتها ،كما في الكون في عرفة وتحت الميزاب وعند الملتزم والمستجار وغيرها ، وكما ورد من أن الصلاة في البيت الحرام تعدل كـذا ألف ركعة ، وهذا يعني أن للكون في البيت الحرام دخالة في توثيق الارتباط بين العبد وبين الله تبارك وتعالىٰ.

والحاصل: إن الله عزّ وجلّ يخاطب المذنبين الظالمين لأنـفسهم أن تكـون عبادتهم في طلب المغفرة بالقصد إلىٰ النبيّ ﷺ والمجيء عنده ، لأن ذلك مـن مواطن استجابه الدعاء وتفتّح أبواب السماء وقـبول التـوبة وتـحقّق المـغفرة ، وهذا نوع من أنواع التوسّل والتشفّع به ﷺ إلىٰ الله عزّ وجلّ ، فمجيئهم عند النبيّ والاستغفار في حضرته نوع من أنواع التوسّل ، واستغفار النبيّ ﷺ بعد توسلهم به نوع من أنواع الشفاعة؛ ولذا قال عزّ وجلّ: ﴿ **وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ** ﴾ ، وبـعد التوسّل والشفاعة قال تعالىٰ: ﴿ **لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** ﴾.

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾(١).

وهذا أمر من الله عزّ وجلّ لنبيّه الأكـرم ﷺ بأن يـتشفّع للـمؤمنين ويكـون وسيلة وواسطة لهم في المغفرة.

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** ﴾(٢).

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) المنافقون: ٥.

إن في هذه الآية المباركة أمر إلهي لعصاة هذه الأمة، بأن يأتوا إلىٰ النبيّ ﷺ ويتوسلون به ليستغفر لهم الله عزّ وجلّ.

والباري تعالىٰ يقول إن الإباء عن المجيء عند النبيّ ﷺ صدود واستكبار علىٰ الله تعالىٰ، وهو نفس الجرم الذي وقع به إبليس عندما أبىٰ عن السجود لوليّ الله وخليفته آدم، حيث قال تعالىٰ: ﴿ **أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾، كذلك الفسق وصَفَ به الله عزّ وجلّ المنافقين كما وصف به إبليس، وليس ذلك إلّا لأنهم لوّوا رؤوسهم وأبوا زيارة النبيّ ﷺ وتوسيطه والتوجّه به إلىٰ الله تعالىٰ في الاستغفار، وذلك سواء قبل وفاة النبيّ ﷺ أو بعدها؛ لأن الرسول الأكرم حيّ بالآيات وبروايات الفريقين، تُعرض عليه الأعمال ويسمع السلام ويردّه وهو شهيد علىٰ جميع الأمم.

٤ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[١].

وفي هذه الآية المباركة والآيات التي سبقتها تأكيد على أن هذه الأمة لا ترحم إلّا بنبيّها ﷺ، وهو شفيع هذه الأمة ووسيلتها، وإن الله عزّ وجلّ أمره بذلك وأمر الأمة بالرجوع إليه لنيل الرحمة والمغفرة.

٥ ـ قوله تعالىٰ حكاية لكلام إبراهيم ؈ مع عمّه آزر: ﴿ **قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا** ﴾[٢].

وهذه الآية المباركة صريحة فيما نحن بصدد اثباته؛ إذ أن النبيّ إبراهيم ؈ يعلّل شفاعته ووساطته في الاستغفار بأن الله كان به حفيّاً، فالحفاوة والحظوة

---

(١) النور: ٦٢.

(٢) مريم: ٤٧.

والحبوة والوجيه والوجاهة التي يوليها الله عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السلام وسيلة وباباً ووجهاً يتوجّه به إلىٰ الله عزّ وجلّ، كما تقدم ذلك في الآيات التي صرّحت بأن موسى وعيسىٰ عليهما السلام وجيهان عند الله تعالىٰ ومن المقرّبين، فكلّ مقرّب ووجيه وحبيب لدىٰ الله ومن له كرامة وعزّة عنده عزّوجلّ يتوجّه ويتوسّل به إلىٰ الله ويجعل شفيعاً في قول القائل: «**إنّا توسّلنا وتوجّهنا واستشفعنا بك إلى الله ياوجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله**».

والتعليل المذكور في هذه الآية الكريمة عامّ، وقد أقرّ الله تعالىٰ إبراهيم عليه، فيكون هذا التعليل دليلاً عاماً علىٰ أن كلّ من كان له حفاوة وقرباً عند الله عزّ وجلّ يتوسل به ويتشفّع به عند الله تعالىٰ.

وهذه هي الملّة الإبراهمية الحنيفية التي نحن عليها، ﴿ **وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾(١).

٦ ـ قوله تعالىٰ حكاية لقول موسىٰ عليه السلام: ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾(٢).

فالنبيّ موسىٰ عليه السلام في هذه الآية المباركة يستغفر لنفسه ويتوسّط في طلب الاستغفار لأخيه هارون عليه السلام، وهذا معناه أن الوسيلة والشفاعة قد تكون أيضاً من الوليّ الذي هو أقرب وأكثر حظوة عند الله تعالىٰ للوليّ الذي هو دونه في القرب، كما ورد ذلك في شفاعة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لبقيّة الأنبياء بل ولخصوص الأئمة الاثني عشر من أهل بيته عليهم السلام في الكينونة معه في مقامه.

---

(١) سورة البقرة ٢: ١٣٠.

(٢) الأعراف: ١٥١.

وإذا كان النبيّ موسى عليه السلام واسطة ووسيلة رحمة وغفران بين هارون النبي وبين الله تعالى وهو نبيّ من الأنبياء فكيف ظنّك بسائر البشر؟!

٧ ـ قوله تعالىٰ حكاية عن قول يعقوب عليه السلام وولده: ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾(١).

وهذا توسّل من أبناء يعقوب بأبيهم عليه السلام، ونفس فعلهم هذا هو توبة وندامة وأوبة وإنابة إلىٰ الله عزّ وجلّ، ففي التوبة التي هي من العبادة لله تعالىٰ توجّهوا إلىٰ أبيهم؛ لحفاوته عند الله تعالىٰ، والنبيّ يعقوب عليه السلام أقرّهم علىٰ فعلهم هذا، وقال لهم: ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** ﴾ فقوله هذا شفاعة منه عليه السلام لأبنائه عند الله تعالىٰ، وقولهم وتوجّههم إليه توسّل منهم بأبيهم وتوسيط له بينهم وبين الله عزّ وجلّ؛ وذلك بحسب ما تقدّم ويأتي أيضاً من الرابطة الوثيقة بين التوسّل والشفاعة، وجاء في ذيل سورة يوسف قوله تعالىٰ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾(٢) أي أن ما ذكر في الآيات عبرة لمن يقرأ القرآن ليتخذها سنّة ينتهجها.

٨ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾(٣).

وهذه الآية المباركة تبيّن وساطة حملة العرش في غفران الذنوب، وقد روىٰ الفريقان أن حملة العرش يوم القيامة ثمانية، أربعة من الأولين وأربعة من

(١) يوسف: ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) سورة يوسف ١٢: ١١١.

(٣) غافر: ٧.

الآخرين، أما الأولون فهم الأنبياء أولو العزم، نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام وأما الآخرون فهم النبيّ صلى الله عليه وآله وثلاثة من هذه الأمة، وهم الامام عليّ عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام، أخرج الكليني في الكافي عن يحيىٰ بن سليمان المازني عن أبي الحسن موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال: «**إذا كان يوم القيامة كان على عرش الرحمن أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين، فأما الأربعة الذين هم من الأولين فنوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسى عليهم السلام، وأما الأربعة من الآخرين فمحمّد وعليّ والحسن والحسين صلوات الله عليهم**»[1].

وسواء كان حملة العرش من الملائكة أم من الأنبياء والأوصياء، فإنهم شفعاء ووسيلة يستغفرون للذين آمنوا.

٩ـ قوله تعالىٰ علىٰ لسان بني إسرائيل: **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾**[2].

فإن سؤال بني إسرائيل في هذه الآية المباركة لم يكن بالخطاب في الدعاء مباشرة لله تعالىٰ، وإنما سألوا الله تعالىٰ وتوجّهوا إليه بنبيّه، وموسىٰ عليه السلام أجابهم علىٰ ما سألوا بقوله: **﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾** ولم ينكر عليهم توسيطه في قضاء الحاجة وطلب ونيل المقصود، وكذلك الله عزّ وجلّ لم ينكر عليهم ذلك في القرآن الكريم، وإنما أنكر عليهم استبدال الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير.

١٠ـ قوله تعالىٰ علىٰ لسان نبيّه سليمان عليه السلام: **﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي**

---

(١) الكافي: ج٤ ص٥٨٥.

(٢) البقرة: ٦١.

بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾(١)، حيث توسّل النبيّ سليمان عليه السلام للإتيان بعرش بلقيس بمن عنده علم من الكتاب، وهو وصيّه آصف بن برخيا.

والحاصل: إن هذا الوجه القرآني الذي ذكرناه بطوائفه المتعدّدة من الآيات، حصيلته أن هناك أمراً إلهياً للنبيّ صلى الله عليه وآله بأن يكون وسيلة وشفيعاً لهذه الأمة، وأمر الناس بأن يأتوه ويقصدوه ويزوروه طلباً للشفاعة وقضاءً للحوائج، وأن مجرّد الندامة والتوبة لا تكفي، بل لابدّ من التوجّه إلىٰ الواسطة، كما فعل أولاد يعقوب، الذين كان في قصصهم عبرة لهذه الأمة، وهذه كلّها أوامر تعظّم مبدأ التوسّل وتحثّ عليه وتهدّد من يستكبر عليه، وأن مصيره يكون كمصير إبليس.

١٥ - آيات التوسّل بمخلوقات كريمة أضيفت إلى الأنبياء والأولياء:

هناك آيات عديدة تنصّ علىٰ مشروعية التوسّل بغير الأنبياء والرسل من المخلوقات الكريمة علىٰ الله تعالىٰ، والتي أُضيفت إلىٰ الأنبياء والأولياء، فهي توجب تحقيق المقصود وإنجاح بعض الحوائج، نشير إلىٰ بعضها:

١ ـ ما هو مذكور في قصة يوسف عليه السلام، حيث أمر إخوته أن يُلقوا قميصه علىٰ وجه أبيه ليرتدّ بصيراً ببركة ذلك القميص، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ **إذْهَبُوا**

---

(١) النمل: ٣٨ ـ ٤٠.

بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١)، فالمشافىٰ في هذه الآيات المباركة نبيّ كبير من الأنبياء، وهو يعقوب عليه السلام، والشفاء حصل بتوسّط قميص لامس بدن يوسف عليه السلام، وهذا نوع من التوسّل والتوسيط في إفاضة الشفاء من الله عزّ وجلّ، فإن الشفاء حقيقة من الله تعالىٰ والفيض كلّه منه تعالىٰ؛ لأنه الخالق الحقيقي لكلّ الممكنات بما فيها الشفاء والاستشفاء، كما في قول إبراهيم عليه السلام: **﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾**(٢) إلّا أن ذلك لا يمانع جعل الوسائط وأن يتوسل الشخص بوسيلة منصوبة من الله عزّ وجلّ ومجعولة لإفاضة الشفاء منه تعالىٰ، كالأشياء المضافة إلىٰ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، والسرّ في ذلك أن الله عزّ وجلّ جعل عالم الخلقة محكوماً بقانون الأسباب والمسببات، لتكون مواطن ومجاري فيضه إلىٰ المراتب النازلة من الوجود.

إذن إذا كان نبيّ من الأنبياء يتوسل بجاه نبيّ آخر من الأنبياء، وهو ابنه يوسف عليه السلام، **وذلك ببركة قميصه بجعله واسطة فيض في الشفاء، فكيف بنا نحن؟**

ثم إنه ليس في المورد وهو القميص خصوصية، بل ذلك شامل لكلّ ما له نسبة وإضافة إلىٰ نبيّ من الأنبياء أو وصيّ من الأوصياء بما يوجب حصول

---

(١) يوسف: ٩٣ـ٩٦.

(٢) الشعراء: ٨٠.

البركة فيه، وذلك لأن الفعل يحمل في طيّاته الطبيعة العامة والسنّة الإلهية الشاملة؛ ولذا قال الله عزّ وجلّ في نفس سورة يوسف: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ** ﴾[1]، وقال تعالىٰ أيضاً في السورة ذاتها: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى** ﴾[2].

إذن آية الاستشفاء ومشروعيته عامّة والمورد لا يخصّص الوارد.

هل الآية دليل على مشروعية الاستشفاء فقط؟

لابدّ من التنبيه هنا علىٰ أن الاستشفاع والتوسّل والاستغاثة والتبرّك والاستشفاء كلّها من باب واحد، وتندرج تحت طبيعة واحدة وإن تعدّدت عناوينها، فهي أصناف لطبيعة واحدة عامّة، وهي توسيط الواسطة لنجح المسؤول ونيل المطلوب.

فالتبرك مثلاً هو طلب البركة، أي طلب الحاجة بواسطة ما جعله الله عزّ وجلّ من الحظوة والبركة في ذوات الأنبياء والأولياء المقدّسة أو ما يتعلّق بهم وينتسب إليهم.

وكذا الاستغاثة طلب قضاء الحاجة بواسطة المستغاث به في حالة خاصة، وهكذا بقيّة العناوين الأخرىٰ كما ستأتي الإشارة إلىٰ بعضها عند ذكر الفرق بين التوسّل والاستشفاع والشفاعة في الفصل الرابع.

وبناء علىٰ هذا يكون الاستشفاء بقميص يوسف ﷺ المذكور في الآية

---

(١) يوسف: ٧.

(٢) يوسف: ١١١.

المباركة توسيط وتبرّك وتوسّل بالقميص إلىٰ الله عزّ وجلّ.

وتكون هذه الآية الكريمة دالّة علىٰ مشروعية مطلق التوسيط بكلّ أصنافه، وليست الآية خاصة بالاستشفاء فقط، وهذا من الاستدلال علىٰ مشروعية النوع أو الجنس بمشروعية الصنف أو النوع.

هذا تمام الكلام في هذه الآية.

٢ ـ قصة البقرة، الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾[١]، فإن هذه القصة تتحدّث عن إحياء شخص من بني إسرائيل، قتل ظلماً واختلفوا في قاتله فأمرهم الله تعالىٰ للكشف عن قاتله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها، لتعود إليه الحياة ويتكلّم بذكر قاتله، قال عزّ وجلّ: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[٢]، فهنا الباري تعالىٰ مع كون الإحياء من فعله وليس هو بالأمر الهين، بل هو من الأمور العظيمة والكمالات الأولية لا الثانوية، مع ذلك جعل الوسيلة إليه الضرب بلحم بقرة مذكّاة، فكيف بك بالأنبياء والأوصياء، ألا يستدرّ بهم رحمة الله عزّ وجلّ؟!

ويجدر الاشارة إلىٰ أن البقرة لم تكن بقرة عادية، بل كانت محلّ العناية الإلهية، وقد ذُكرت لها أوصافاً خاصّة في الآيات المباركة، وإن كان الاستقرار عليها بعناد من بني إسرائيل.

---

(١) البقرة: ٦٧.

(٢) البقرة: ٧٢ ـ ٧٣.

والفرق بين ما هو مذكور في هذه الآيات المباركة وبين تقديس البقر وعبادتها، هو وجود الأمر الإلهي وعدمه، وقد جعل الله عزّ وجلّ البقرة سبباً من الأسباب الإلهية وموضعاً من مواضع قدره وإبرام قضائه في القصة المذكورة.

ويشهد على ما ذكرنا قوله تعالىٰ في ذيل الآية الكريمة: ﴿ **وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾.

ومعنىٰ ذلك أن الله عزّ وجلّ جعل البقرة آية وواسطة لاحياء الموتىٰ بإذنه ومشيئته.

٣ ـ قصة التابوت، التي وردت في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾(١).

فالتابوت الذي فيه سكينة وبقيّة مما ترك آل موسىٰ وآل هارون جُعل آية معجزة لمُلك طالوت وإمامته، فتلك التركة بسبب علقتها بآل موسىٰ وآل هارون واكتسابها البركة لإضافتها إليهم تصل إلىٰ درجة الاعجاز والآية البيّنة لاثبات مطالب حقّة، وهي إمامة طالوت وتوجب بروز ظواهر خارقة للعادة للتابوت تكوّن منه معجزة، كما ورد في روايات الفريقين.

فهذه الواسطة تجاوزت حدّ الكرامة والبركة لتصل إلىٰ درجة الحجّية

---

(١) البقرة: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

والإعجاز؛ ولذا قال الله عزّ وجلّ في ذيل الآية الكريمة: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ وذلك لبيان أن التابوت آية وعلامة وواسطة يتوسّط ويتوسل بها لإثبات مُلك طالوت وإمامته.

٤ ـ قصة السامري صاحب العجل، التي وردت في قوله تعالىٰ في بني إسرائيل عندما ذهب موسى عليه السلام إلىٰ ربّه: ﴿ **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾(١) إلىٰ أن قال الله عزّ وجلّ حكاية عن لسان موسىٰ عليه السلام: ﴿ **قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي** ﴾(٢)، والرسول في الآية الكريمة كما في بعض الروايات هو جبرئيل عليه السلام، عندما هبط وتمثّل علىٰ حصان ليستنقذ موسىٰ عليه السلام وبني إسرائيل من فرعون وجنوده ويرشدهم إلىٰ الطريق، من أجل العبور من مصر إلىٰ الطرف الآخر، فكان علىٰ حصان نوريّ تمثّلي، وكان السامري من خواصّ النبيّ موسىٰ عليه السلام، فلاحظ أن حافر حصان جبرئيل عليه السلام عندما كان يخطو الحصان ينبت الزرع دفعة واحدة من تحته، فقبض قبضة من أثر حصان الرسول فنبذها في العجل فإذا هو له خوار.

وقد وردت هذه القصة في روايات الفريقين:

ففي تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: (وكان السامري على مقدّمة موسىٰ يوم أغرق الله فرعون وأصحابه، فنظر إلىٰ جبرئيل وكان علىٰ حيوان في صور

---

(١) طه: ٨٧ـ ٨٨.

(٢) طه: ٩٥ـ ٩٦.

رمكة(١) فكانت كلّما وضعت حافرها على موضع من الأرض تحرك ذلك الموضع، فنظر إليه السامري وكان من خيار أصحاب موسىٰ، فأخذ التراب من تحت حافر رمكة جبرئيل وكان يتحرك، فصرّه في صرّة، وكان عنده يفتخر به على بني إسرائيل، فلما جاءهم إبليس واتخذوا العجل قال للسامري هات التراب الذي معك، فجاء به السامري فألقاه إبليس في جوف العجل، فلما وقع التراب في جوفه تحرك وخار)(٢).

وفي جامع البيان للطبري قال: (وقوله: فقبضت قبضة من أثر الرسول، يقول: قبضت قبضة من أثر حافر فرس جبرئيل) ثم أخرج عن ابن عباس قوله: (لما قذفت بنو إسرائيل ما كان معهم من زينة آل فرعون في النار وتكسّرت، ورأىٰ السامري أثر فرس جبرئيل عليه السلام فأخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلىٰ النار فقذفه فيها، وقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فكان للبلاء والفتنة) وفي حديث آخر عنه أيضاً: (فألقىٰ القبضة علىٰ حُليّهم فصار عجلاً جسداً له خوار).

وأخرج أيضاً عن مجاهد في قول الله تعالىٰ: ﴿ **فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا** ﴾ قال: (من تحت حافر فرس جبرئيل، نبذه السامري علىٰ حلية بني إسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار)(٣).

فإذا كان أثر التراب الذي لامس حافر فرس جبرئيل عليه السلام له ذلك التأثير مع أن السامري استخدمه في طريق الضلالة والغواية فما بالك بمن هو أشرف من جبرئيل عليه السلام ؟! ألا تكون المواضع التي وقف فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وقبره

---

(١) الرمكة: الأنثىٰ من الخيل.

(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٦٢.

(٣) جامع البيان: ج١٦ ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.

والمواطن التي لامست بدنه الشريف ذات بركة وتأثير خارق لما هو المعتاد، لا سيما إذا كان في طريق الهداية والانصياع للأوامر الإلهية؟!

٥ـ عصا موسىٰ عليه السلام، حيث كانت وسيلة وواسطة للعديد من المعاجز الإلهية كانقلابها أفعىٰ، وضرب البحر بها فكان كلّ فرق كالطود العظيم، وضرب الحجر بها فانفجرت إثنتا عشرة عيناً، كلّ ذلك لكونها مضافة إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فهي مباركة ببركة موسى عليه السلام وواسطة للكثير من المعاجز، فكيف بك بنفس موسىٰ ومن هو أفضل من موسىٰ، ألا يكون واسطة ووسيلة لقضاء الحوائج التي هي لا تصل في العظمة والخطورة إلىٰ حدّ المعجزة؟!

٦ـ البيت الحرام حيث جعله الله عزّ وجلّ مباركاً تُطلب فيه البركة ويدعىٰ فيه لقضاء الحوائج، وهو نوع توسيط لأجل طلب البركة، وذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ** ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ٩٦.

الفصل الثالث

شرطيّة الترسّل وضرورته في مقامات ثلاث

- قبول التوبة
- قبول العبادات
- ونيل المقامات الإلهيّة

الدليل الأول: معطيات الشهادة الثانية

الدليل الثاني: التوسّل ضرورة عقلية

الدليل الثالث: عموم وجوب طاعة الله ورسوله وأولي الأمر.

الدليل الرابع: اقتران اسم النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام بأعظم العبادات.

الدليل الخامس: ابتغاء الوسيلة ضرورة قرآنية.

الدليل السادس: شرطية الاستجارة بالنبيّ ﷺ في طلب المغفرة.

الدليل السابع: التوسّل بالنبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ميثاق مأخوذ على الأنبياء.

الدليل الثامن: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِم ﴾.

الدليل التاسع: الاستكبار والصدّ عن آيات الله تعالى موجب لحبط الأعمال.

الدليل العاشر: خضوع الملائكة لوليّ الله وخليفته.

شرطية التوسّل
وضرورته في مقامات ثلاث

نريد أن نبيّن تحت هذا العنوان دور التوسّل وشرطيته في مقامات ثلاث، وهي كالتالي:

المقام الأول: إن من شرائط التوبة وقبولها التوسّل بالنبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

المقام الثاني: إن من شرائط قبول وصحة الإيمان (العقيدة) والعبادات مطلقاً التوسّل والتوجّه بالنبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

المقام الثالث: إن أي توجّه إلىٰ الحضرة الربوبية في صدد نيل مقام من المقامات الإلهية أو حظوة عند الله تعالىٰ لابدّ فيه من التوجّه بالنبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام والتوسّل بهم.

فإن فقهاء الإمامية وغيرهم أيضاً ذكروا أن ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط في تلك المقامات الثلاث، بمعنىٰ معرفتهم والإيمان بإمامتهم.

وليس هذا ما نريد إثباته هنا؛ إذ هو مع وضوحه خارج عن محلّ البحث.

إذن ما نريد بيانه هنا هو شرطية التوسّل بالنبيّ الأعظم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام في تلك المقامات الثلاث.

ولأجل اشتراك ما ادّعيناه في المقامات الثلاث في طبيعة الأدلّـة نسـتعرضها ببيان واحد، يكون صالحاً لإثبات المدّعيات الثلاثة في المقامات المذكورة.

وإليك فيما يلي استعراض الأدلّة:

الدليل الأول: معطيات الشهادة الثانية

إن المعرفة والعقيدة والإيمان الذي هو من العبادات، بـل أعـظم الفـرائـض الإلهية؛ لأنه إذعان وإخبات وتسليم وخضوع وانقياد لله تعالىٰ، وهذه المـعرفة الإيمانية للعقل والقلب هي عبادتهما وطوعانيتهما لله نوع توجّه ولقاء لله تعالىٰ ووفود علىٰ الحضرة الربوبية وزلفىٰ وقـرب بـتوسّط الإيـمان القـلبي، وهـذه العبادة القلبية العظيمة ممتنعة بلا واسطة، وذلك لعظمة الله عزّ وجلّ، فلا اكتناه ولا إحاطة ولا مماسّة ولا ملامسة ولا مواجهة جسمية أو عقلية أو نفسية؛ إذ لا يُجابه الجسم إلّا مـا يـماثله فـي الجسـمية، ولا يُـجابه النـفس أو العـقل إلّا مـا يماثلهما، والله تـعالىٰ مـنزّه عـن كـونه جسـماً أو نـفساً أو عـقلاً؛ لكـونها مـن الممكنات المحدودة بحدود الماهية والفقر والحاجة.

إذن لابدّ من الوسيلة والواسطة في الإيمان، الذي هو أعظم العبادات وأعظم أنواع التوجّه إلىٰ الله تعالىٰ، والواسطة هي الإيمان بـالنبيّ الأكـرم ﷺ والإقـرار بالشهادة الثانية في مقام الإدلاء بالشهادة التـوحيدية المـقبولة عـند الله تـعالىٰ، والموجبة للخروج من حظيرة الشرك إلىٰ التـوحيد الإسـلامي الخـالص؛ لأنـه أعظم آية للحقّ سبحانه.

وإذا كان للوسيلة هذا الدور الخطير في المعرفة وأن التوجّه إليها في المعرفة

توجّهاً إلىٰ الله تعالىٰ، والمعرفة أعظم شأناً من سائر العبادات، فكيف لا يكون التوجّه في عبادة البدن والنفس إلىٰ الله تعالىٰ بالوسيلة؟! وكيف لا يسوغ التوجّه في الخطاب الكلامي بألفاظ الدعاء إلىٰ الوسيلة، ويكون دعاؤها دعاء بها إلىٰ الله تعالىٰ؟!

ففي حاقّ وعمق عبادة الإيمان والتوجّه القلبي لابدّ من التوجّه بالنبيّ ﷺ للوفود على الله عزّ وجلّ، فلا يتحقّق التوحيد ولا يكون المرء مؤمناً، إلّا إذا توجّه بقلبه إلىٰ الله تعالىٰ بالشهادة الأولىٰ والشهادة الثانية، ومن ينفي أي إسم أو واسطة مع الله تعالىٰ عند التوجّه إليه فهو واقع في مغبّة الشرك والوثنية من حيث يشعر أو لا يشعر، نظير وثنية قريش، حيث كانوا لا يدينون الله تعالىٰ بطاعة وولاية نبيّه الأكرم ﷺ.

وإذا كان الإيمان والمعرفة كذلك فكيف بباقي العبادات التي هي أقلّ شأناً وخطورة؟!

والحاصل: أن المعرفة والإيمان والتوحيد الذي يتضمّن الدين بأجمعه لا يحصل إلّا بالتوسل بآيات الله الكبرىٰ، ومزاوجة الشهادة الثانية بالشهادة الأولىٰ، وهذا يعني أن أي شأن من الشؤون الدينية كالتوبة أو العبادة أو نيل مقام من المقامات الإلهية لا يمكن أن يتحقّق إلّا بالمحافظة علىٰ الشهادة الثانية، والإقرار بها وبمعطياتها وتداعياتها ومقتضياتها في كافّة أصول وفروع المعارف التوحيدية، ولا شك أن الإيمان بالشهادة الثانية توجّه قلبي بالنبيّ الأكرم لله عزّ وجلّ، إذ الإيمان كما أسلفنا طلب للقرب والزلفىٰ ولقاء الله تعالىٰ، وهذا القرب إنما يتحقّق بتوسيط الشهادة الثانية، وهي شهادة أن محمّداً رسول

الله ووليّه وخليفته في أرضه.

فالإسلام يدعو إلىٰ التوجّه بالنبيّ ﷺ في الإيمان والاعتقاد وهو أفضل عبادة، فضلاً عن بقيّة العبادات الأخرىٰ، والإباء عن التوجّه في العبادة بخاتم الأنبياء إنكار للشهادة الثانية، ودعوة إلىٰ الشرك باسم التوحيد، وهذا ما أخفق فيه السلفيون، حين جحدوا التوسّل بالنبي ﷺ، فلا تراهم يقرنون لون الشهادة الثانية ومؤداها ومعطياتها بلون الشهادة الأولىٰ في رسم بناء التوحيد في أدبيات كتبهم، فيقتصرون علىٰ تفسير الشهادة الأولىٰ في التوحيد، من دون أن يهتدوا إلىٰ كيفية ركنية مؤدّىٰ الشهادة الثانية في أركان التوحيد، وكيفية ضرورة الربط والارتباط بين مؤدّىٰ كل من الشهادتين في رسم أصل التوحيد، ومنه يظهر أن التوسّل والتوجّه بالنبي ﷺ ضرورة وليس مجرد خيار مشروعية.

الدليل الثاني: التوسّل ضرورة عقلية

علىٰ الرغم من أن هناك من أعلام السنّة من أكّد علىٰ رجحان التوسّل ومشروعيّته، كالقاضي عياض في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ والسُبكي في شفاء السقام والسيف الصقيل والسمهودي في وفاء الوفا وتقي الدين الحصني الشافعي في كتابه دفع الشبه عن الرسول والرسالة وغيرهم.

إلّا أن ما نرمي إليه في هذه الأبحاث أبعد من ذلك؛ إذ أن الرجحان والمشروعية لا يثبتان سوىٰ التخيير وكون التوسّل أمراً مرغوباً فيه يجوز للمكلف تعاطيه وله تركه أيضاً، وما نريد التأكيد عليه هنا هو أن مبدأ التوسّل أمر ضروري يحكم العقل بلابدّيته وعدم إمكان المحيص عنه، وذلك لأن نفي

الواسطة والوسيلة بين العبد وبين ربّه في مقام التوجّه إليه تعالىٰ لا يخرج عن أحد فروض ثلاثة كلّها باطلة:

الأول: فرض المجابهة والمواجهة المباشرة لله تعالىٰ حين التوجّه إليه في الدعاء والعبادة، وبطلان هذا الفرض واضح، إذ يلزم منه التشبيه للذات الإلهية، وقد ثبت بطلانه في الأبحاث العقائدية؛ لتنافيه مع الصفات الكمالية اللّامتناهية لواجب الوجود.

بيان الملازمة:

إن مجابهة ومواجهة البشر العاديين المباشرة للذات الإلهية المقدّسة إما أن تكون حسّية جسمانية أو نفسانية روحية أو عقلية، وهذه الأقسام الثلاثة من المجابهة المباشرة هي التشبيه الباطل بعينه، وذلك لأن الارتباط المواجهة الجسمية إنما تفرض مع ما هو جسم، لقانون التضايف بين المتجابهين، وهكذا التوجّه المواجهة الروحية والقلبية لما هو روح والمواجهة العقلية لما هو عقل أيضاً، فكلّ هذه الأقسام المفروضة للمواجهة المباشرة لله تعالىٰ لم تخرج عن دائرة التشبيه للذات المقدّسة بكونها جسماً أو روحاً أو عقلاً، وهو الشرك بعينه، لكونه موجباً لسلب واجب الوجود عن واجبيّته وكماله المطلق اللّامتناهي، ووصفه بصفات المخلوق المحدود بحدود الإمكان والماهية والفقدان والاحتياج والافتقار.

وحاصل هذا الفرض هو مواجهة البشر العاديين المباشرة لله تعالىٰ، وهو فرض التشبيه الباطل بكلّ مراتبه.

الثاني: القول بالتعطيل وعدم السبيل إلىٰ الله تعالىٰ ومعرفته والتوجّه إليه، وهو باطل، لأن معرفة الله تعالىٰ واجبة والتي هي نوع لقاء لله عزّ وجلّ وتوجّه إليه وزلفىٰ.

الثالث: دعوىٰ أن الناس بأجمعهم لهم ارتباط مباشر مع الله تعالىٰ فوق الجسم والروح والقلب والعقل بما لا يستلزم التشبيه، وهذا باطل بالوجدان، وقد رفض القرآن الكريم أيضاً الإيحاء والوحي إلىٰ جميع البشر واستنكر ذلك على المشركين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً** ﴾(١).

وردّ الله عزّ وجلّ في آيات أخرىٰ على هذه المقالة الباطلة، حيث قال: ﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ** ﴾(٢).

ومع بطلان هذه الفروض الثلاثة تكون النتيجة ضرورة الإيمان بالوسائل والوسائط والآيات، والرجال المؤهّلين للإرتباط بالله تعالىٰ، وهم الأنبياء والأولياء والمصطفين، الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في كلّ ما يحتاج الخلق إليه وفي كلّ توجّه وطلب ودعاء وزلفىٰ إلىٰ الله تعالىٰ، سواء كان على مستوىٰ التوبة أو سائر العبادات أو نيل مقام من المقامات الإلهية، وليس ضرورة التوسيط إلّا لعظمة الله عزّ وجلّ وعلوه عن التجسيم

---

(١) المدّثر: ٥٢.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

والتشبيه والتعطيل.

ثم إن آيات الله الكبرىٰ وأسمائه العظمىٰ التي جعلها واسطة في التوجّه إليه هي أيضاً لا تتوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ بالمباشرة ولا تجابهه إلّا بذواتها، فتوجّه الوسائط أيضاً إلىٰ الله تعالىٰ إنما يكون بذواتها التي هي آية لمعرفة الله عزّ وجلّ، ولا توجد أي مجابهة بالمباشرة لأيّ مخلوق من المخلوقات.

التوسّل في كل النشآت ولأصناف المخلوقات:

والحاصل: أن الله تعالىٰ لعظمته وعظيم صفاته لا يجابه ولا يواجه إلّا بالوسائل والآيات، ولا يستثنىٰ من ذلك القانون وتلك السنّة الإلهية التكوينية أي مخلوق من المخلوقات في كلّ شأن من شؤونه المعرفية والعبادية في هذه النشأة وفي جميع النشآت، ولذا قالت الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام في مستهل خطبتها المعروفة في هذا المجال: «**فاحمدوا الله الذي بعظمته ونوره ابتغىٰ من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة، فنحن وسيلته في خلقه، ونحن آل رسوله، ونحن حجّة غيبه وورثة أنبيائه**»[1].

وكذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وبعظمته ونوره ابتغىٰ من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة**»[2].

إذن قانون ومبدأ التوسّل ضرورة يدركها العقل ويُقرّ بها، لعظمة الله تعالىٰ، وليس التوسّل أمراً تخييرياً ولا مشروعاً فحسب.

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ج١٦ ص ٢١١، السقيفة وفدك / أبو بكر الجوهري البغدادي: ص١٠١.

(٢) الكافي: ج ١ ص١٢٩.

الدليل الثالث: عموم طاعة الله ورسوله وأولي الأمر

إن ضرورة المسلمين قائمة علىٰ أن جميع العبادات فيها ما هو فرائض قرآنية إلهية ومنها ما هو سنن نبويّة، كما في الصلاة والصيام والحجّ والزكاة والجهاد وغيرها، إذ هي فرائض إلهية في أصل وجوبها في الدين، وأما تفاصيلها وأجزائها وشرائطها وأقسامها فهي سنن نبويّة وصلتنا عن طريق أمر النبيّ ﷺ لكلّ المسلمين بتلك التفاصيل والتشريعات الخاصة، ومن أمثلة ذلك ما ورد في روايات الفريقين من أن الصلوات كان فرضها من الله تعالىٰ ركعتين لكلّ صلاة وما زاد عليها في كلّ صلاة كان من سنّة النبيّ الأكرم ﷺ وأمره وفرضه(١) وهكذا بقيّة التفصيلات والتشريعات القانونية النبويّة ضمن الفرائض الإلهية، وكتب الحديث مليئة بالأوامر النبويّة في مجمل الأبواب الفقهية وغيرها.

إذن فيكون الإتيان بالصلاة والزكاة والحجّ وغيرها طاعة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، ولا تُستعلم طاعة الله عزّ وجلّ من دون طاعة الرسول الأكرم في أوامره ونواهيه، فهو ﷺ باب طاعته تعالىٰ؛ لأنه هو الدالّ والمبيّن والناطق الرسمي عن أوامر الله عزّ وجلّ ونواهيه.

وهذا ما كنّا نُعبّر عنه بتداعيات ومقتضيات الشهادة الثانية؛ إذ هي تستدعي الإتيان والالتزام بجملة الدين طاعة لله ورسوله.

وهذا ما تكاثرت ودلّت عليه جملة من الآيات القرآنية، كما في قوله تعالىٰ:

---

(١) وسائل الشيعة: أبواب القراءة في الصلاة ب١ ح٤، مسند أحمد: ج٦ ص٢٤١ مسند عائشة، مجمع الزوائد / الهيثمي: ج٢ ص١٥٤.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢).

ثم إن الله عزّ وجلّ حذّر المسلمين من المخالفة لأوامر الرسول الأكرم، وبيّن في آيات عديدة العواقب الوخيمة التي تترتب على مخالفة النبيّ ﷺ في أوامره:

كما في قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣).

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾(٤).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾(٥).

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾(٦).

إلىٰ غير ذلك من الآيات القرآنية التي جاءت في ضمن السلك العام والسنّة الإلهية الشاملة لطاعة الرسل كافّة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(٧)، ومن الجدير بالإلتفات أن تتمة هذه الآية المباركة هو قوله

---

(١) آل عمران: ٣٢.

(٢) آل عمران: ١٣٢.

(٣) النور: ٦٣.

(٤) المائدة: ٩٢.

(٥) الأنفال: ٢٠.

(٦) محمد: ٣٣.

(٧) النساء: ٦٤.

عزّ وجلّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾(١) والتي سيأتي الاستدلال بها على شرطية التوسّل في المقامات الثلاث المتقدّمة.

والحاصل: أن أوامر النبيّ ﷺ اقترنت بأوامر الله وفرائضه في مجمل أحكام الدين الإسلامي، وقد أكّدت الآيات القرآنية على وجوب اقتران طاعة الله تعالىٰ بطاعة رسوله ﷺ، وهذه طاعة عامّة كطاعة الله عزّ وجلّ في كلّ أبواب الدين برمّته بلا استثناء لأي جانب من جوانب الشريعة الإسلامية والدين الإسلامي، ومعنىٰ ذلك أن نيّة القربة إلىٰ الله تعالىٰ وطاعته في جميع العبادات إنما تتحقّق بتوجّه العبد إلىٰ ربّه بطاعة نبيّه، ففي كلّ عبادة إنما يتوجّه العبد إلى الله تعالىٰ للتقرّب إليه بطاعته وطاعة رسوله.

فذلكة صناعية لأخذ التوسّل في نية القربة:

ولا شك أن حقيقة العبادات بالنيّة القربيّة، والنيّة القربيّة إنما تحصل بالسبب المؤدّي إلىٰ القربة، والقربىٰ غاية مسبّبة سببها الطاعة لأوامر لله تعالىٰ، وطاعة الله عزّ وجلّ لا تتحقّق إلّا إذا كانت مقترنة بطاعة رسوله ﷺ، إذ أن النيّة التي هي روح العبادة إنما تحصل بوسيلة وواسطة طاعة النبيّ، ومن لم ينوِ القربة بهذا النحو في العبادة تكون عبادته شركاً بالله تعالىٰ، لعدم التوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ بأبوابه التي أمر بتوسيطها وطاعتها وامتثال العبادات انقياداً لأوامرها.

ومن يريد أن يفصل في صلاته وحجّه وصومه طاعة الله عن طاعة الرسول

---

(١) النساء: ٦٤.

يكون علىٰ الوثنية الجاهلية التي يشنؤها الله عزّ وجلّ وعبّر عنها في قرآنه الكريم بالشرك والنجس، وطاعة كلّ من لم يأمر الله بطاعته وثن من الأوثان، بل حتىٰ صلاته تصبح وثناً إذا كانت صادرة عن طاعة غير من أمر الله بطاعته، وإن كان ذلك المطاع هو الهوىٰ وتحكيم سلطان الذات علىٰ سلطان الله عزّ وجلّ، كما في الوثنية القرشية التي ذمّها القرآن الكريم.

ومن ذلك يتّضح أن أي عبادة من العبادات أو قربة من القربات أو نيل مقام من المقامات القربية أو الفوز بحظوة عند الله تعالىٰ لا يمكن أن تتحقّق من دون توسيط طاعة النبيّ الأكرم ﷺ في تلك العبادة أو ذلك المقام.

ففي مقام التقرّب والنيّة والقصد جُعلت القبلة المعنوية طاعة النبيّ ﷺ والتدين بولايته والخضوع له، الذي هو خضوع لله عزّ وجلّ، كخضوع الملائكة لآدم لأنه باب الله تعالىٰ.

هذا كلّه في مقتضيات الشهادة الثانية وضرورة اقترانها بالشهادة الأولىٰ.

كذلك أكّدت الآيات القرآنية علىٰ ضرورة الشهادة الثالثة واقترانها بالشهادة الثانية تبعاً للشهادة الأولىٰ.

والشهادة الثالثة عبارة عن طاعة أولي الأمر، الذين أمر الله بطاعتهم في قوله تعالىٰ: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾**[1]، حيث قرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

وقد بيّن الله تبارك وتعالىٰ في قرآنه الكريم المراد من أولي الأمر الذين تجب

---

(١) النساء: ٥٩.

طاعتهم، بعد أن بيّن تعالىٰ المقصود من الأمر الذي هم أولياؤه، وأنه أمر ملكوتي من عالم كن فيكون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾[(١)]، وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾[(٢)]، وكذا قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا** ﴾[(٣)]، وقوله تعالىٰ: ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[(٤)]، ثم أفصحت الآيات القرآنية عن كون الأمر عبارة عن تدبير السماوات والأرض، قال تعالىٰ: ﴿ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ** ﴾[(٥)].

إذن أولو الأمر هم الذين يتنزّل عليهم الأمر في ليلة القدر وفيها يفرق كلّ أمر حكيم، قال تعالىٰ: ﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ﴾[(٦)]، وقال عزّ وجلّ في وصف ليلة القدر: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[(٧)]، ثم بيّن الله عزّ وجلّ أن شريعة النبيّ الأكرم من ذلك الأمر الحكيم الذي يفرق في ليلة القدر، حيث قال عزّ وجلّ مخاطباً نبيّه الأكرم ﷺ: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ**

---

(١) يٰس: ٨٢.

(٢) القمر: ٥٠.

(٣) الشورى: ٥٢.

(٤) الأعراف: ٥٤.

(٥) السجدة: ٥.

(٦) القدر: ٣ ـ ٥.

(٧) الدخان: ٣ ـ ٦.

مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

وقد صرّحت آيات أخرىٰ بأن الأمر الملكوتي يتنزّل على عباد الله من دون أن تخصّص من لهم الأمر بالأنبياء والرسل، قال عزّ وجلّ: **﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾**(٢).

وحاصل ما ذكرناه من الآيات: أن الأمر من عالم الملكوت والغيب، وأنه مرتبط بتدبير السماوات والأرض وغير مختصّ بالشؤون الدنيوية المادّية، وأن الشرائع وهداية الناس وإنذارهم مرتبطة به، وأنه شامل لأولياء الله الأصفياء المجتبين وليس خاصّاً بمقام النبوّة والرسالة، وذلك لارتباطه المباشر بمقام الهداية والإيصال إلىٰ المطلوب وهو مقام الخلافة والإمامة كما تقدم؛ ولذا قال تعالىٰ: **﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾**(٣)، والصبر واليقين للأئمة من أولي الأمر في هذه الآية المباركة إشارة إلىٰ العصمة في مقام العلم والعمل.

ولا يوجد أولو أمر في هذه الأمة بعد رسول الله تجب طاعتهم غير أهل بيته ﷺ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

ولا يمكن اقتصار الأمر الإلهي على السياسة والأمور الاجتماعية، بل هو أمر ملكوتي من عالم الغيب لهداية الأمة وتدبير السماوات والأرض يتنزّل في ليلة القدر على أولياء الله وأصفيائه، وهؤلاء هم أوصياء رسول الله ﷺ والأئمة من بعده الدالّون علىٰ أوامره والذين أوكل لهم البيان الشرعي والقانوني للأوامر

---

(١) الجاثية: ١٨.

(٢) النحل: ٢.

(٣) السجدة: ٢٤.

الإلهية والنبويّة، فكما أن الدالّ علىٰ أوامر الله ونواهيه هو النبيّ الأكرم ﷺ بأمره ونهيه، كذلك الدالّ علىٰ أوامر الرسول الأكرم ونواهيه أولو الأمر من بعده بأمرهم ونهيهم، فالنبيّ الأكرم ﷺ أمر ونهىٰ في ضمن إطار الفرائض الإلهية، وأولو الأمر أيضاً يأمرون وينهون في ضمن دائرة السنن النبويّة المباركة، بما يشبه الحالة التراتبية في التنزّل القانوني الوضعي في الأدوار والصلاحيات، فهم الدالّون على طاعة الرسول ﷺ كما كان هو دالّا علىٰ طاعة ربّه.

وبعبارة أخرىٰ: إن أصول تشريع الله تعالىٰ وفرائضه يتبعها تشريعات النبيّ ﷺ تفصيلاً وبياناً، ويتبعها تشريع أولي الأمر علىٰ نحو التنزّل القانوني، الذي هو الفتق بعد الرتق، والتفصيل بعد الإجمال، والبسط بعد القبض للتشريعات، وهذه لغة قانونية جعلها الله تعالىٰ جسراً لإيصال أحكامه علىٰ ما جرىٰ عليه البشر، كالتشريع للفقه الدستوري ثم النيابي ثم الوزاري، على نحو التبعية بلا منافاة، وهذا برهان قانوني على التشريعات التي لابدّ من طاعتها، فالرتق يُفسَّر ويفتق فتقاً قانونياً تابعاً له.

ويتجلّىٰ ذلك المعنىٰ أكثر إذا علمنا أن معظم بيان تشريع الشرائط والموانع وتفاصيل الأجزاء هي من تشريعات أئمة أهل البيت عليهم السلام، فلا تستعلم تلك الأمور مع تركهم والإعراض عنهم وعدم الطاعة لأوامرهم.

إذن الطاعة في الدين بطاعة الله، وطاعة الله بطاعة النبيّ الأكرم ﷺ وأولي الأمر، فالوليّ بعد الله تعالىٰ رسوله ﷺ وبعد الرسول أولي الأمر، الذين لهم حقّ استنباط الدين وبيانه وتفصيله، قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ**

أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾(١).

والذي يتّضح مما ذكرناه أن طاعة أولي الأمر على حدّ طاعة رسول الله مقترنة بها وشاملة للدين كلّه، كما أن ولاية الله تعالىٰ وطاعته كذلك غير مختصّة ببعض الشؤون السياسية أو الاجتماعية.

فالإتيان بجميع العبادات والطقوس الدينية طاعة لأمر الله وأمر رسوله وأولي الأمر من بعده وهم أهل بيته عليهم السلام، فالعبد ينقاد ويفد علىٰ الله تعالىٰ ويتقرّب ويتوجّه إليه بطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر، وهذا يعني أن الشهادة الثانية والثالثة مأخوذتان واسطتين في حاقّ عبادة الله تعالىٰ بما فيها عبادة المعرفة، التي هي أعظم العبادات.

ومن ثمّ كان الدين عبارة عن ولاية الله وولاية الرسول وولاية أولي الأمر والطاعة لهم، قال الله تعالىٰ: **﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾**(٢).

والولاية والطاعة أصالة لله وبالتبع للنبيّ وأولي الأمر بإذن وأمر من الله تعالىٰ، كما أخضع الله عزّ وجلّ ملائكته ومن خلق من الجنّ وغيرهم لوليّ الله وخليفته آدم، بما هو النموذج والمصداق لخليفة الله في الأرض، فكلّ من يتسنّم مقام الخلافة الإلهية لابدّ من الإنقياد والخضوع والطاعة له.

---

(١) النساء: ٨٣.

(٢) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

وحيث أن التوجّه والقربة والزلفىٰ لا تحصل إلّا بالطاعة لله وللرسول، كذلك لا تحصل إلّا بطاعة أولي الأمر مقترنة مع طاعة الله ورسوله، فلا يمكن قصد القربة في العبادة ولا يحصل القرب إلىٰ الله تعالىٰ في العبادات إلّا بالخضوع والطاعة لوليّ الأمر والإتيان بالعبادة امتثالاً لأمره، تبعاً لأمر الله والرسول ﷺ، حيث يستعلم أمرهما بأمره.

واتّضح من ذلك البيان أيضاً أن جميع العبادات فرائض من الله تعالىٰ وسنّة من نبيّه ومنهاج وهدي من أهل بيته ﵈ وعلىٰ جميع المستويات الاعتقادية والعبادية.

كذلك تبيّن أن من يعبد الله من دون التوجّه بحجّة الله ووليّه، بطاعته وامتثال أمره عمله هباء؛ إذ لا تتحقّق منه القربة لعدم الطاعة في مقاماتها الثلاث وعدم ضمّ الشهادات الثلاث إلىٰ بعضها البعض، فلا يُصار إلىٰ التوجّه إلىٰ الله تعالىٰ إلّا عن طريق آياته وبيّناته، وهم الوسيلة إليه في المقامات الثلاث التي ذكرناها في صدر البحث، بل في الدين كلّه.

ولو كان إقحام اسم النبيّ ﷺ وذكره والتوجّه القلبي إليه وإلىٰ أولي الأمر موجباً للشرك لَما قرن الله تعالىٰ طاعته بطاعتهم، فليس إنكار التوسّل والواسطة إلّا دعوة إلىٰ التفريق بين الله ورسوله وأولي الأمر، وفصل الشهادات الثلاث وبتر بعضها عن البعض الآخر، وهذه هي عبادة الشرك التي آمن بها إبليس، الذي أراد أن يفرّق بين طاعة الله وطاعة خليفته، بخلاف الملائكة أهل عبادة التوحيد الذين خضعوا لله ولوليّه آدم ﵇.

ثم إن مورد هذه الآية وهي آية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

مِنكُمْ ﴾[1] التي حكمت بوجوب الطاعة هو الدين كلّه، فكما أن طاعة الله عزّ وجلّ في الدين كلّه، كذلك ما اقترن بها من طاعة الرسول الأكرم ﷺ وأولي الأمر من أهل بيته عليهم السلام.

وما ورد من قوله تعالىٰ: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ لبيان أن محلّ بدن الخليفة هو الأرض، ولكن خلافته ليست خاصّة بالأرض، ومن ثمّ أطوع له جميع الملائكة في جميع النشآت، والشاهد علىٰ ذلك أيضاً تقديم الجار والمجرور (في الأرض) على الخليفة، فالدين الذي هو معرفة الله تعالىٰ عامّ لا يستثنىٰ منه أحد في جميع النشآت، ومن ثمّ تكون جميع المخلوفات مكلّفة بالطاعة لأولي الأمر؛ ولذا أمر الله تعالىٰ الملائكة بالسجود بما فيهم إبليس وهو من الجنّ، فخلافة وطاعة أولي الأمر وولايتهم لا تحدّ بالجنّ والإنس ولا بأمر سياسي أو اجتماعي، والكلّ يبتغي إلىٰ الله الوسيلة ويخضع لولي الله في توجّهه إلىٰ خالقه، والتوجّه إلىٰ الله من دون التوجّه إليه بطاعة نبيّه ووليّه نجس وشرك ووثنيّة قرشية.

ونيّة القربة إذا لم تكن علىٰ هذا المنوال في العبادة لا تقبل؛ لعدم تفتّح الأبواب بالآيات.

وبذلك كلّه يتمّ ما ذكرناه من شرطية التوسّل والتوجّه في المقامات الثلاثة المتقدّمة، استناداً إلىٰ وجوب الطاعة في مراتبها الثلاث.

---

(١) النساء: ٥٩.

الدليل الرابع: إقتران اسم النبيّ ﷺ وأهل بيته: باعظم العبادات :

لقد رفع الله عزّ وجلّ ذكر النبيّ الأكرم ﷺ وقرنه باسمه في مجمل العبادات، التي تقع في مصافّ أسس الدين وأركان الإيمان، من حيث محوريتها في المنظومة الدينية، ونشير فيما يلي إلىٰ بعض تلك الشواهد في هذا المجال:

الشاهد الأول: الإتيان باسم النبيّ الأكرم ﷺ في تشهّد الصلاة، حيث إن الصلاة علىٰ النبيّ وأهل بيته راجحة بإجماع المسلمين [١]، وهي شرط واجب في الصلاة عند بعض المذاهب الإسلامية، كمذهب أهل البيت عليهم السلام [٢] وبعض فقهاء المذاهب الأخرىٰ [٣]، تمسّكاً بما روته عائشة من الوجوب، حيث روت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**لا يقبل الله صلاة إلّا بطهور والصلاة عليّ**» [٤].

وقد بيّن النبيّ الأكرم الصلاة عليه عندما سُئل عن كيفيّتها، فقال: «**قولوا: اللّهمّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد**» [٥]، كذلك يستحبّ الصلاة علىٰ النبيّ محمّد ﷺ وآله بعد القنوت في الصلاة، جزم بذلك النووي تبعاً للغزالي في المُهذّب ونسبه إلىٰ الجمهور [٦].

ولا شك أن ذكر الصلاة علىٰ النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام نوع دعاء لهم وتحيّة وسلام، ونوع توجّه لهم بالمحييٰ والدعاء.

---

(١) لاحظ المجموع للنووي: ج٣ ص٤٦٠ وما بعد.

(٢) النهاية / الشيخ الطوسي: ص٨٩.

(٣) فتح العزيز / الرافعي: ج٣ ص٥٠٤، المجموع / النووي: ج٣ ص٤٦٧ وغيرهم.

(٤) سنن الدارقطني: ج١ ص٣٤٨.

(٥) صحيح البخاري: ج٤ ص١١٨، الوسائل: أبواب الدعاء ب ٣٦.

(٦) المجموع: ج٣ ص٤٩٩.

وهذا يعني أن المصلّي في صلاته التي هي الركن الركين في العبادات، والموجبة للعروج والقربان من الله تعالىٰ، إن قبلت قبل ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها علىٰ النبيّ ﷺ وأهل بيته ﷺ يتوجّه بالدعاء وإلقاء التحيّة والسلام، لكي تقبل صلاته وتوجب مزيداً من القرب إلىٰ الله تعالىٰ، فالصلاة التي هي من دعائم الدين مقرونة بالوسائط والأبواب الإلهية، لكي تكون صحيحة مقبولة عند الله تعالىٰ أو موجبة لمزيد القرب منه، وإذا كانت الصلاة كذلك فكيف بباقي العبادات الأخرىٰ؟!

ولو كان إقحام اسم النبيّ ﷺ وأهل بيته ﷺ في الصلاة والتوجّه إليهم بالقلب موجباً للشرك لما كان الأمر فيها علىٰ هذه الحال، فالفرق بين صلاة المشركين وصلاة الموحّدين في أن صلاة المشركين تفتقد لذكر النبيّ الأكرم ﷺ فيها، بخلاف صلاة المسلمين، حيث يقرن فيها إسم النبيّ الأكرم إلىٰ جانب ذكر الله تعالىٰ.

وقد قرن وجوب أو استحباب بعض العبادات الأخرىٰ غير الصلاة باستحباب الصلاة علىٰ النبيّ الأكرم ﷺ، كاستحباب الصلاة علىٰ النبيّ ﷺ إذا فرغ الحاج من التلبية في الحجّ(١)، واستحباب الصلاة علىٰ النبيّ ﷺ عند ذبح الهدي أو الأضحية(٢)، وقد جعلت الصلاة علىٰ النبيّ ﷺ أحد أركان الخطبة في صلاة الجمعة(٣).

---

(١) الأم / الشافعي: ج٢ ص ١٧١.
(٢) المجموع / النووي: ج٨ ص ٤١٢.
(٣) روضة الطالبين / النووي: ج١ ص ٥٣٠.

كذلك من أركان صلاة الميّت الصلاة علىٰ النبيّ ﷺ وآله عليهم السلام[(١)]، ويستحبّ أيضاً الصلاة علىٰ النبيّ وآله قبل الأذان والإقامة وبعدهما، كما نصّ علىٰ ذلك عبد العزيز الهندي نقلاً عن النووي في شرح الوسيط ـ في كتابه الفقهي فتح المعين[(٢)]، إلىٰ غير ذلك من الموارد التي لا تحصىٰ في الفقه، والتي قرنت فيها جملة وافرة من العبادات باسم النبيّ المبارك ﷺ وأهل بيته الطاهرين، وليس ذلك إلّا توجّه وتوسّل بهم عليهم السلام لقبول العبادة وحصول القرب من الله تعالىٰ، ولفتح أبواب السماء لصعود العمل.

وهذا ما ورد النصّ عليه في روايات عديدة ومتضافرة من طرقنا وطرق السنّة، حيث نصّت علىٰ أن الدعاء محجوب عن السماء ما لم يصلِّ علىٰ النبيّ وآله:

منها: ما ورد عن الإمام علي عليه السلام قال: «**الدعاء محجوب عن السماء حتى يُتبع بالصلاة على محمّد وآله**»[(٣)].

ومنها: ما ورد عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال: «**لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّىٰ عليّ وعلى أهل بيتي**»[(٤)].

ومنها: ما جاء عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول**

(١) نفس المصدر: ص ٦٤٠.

(٢) فتح المعين: ج١ ص ٢٨٠.

(٣) **لسان الميزان/ ابن حجر: ج٤ ص٥٣، شعار أصحاب الحديث / ابن اسحاق الحاكم: ص٦٤.**

(٤) كفاية الأثر / الخزاز القمي: ص٣٨.

الله ﷺ: صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم وزكاة لأعمالكم»(١).

ومنها: ما ورد أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: **«إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، إني جعلت ثلث صلاتي لك، فقال له خيراً، فقال له: يارسول الله إني جعلت نصف صلاتي لك، فقال له: ذاك أفضل، فقال: إني جعلت كلّ صلاتي لك، فقال: إذن يكفيك الله عزّوجلّ ما أهمّك من أمر دنياك وآخرتك، فقال له رجل: أصلحك الله كيف يجعل صلاته له؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: لا يسأل الله عزّوجلّ إلّا بدأ بالصلاة على محمّد وآله»**(٢).

ومنها: ما رواه فضالة بن عبيد، حيث قال: (سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله تعالىٰ ولم يصلِّ على النبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«عجّل هذا»**، ثم دعاه فقال له أو لغيره: **«إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتحميد ربّه عزّوجلّ والثناء عليه، ثم يصلّي على النبيّ، ثم يدعو بعد بما شاء»**(٣).

وعن ابن مسعود قال: (إذا أراد أحدكم أن يسأل فليبدأ بالمدحة والثناء علىٰ الله بما هو أهله، ثم ليصلِّ علىٰ النبيّ ﷺ، ثم ليسأل فإنه أجدر أن ينجح)(٤)، قال الهيثمي في زوائده: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح(٥).

ومنها: ما عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب إذا أراد أن ينطلق علّق معالقه، وملأ قدح ماء، فإن كانت له**

---

(١) الأمالي / الطوسي: ص٢١٥.

(٢) الكافي: ج٢ ص٤٩٣.

(٣) سنن أبي داود: ج١ ص٣٣٣ ح١٤٨١.

(٤) المعجم الكبير / الطبراني: ج٩ ص١٥٦.

(٥) مجمع الزوائد: ج١٠ ص١٥٥.

حاجة في أن يتوضّأ توضّأ، وأن يشرب شرب، وإلاّ أهراق، فاجعلوني في وسط الدعاء وفي أوّله وفي آخره»(١).

ومنها: ما أخرجه القاضي عياض عن رسول الله ﷺ قال: **«كلّ دعاء محجوب دون السماء، فإذا جاءت الصلاة عليّ صعد الدعاء»**(٢).

ومن الروايات التي من طرقنا أيضاً ما في موثقة السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: **«من دعا ولم يذكر النبيّ ﷺ رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبيّ ﷺ رفع الدعاء»**(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«إذا كانت لك إلى الله حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على النبيّ ﷺ ثم سل حاجتك، فإن الله أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويمنع الأخرى»**(٤).

كذلك عن أبي عبدالله عليه السلام قال: **«إذا دعا أحدكم فليبدأ بالصلاة على النبيّ، فإن الصلاة على النبيّ مقبولة، ولم يكن الله ليقبل بعض الدعاء ويردّ بعضاً»**(٥).

وعن الإمام الحسن بن علي العسكري عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ ﷺ قال: **«إن الله سبحانه يقول: عبادي من كانت له إليكم حاجة فسألكم بمن تحبّون أجبتم**

---

(١) المصنف / الصنعاني: ج٢ ص٢١٦.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢ ص٦٦.

وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب... وأسبابه الصلاة على محمّد ﷺ.

(٣) وسائل الشيعة: ج٧ ص٩٣ ـ ٩٤ ح٨٨٢٩.

(٤) نفس المصدر: ص٩٧ ح٨٨٤٠.

(٥) نفس المصدر: ص٩٦ ح٨٨٣٦.

دعـاءه، ألا فـاعلموا أن أحبّ عـبادي إليّ وأكـرمهم لديّ مـحمّد وعـليّ حـبيبي ووليّ، فمن كانت له حاجة إليّ فليتوسل إليّ بهما، فـإني لا أردّ سـؤال سـائل يسألني بهما وبالطيبين من عترتهما، فـمن سألنـي بـهم فـإني لا أردّ دعـاءه، وكيف أردّ دعاء من سألني بحبيبي وصفوتي ووليّ وحجّتي وروحي ونوري وآيتي وبابي ورحمتي ووجهي ونعمتي؟ ألا وإني خلقتهم مـن نـور عـظمتي، وجعلتهم أهل كرامتي وولايتي، فمن سألني بهم عارفاً بحقّهم ومقامهم أوجبت له منّي الاجابة، وكان ذلك حقاً عليّ»(١).

وهذه الروايات بمجموعها والأحكام التي سبقت للصلاة على النبيّ وآله في الصلاة وغيرها من العبادة كاشفة عن اقتران اسم النبيّ ﷺ وأهل بيته الطاهرين بأعظم العبادات بل معظمها، وهذا يعني أن الله عزّ وجـلّ جـعل تـلك الأسـماء المباركة واسطة لفيضه وشرطاً حقيقياً للتوسل إليه في التوبة وسـائر العـبادات القـربية والمـقامات الإلهـية، وأن أبـواب السـماء مـغلقة إلّا عـن سـبيلهم عليهم السلام وطريقهم، الذي نصبه الله تعالىٰ مناراً لعباده ومحجّة واضحة لخلقه.

هذا كلّه في الشاهد الأوّل وهو اقتران الصلاة على النبيّ وأهل بيته بـالصلاة وغيرها من العبادات.

الشاهد الثاني: وهو كذلك اقتران اسم النبيّ ﷺ المـبارك بـالصلاة، وذلك بالإتيان به في جزء التسليم من الصلاة، وهو قول المصلّي: السلام عليك أيـها النبيّ ورحمة الله وبركاته، فإن التسليم الذي هو جزء من أجزاء الصلاة ولا تـتمّ الصلاة إلّا بإتمامه والفراغ منه جُعل شطر منه التسليم عـلىٰ النـبيّ الأكـرم ﷺ،

(١) المصدر السابق: ص١٠٢ ح٨٨٥٠.

فقبل إتمام الصلاة وفي حاقّها يستحبّ للمصلّي أن يسلّم على نبيّ الإسلام باتفاق فرق المسلمين.

ولا شك أن هذا التسليم بالكيفية المذكورة نوع زيارة للنبيّ الأكرم ﷺ وخطاب ونداء عن قرب بـ(أيها) وتوسّل واستغاثة وتوجّه إليه وبه إلىٰ الله عزّ وجلّ؛ وذلك لأن الله تعالىٰ عندما شرّع التسليم والتحيّة للنبيّ الأكرم ﷺ في الصلاة، التي شُرّعت لذكره عزّ وجلّ والتقرّب منه والعروج إليه، فإن ذلك يعني أن ذكر النبيّ ذكر لله تعالىٰ ونداءه نداء للباري عزّ وجلّ، وليس ذلك إلّا لكون النبيّ ﷺ الآية العظمىٰ والوسيلة المحمودة بين الله وبين خلقه في الصلاة، التي هي من عظيم العبادات والقربات عند الله تعالىٰ.

إذن طبيعة الزيارة والنداء والندبة والاستغاثة والتوجّه بالنبيّ لنيل مقامات القرب في الصلاة التي هي قربان كلّ تقي موجودة في نفس الصلاة التي هي أكبر العبادات التوحيدية ويمارسها الفرد المسلم في يومه عدّة مرّات.

والحاصل: إذا كانت الصلاة التي هي من دعائم الدين مقرونة بذكر النبيّ ﷺ لنيل مقامات القرب عند الله تعالىٰ فكيف هو الحال بباقي العبادات والقربات الأخرىٰ في الدين؟!

وعلىٰ هذا كيف يقال: إن ذكر غير الله تعالىٰ في التوجّه إليه عزّ وجلّ شرك؟!

وهل هذا إلّا طمس لمعالم الشهادة الثانية؟!

الشاهد الثالث: اقتران اسم النبيّ ﷺ باسم الله عزّ وجلّ في الأذان، الذي هو عبادة من العبادات، ويُعدّ بوابة للصلاة التي إن قبلت قبل ما سواها وإن ردّت ردّ ما سواها، كذلك في الإقامة، حيث أن الفرد المسلم كما يشهد أن لا إله إلّا الله

كذلك يشهد أن محمّداً رسول الله، وليس ذلك إلّا لكون إسم النبيّ ﷺ باب الله الأعظم، وأن الصلاة التي هي الركن الركين في العبادات ومعراج المؤمن إلىٰ ربّه مفتاحها وباب الولوج إليها إسم النبيّ الأكرم ﷺ مقروناً باسم الله تعالىٰ.

ولو كان اسم النبيّ ﷺ وذكره والتوجّه القلبي إليه أثناء العبادة موجباً للشرك لما أمكن تشريع الأمر علىٰ هذا الحال، ولما أمر الله عزّ وجلّ بالتوجّه إليه بنبيّه.

الشاهد الرابع: الهجرة التي هي من العبادات العظيمة عند الله تعالىٰ، وأكّدت عليها الآيات القرآنية في مواطن عديدة، لا يمكن أن تحصل إلّا بالهجرة إلىٰ الله ورسوله، فلكي تصحّ عبادة الهجرة لابدّ أن يتوجّه فيها إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ﷺ.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾(١).

والذي يتحصّل من هذه الشواهد وغيرها أن إسم النبيّ الأكرم ﷺ وكذا أهل بيته عليهم السلام إقترن باسم الله تعالىٰ في أعظم العبادات كالصلاة والحجّ وغيرهما، هذا فضلاً عمّا دونها من العبادات، وهو اقتران واجب في بعض موارده كما تقدّم في الصلاة، ومعنىٰ ذلك شرطية التوسّل والواسطة في العبادات كما ادّعيناه في بداية البحث.

وقد أحصىٰ بعضهم في هذا المجال جملة من المواطن العبادية التي تقرن باسم النبيّ الأكرم ﷺ والصلاة عليه وعلى آله.

منها: في التشهّد الأول والثاني في الصلاة وآخر قنوت الصلاة وفي صلاة

---

(١) النساء: ١٠٠.

الجنائز وخطبة العيدين والجمعة والاستسقاء وبعد إجابة المؤذن وعند الإقامة وعند الدعاء وعند دخول المسجد وعند الخروج منه، وعلىٰ الصفا والمروة وعند الفراغ من التلبية وعند استلام الحجر وعند الوقوف علىٰ قبره الشريف، وعقيب ختم القرآن الكريم، وعند الهمّ والشدائد وطلب المغفرة وعند تبليغ العلم، وعقب الذنب إذا أراد أن يكفّر عنه وبعد الفراغ من الوضوء وفي كلّ موطن يُجتمع فيه لذكر الله، وعند طلب قضاء الحاجة وعقيب الصلوات في سائر أجزاء الصلاة غير التشهّد، إلىٰ غير ذلك من المواطن.

وقد ذكر أيضاً للصلاة علىٰ النبيّ ﷺ، فوائد كثيرة جدّاً، منها:

١ ـ أنها سبب لغفران الذنوب.

٢ ـ أنها تُصاعد الدعاء إلىٰ عند رب العالمين.

٣ ـ أنها سبب لشفاعته ﷺ.

٤ ـ أنها سبب كفاية العبد ما أهمّه.

٥ ـ أنها سبب لقرب العبد منه يوم القيامة.

٦ ـ أنها سبب لقضاء الحوائج.

٧ ـ أنها سبب لتبشير العبد قبل موته بالجنّة.

٨ ـ أنها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة.

٩ ـ أنها سبب لتذكّر العبد ما نسيه.

١٠ ـ أنها سبب لطيب المجلس.

١١ ـ أنها سبب لنفي الفقر.

١٢ ـ أنها سبب لنفي البخل.

١٣ ـ أنها ترمي صاحبها على طريق الجنّة وتخطئ بتاركها عن طريقها.

١٤ ـ أنها تُنجي من نتن المجلس.

١٥ ـ أنها سبب لوفور نور العبد علىٰ الصراط.

١٦ ـ أنه يخرج بها العبد من الجفاء.

١٧ ـ أنها سبب لابقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلّي عليه بين أهل السماء والأرض.

١٨ ـ أنها سبب للبركة في ذات المصلّي وعمله وعمره وأسباب مصالحه.

١٩ ـ أنها سبب لنيل رحمة الله له.

٢٠ ـ أنها سبب لدوام محبته للرسول وزيادتها وتضاعفها.

٢١ ـ أنها سبب لمحبّته ﷺ للعبد.

٢٢ ـ أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه.

٢٣ ـ أنها سبب لعرض اسم المصلّي وذكره عنده، إلىٰ غير ذلك من الفوائد والثمرات.

الدليل الخامس: ابتغاء الوسيلة ضرورة قرآنية

إن حقيقة هذا الدليل الخامس عبارة عن مزيد إيضاح وتعميق ونظرة أدقّ لما تقدم من قوله تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾(١).

وفي المقدّمة لابدّ من التنبيه على أن التدبر في الآية الكريمة يفيد أن الابتغاء

---

(١) المائدة: ٣٥.

المأمور به جعل متعلّقاً لكلّ من الوسيلة وذي الوسيلة وهو الله عزّ وجلّ.

فجعل الابتغاء والقصد والتوجّه إلىٰ كلّ من الوسيلة والذات الإلهية المقدّسة، فكلّ منهما أُمرنا بقصده والتوجّه إليه، إلّا أن القصد والتوجّه إلىٰ الوسيلة ابتداءً هو الذي يؤدّي وينتهي بنا إلى قصد الله تعالىٰ، فالغاية القصوىٰ هو الله عزّ وجلّ، إلّا أن الذي يقصد ابتداءً هو الوسيلة بداعي القصد إلىٰ منتهىٰ الغاية والأمل وهو الله تبارك وتعالىٰ.

بل لعلّ التدبّر الأعمق والنظر الأدقّ في الآية المباركة يكشف عن أن لفظ «وابتغوا» أُسند إلىٰ الوسيلة فقط، وأن لفظ «إليه» مرتبط بالوسيلة، لا بـ«ابتغوا»، أي أن الوسيلة هي إليه، فالابتغاء متوجّه إلىٰ الوسيلة فقط، وصفة الوسيلة أنها إليه.

وبعبارة أخرىٰ:

إن فعل «وابتغوا» عمل في لفظ «الوسيلة» كمفعول به، وأما لفظ «إليه» فليس متعلّقاً بـ«ابتغوا» وإنما الذي يعمل في الجار والمجرور هو لفظ «الوسيلة»؛ إذ فيها معنىٰ المصدر والحدث، وأن التوسّل والوسيلة هو إلىٰ الله تعالىٰ، فالابتغاء من جهة التركيب الإعرابي يعمل في الوسيلة فقط ويتعلّق بها، والوسيلة تتعلّق بلفظ إليه وتعمل فيه، وعليه فيكون الابتغاء والتوجّه والقصد بحسب ظاهر الدلالة متعلّقاً بالوسيلة، فهي التي يتوجّه إليها النداء والرجاء والخطاب، وحيث أن صفتها الذاتية أنها تؤدّي إلىٰ الله تعالىٰ فيكون التوجّه إليها توجّهاً إلىٰ الله عزّ وجلّ ونداؤها نداءً بها إليه تعالىٰ، وقصدها قصد بها إليه جلّ ثناؤه، كما في التوجّه إلىٰ الكعبة واستقبالها، فإنه توجّه بها إلىٰ الله تعالىٰ.

ومن ذلك يظهر أن مقتضىٰ مفاد الآية هو أن الإلتجاء وتوجيه الخطاب إنما يكون إلىٰ الوسيلة، كقول الداعي والمتوسل: يامحمّد يانبيّ الرحمة إني أتوجّه بك إلىٰ الله ربي وربك لقضاء حاجتي، فيوجّه الخطاب والنداء إلىٰ النبيّ ﷺ ويكون ذلك منه ابتغاءً للنبيّ ﷺ كوسيلة إلىٰ الله عزّ وجلّ، وإلّا فإن جعل الخطاب لله تعالىٰ فقط من دون التوجّه إلىٰ النبي ﷺ في الخطاب كوسيلة، لا يكون ابتغاءً وطلباً وتوجهاً إلىٰ الوسيلة، بل ابتغاء مباشري لله تعالىٰ من دون ابتغاء الوسيلة.

وعلىٰ كلا البيانين لدلالة الآية الشريفة تكون الآية نصّ في الدلالة علىٰ الأمر بالتوجّه والنداء ودعاء الوسيلة وأنه دعاء لله تعالىٰ.

ثم إن صيغة الأمر في الآية الكريمة يفيد ضرورة التوسّل بالنبيّ الأكرم ﷺ.

حيث أن هذه الآية المباركة ليست في مقام بيان مشروعية التوسّل فحسب، بل الآية المباركة ترمي إلىٰ بيان حتمية ولابدّية التوسّل، وأنه أمر تعيينيّ عينيّ، وذلك لأن المقصود من ابتغوا الوسيلة أي اقصدوها وتوجّهوا إليها في مقام توجّهكم إلىٰ الله عزّ وجلّ، ومعنىٰ (ابتغوا) أيضاً في الآية المباركة أن هناك بُعداً بين العبد والباري تعالىٰ وأن هناك مسافة لابدّ أن تطوىٰ بابتغاء الوسيلة والحضور عندها، ولو كان هناك قُرباً تلقائياً من طرف العبد إلىٰ ربّه فلا حاجة إلىٰ الوسيلة حينئذٍ للإقتراب من الله تعالىٰ؛ لكونه تحصيلاً للحاصل ولا يكون معنىٰ للوسيلة وابتغائها ولو بنحو التخيير أيضاً.

قرب الله وقرب العبد:

فالأمر بابتغاء الوسيلة وقصدها معناه أن هناك بُعداً بين العبد وبين الله تعالىٰ، وهو بُعد من جهة العبد فقط لا من طرف الباري عزّ وجلّ، لأن الله تعالىٰ قريب أقرب إلىٰ العباد من حبل الوريد، كما قال تعالىٰ ذكره: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾[1]، لكن العبد من طرفه يحتاج إلىٰ الوسيلة لبُعده؛ لأن قرب الله تعالىٰ إلىٰ العبد ليس قرباً جسمانياً جغرافياً، لكي يكون هناك تلازم تضايفي بين العبد وربه في القرب والبُعد، وكذا ليس من نوع القرب العقلي أو الروحيّ ليحصل التجانس أو التماثل في القرب؛ وذلك لما تقدّم من كون الله تعالىٰ منزّه عن التضايف والتقابل الجسماني أو العقلي أو الروحي، لأنه تشبيه باطل مناف لعظمة ذات الباري تعالىٰ.

إذن القرب الإلهي تجاه العبد قرب القدرة والسلطنة والهيمنة والإحاطة، فالمقتدر والمهيمن والمحيط كلّما كانت قدرته، وهيمنته وإحاطته أشدّ كلّما كان أقرب من المحاط به، وعلىٰ العكس يكون الطرف المقابل الضعيف، فهو يزداد ضعفاً كلّما كان طرفه المقابل أشدّ قوة واقتداراً، كذلك كلّما ازداد المهيمن إحاطة ازداد الطرف الآخر مُحاطيّة وبُعداً عن أن يحيط بالمحيط، فالقويّ قريب محيط والضعيف بعيد محاط، ويبعد كلّما ازداد القويّ قوّة وهيمنة؛ لأن الضعيف حينئذٍ بعيد من حيث افتقاده للصفات والكمالات اللّامتناهية شدّة وعدّة، التي للقويّ المحيط.

والحاصل: إن هناك نمطاً من التعاكس في القرب والبُعد، فطرف يكون قريباً

---

(١) ق: ١٦.

والآخر بعيداً، كلّما ازداد الباري قرباً وإحاطة من حيث الصفات كلّما ازداد المخلوق بعداً من طرفه بالنسبة إلىٰ الله تعالىٰ، وذلك من حيث التعاكس في الصفات.

ومن ثمّ لابدّ من ابتغاء الوسيلة التي هي أشدّ كمالاً وأقرب إلىٰ الباري تعالىٰ، لكي يطوي المخلوق شيئاً من ذلك البُعد وينال درجة من درجات القرب برقيّه في مدارج الكمال عن طريق الواسطة والوسيلة.

والوسيلة هي الأقرب إلىٰ الله تعالىٰ من حيث الكمالات، إذ كلّما تكامل المخلوق في الصفات ازداد قربه من الحضرة الربوبية، وكلّما عظم المخلوق صفة وكمالاً كلّما كان أقرب من الخالق لازدياد علمه ومعرفته بصفاته تعالىٰ والعلم درجة من درجات القرب والوصول، إذ طالما تجلّت في المخلوق صفات الخالق أكثر عرف ذلك المخلوق بتلك الكمالات والصفات، صفات الخالق عزّ وجلّ؛ ولذا يكون أكمل المخلوقات أعرفهم بربّه وأقربهم منه وأكثر دلالة عليه وأشدّهم آية وعلامة ترشد إليه وتقرّب منه؛ لأن ما يتجلّىٰ فيه من بديع الكمالات آيات لكمال الباري عزّ وجلّ، علىٰ العكس من ذلك ما لو قلّت في المخلوق الكمالات، فإنه تقلّ فيه الآيات الدالّة علىٰ عظمة الله تعالىٰ وقلّت بالطبع معرفته.

ومن هنا كان المخلوق الذي يتّسم بالضعف والفقر والحاجة والبعد عن الله تعالىٰ بحاجة إلىٰ الوسيلة، التي هي أقرب صفة وكمالاً من الله عزّ وجلّ، كي تكون سبباً يقرّبه إلىٰ ربّه.

فالوسيلة والوسائط هي أعاظم المخلوقات، وهي آيات الله وأسمائه

وعلاماته الدالّة عليه، والتي يستدلّ الخلق بعظمتها على عظمة الباري، فتزداد المعرفة ويحصل القرب بنيل الكمالات.

ولا شك أن الخطاب الوارد في الآية المباركة الكاشف عن ضرورة الوسيلة بالبيان المتقدم عامّ وشامل للتوبة ومطلق العبادات وللمعرفة والإيمان أو التوجّه إلىٰ الحضرة الإلهية لنيل مقام أو حظوة عند الله تعالىٰ.

الوسيلة معنىٰ الشفاعة:

فللعلاقة بين العبد وربّه ولقطع مسافة البُعد لابدّ من الوسيلة، سواء في المعرفة والإيمان أو في قبول التوبة أو العبادات أو نيل المقامات، وقد أُطلق عن مثل هذا المقام في لسان الشارع بالشفاعة؛ لأن الشفع في الأصل بمعنىٰ الزوج والاقتران، وهو في المقام اقتران الذات الربوبية بالآيات والأسماء الإلهية.

ثم إنه سبق أن الآيات العظمىٰ والكلمات التامّات هم النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وقد وصف الله تعالىٰ رسوله الكريم ﷺ بالعظمة، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[1]، فهم عليهم السلام الأسماء الحسنىٰ التي أمر الله أن يُدعى بها وتاب بها على آدم وامتحن بها إبراهيم عليه السلام لنيل مقام الخلافة والإمامة، وهذا البيان الذي ذكرناه، من ضرورة الواسطة والوسيلة لعظمة الله تعالىٰ هدىٰ إليه أمير المؤمنين عليه السلام عند بيانه لقوله تعالىٰ: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ**

---

(١) القلم: ٤.

مَحْذُورًا﴾(١).

حيث بيّن أمير المؤمنين عليه السلام ضرورة الوسيلة ، وأن اشتباه وخطأ المشـركين إنما هو في اتخاذهم وسيلة اقتراحية غـير مأذون بـها ، حـيث طـبّقوا الوسـيلة الأعظم كمالاً علىٰ غير المصداق والفرد الحقيقي لها ، فذمّهم الله عزّ وجلّ علىٰ ذلك.

قـال أمـير المـؤمنين عليه السلام فـي هـذا المـجال: «**فـبعظمته ونـوره أبـصر قـلوب المـؤمنين، وبـعظمته ونـوره عـاداه الجـاهلون، وبـعظمته ونـوره ابـتغىٰ مـن فـي السـماوات والأرض مـن جـميع خـلائقه إليـه الوسـيلة، بـالأعمال المـختلفة والأديـان المشـتبهة، فكـلّ مـحمول يـحمله الله بـنوره وعـظمته وقـدرته لا يسـتطيع لنـفسه ضـراً ولا نـفعاً ولا مـوتاً ولا حـياة ولا نشوراً**»(٢).

فإن الأعمال المختلفة والأديان المشتبهة ناتج اتخاذ الخـلق الوسـيلة إلىٰ الله تعالىٰ ، بسبب عظمته ونوره وتعاليه عزّ وجلّ.

ومن ذلك كلّه يتّضح أن من ينكر التوسّل أسوء حالاً من قريش ، التي آمنت بالوسيلة وأخطأت المصداق ، حيث جعلوا وسائط باقتراحهم من غير سـلطان أتاهم؛ لشعورهم بالفطرة التي خلقهم الله عليها بعظمته تـعالىٰ عـن أن يـنال أو يدرك بلا واسطة.

---

(١) الإسراء: ٥٧.

(٢) الكافي: ج ١ ص ١٣٠.

ترامي الوسائل وتعاقبها:

ثم إن الآيات الكبرىٰ تتفاوت فيما بينها، فأهل البيت عليهم السلام شفيعهم ووسيطهم إلىٰ الله تعالىٰ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في نيل المقامات، وبالنسبة للنبيّ ذاته فهو بذاته آية وعلامة عظمىٰ علىٰ صفات الله تعالىٰ، فتكون نفسه من حيث هي مخلوقة وفعل لله تعالىٰ وسيلة لنفسه، نظير ما ورد في الروايات: (خلق الله المشيّة بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشيّة)(١).

فالنبيّ صلى الله عليه وآله مرآة الكمالات والصفات الإلهية له ولغيره في جميع جهات الإرتباط بالله تعالىٰ كقبول التوبة أو بقيّة العبادات أو مطلق نيل مقامات القرب من الله عزّ وجلّ فهو صلى الله عليه وآله أمينه علىٰ وحيه وعزائم أمره.

الدليل السادس: شرطية الاستجارة بالنبيّ صلى الله عليه وآله في طلب المغفرة

هنا أيضاً نريد التعرّض لبيان أدقّ وأعمق ودالّ علىٰ المطلوب في المقام لقوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** ﴾(٢).

لقد نصّت هذه الآية المباركة علىٰ ثلاثة شروط لقبول التوبة والاستغفار من هذه الأمة، وهي:

١ ـ المجيء إلىٰ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

٢ ـ ابراز الاستغفار من الله عزّ وجلّ.

---

(١) توحيد الصدوق: ص١٤٨.

(٢) النساء: ٦٤.

٣ـ امضاء النبيّ ﷺ لذلك الاستغفار، واستغفاره للتائبين.

فهذه الآية من ضمن مجموع الآيات التي تعرّضت لذكر شرائط التوبة، وأوّل شرط لقبول توبة المذنب والظالم لنفسه ليس إظهار الندامة من العبد أمام الله تعالىٰ مباشرة، بل الشرط الأوّل هو المجيء إلىٰ الحضرة النبويّة والالتجاء إليه، واللّواذ والاستعاذة والاستجارة به ﷺ، فأولاً لابدّ أن يأتي العبد إلىٰ النبيّ ﷺ ويلوذ به، ثم بعد ذلك يُظهر الندامة والاستغفار؛ إذ الترتيب للشروط في الآية المباركة ترتيب رتبي ترتيبي، حيث أخذت المراتب بعين الاعتبار، لا أنه ذكري فقط بقرينة العطف بالفاء.

والمجيء إلىٰ النبيّ الأكرم ﷺ هو عين التوجّه إليه والتوسّل به في قبول التوبة.

وهذه الآية كشفت النقاب عن شرطية التوسّل بالنبيّ ﷺ في أكبر خطر مصيريّ يُحدق بالإنسان وهو الذنب والمعصية، التي قد تؤدّي بالعبد إلىٰ الهلاك والسقوط في الهاوية، في مثل هذا الأمر الخطير جعل الله تعالىٰ الملاذ والملجأ هو النبيّ ﷺ، فلابدّ من الكينونة في الحضرة النبوية ثم إظهار عبادة الاستغفار، لأنه ﷺ باب الله تعالىٰ الذي منه يؤتىٰ، فيكون اللّواذ بالله عزّ وجلّ باللّواذ بنبيّه الأكرم ﷺ؛ ولذا بعد الاستجارة بالنبيّ ﷺ قال تعالىٰ: ﴿**لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾.

إذن الاستعاذة والاستجارة واللجوء إلىٰ الله بنبيّه أُخذ شرطاً في أخطر موقف للعبد مع ربّه وهو التوبة وغفران الذنوب.

ومن الواضح أيضاً أن الظلم المذكور في الآية المباركة ليس مختصّاً بالذنوب

الفردية التي بين العبد وربّه، وإنما هو شامل للظلم الاجتماعي السياسي أو النظام الاقتصادي المعاشي أو التعدّي على المنظومة الحقوقية والأخلاقيّة، ومعنىٰ ذلك أن استعلام ومعرفة تلك الأمور الفردية والاجتماعية لا يمكن أن يتحقّق إلّا عن طريق الإلتجاء واللّواذ بالنبيّ ﷺ، فكلّ حيف أو زيغ يحصل من الفرد أو المجتمع في تلك الأمور لابدّ من الرجوع فيها إلىٰ الرسول الأكرم ﷺ، وفي مقابل تعدّد أنواع الظلم يتعدّد أنواع اللجوء والتولّي والتوجّه للنبي ﷺ.

ثم إن ذكر التوبة والاستغفار في الآية المباركة لا لخصوصية فيها، وإنما ذكرت بما هي عبادة من العبادات، لكونها أوبة ورجوع إلىٰ الله تعالىٰ واقتراب منه وقصد وتوجّه إليه، فليست الآية في ذكرها لشرطية التوسّل بالنبيّ ﷺ خاصّة بالتوبة، بل هي شاملة في ذلك لكلّ العبادات.

خصوصاً وأن التوبة هي الأوبة، من آب يؤوب، والأوبة الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ، أي الاقتراب والزلفىٰ منه عزّوجلّ، ولا شك أن العبادات بمجموعها طلب الأوبة والقرب والزلفىٰ إلىٰ الله تعالىٰ، فهي نوع من أنواع التوبة، وبناءً علىٰ ذلك لا تكون التوبة عملاً منحازاً ومنفصلاً عن سائر العبادات كالصلاة والحجّ وغيرهما، بل هي عمل عام وشامل لكافّة العبادات.

كذلك التوبة نوع من أنواع الدعاء، لأنها طلب المغفرة من الله تعالىٰ ودعاء بالغفران، فمضمون هذه الآية المباركة مشترك مع ما تقدم من الروايات الدالّة علىٰ أن الدعاء وطلب العبد القرب من الله تعالىٰ لا يرتفع إلىٰ السماء ولا تُفتّح له الأبواب ما لم يقترن بذكر النبيّ ﷺ بالصلاة على محمّد وآل محمّد، وإذا كان كذلك فإن الدعاء وطلب القرب من الله عزّ وجلّ شامل للمقامات الثلاث التي

ذُكرت في صدر البحث، وهو قبول التوبة والعبادة ونيل مقامات القرب، وهو لا يقبل إلّا باللّواذ بالنبيّ ﷺ والتوجّه إليه والاستعاذة والاستجارة والتوسّل به، بالمجيء في حضرته المباركة.

وهذه الآية الكريمة الدالّة علىٰ شرطية التوجّه التوسّل وضرورته في جميع المقامات ليست خاصّة بحياة النبيّ ﷺ؛ إذ ليس المراد من المجيء الحضور الفيزيائي لبدن المذنب عند النبيّ الأكرم ﷺ فقط، بل المجيء الفيزيائي والبدني المكاني أحد المصاديق المقصودة في الآية المباركة، والتعبير بالمجيء كنائي، يراد به مطلق الاستغاثة والتوسّل والتوجّه القلبي إلىٰ النبيّ ﷺ، والشواهد على ذلك عديدة، منها:

١ ـ إن هذه الآية المباركة جاءت لبيان ماهية التوبة وشرائطها العامة، التي يشترك فيها كافّة المسلمين وفي جميع الأزمنة، فلا يمكن أن تكون مختصّة بالفترة التي عاشها النبيّ الأكرم ﷺ أو بمن زامن وعايش تلك الفترة، فالمراد من المجي مطلق الارتباط بالنبيّ ﷺ، بالتوجّه إليه والكينونة في حضرته المباركة، ثم الاتيان بعبادة الاستغفار، وهذا المضمون متطابق مع مفاد قوله تعالىٰ: ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾، إذ معنىٰ ذلك أن حضرة الأنبياء ومحضرهم مشاعر شعّرها الله تعالىٰ ليتقرّب بها إليه.

ويتّضح هذا الشاهد أكثر إذا علمنا أن النبيّ الأكرم ﷺ بُعث رحمة للعالمين، وهذه من الرحمات العامة للنبيّ الأكرم ﷺ على هذه الأمة، وغير مختصّة بمن حضر الحضور الفيزيائي البدني عند النبيّ ﷺ.

٢ ـ إن نفس التعبير بقوله تعالىٰ ﴿ **جَاءُوكَ** ﴾ يتضمّن معنىٰ اللّواذ واللجوء

والاستغاثة والتوسّل والتوجّه القلبي، وليس فيه دلالة على الاختصاص بالحضور الجسماني.

٣ ـ استغفار آدم عليه السلام وتوبته أيضاً كما مرّ ـ كانت بالمجيء للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكن كان مجيئه إليه في أفق القلب والقصد، فقد ورد في روايات الفريقين أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**لما اقترف آدم الخطيئة، قال: ياربّ أسألك بحقّ محمّد لما غفرت لي، فقال: ياآدم وكيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟ قال: ياربّ لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فعلمت أنك لم تُضف إلى اسمك إلّا أحبّ الخلق إليك، فقال: صدقت ياآدم إنه لأحبّ الخلق إليّ، ادعني بحقّه فقد غفرت لك، ولولا محمّد ما خلقتك**»[١] وغيرها من الروايات الدالّة علىٰ أن مجيء آدم إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله ولواذه به كان بالتوجّه القلبي به إلى الله تعالىٰ.

وفي هذه الرواية الأخيرة التي نقلناها إشارة أخرىٰ إلىٰ اقتران اسم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله باسم الله عزّ وجلّ في أعظم عبادة وأشرف كلمة في الإسلام، وهي كلمة التوحيد.

٤ ـ إن المسلمين في سيرتهم منذ الصدر الأول فهموا من هذه الرواية الشمول والعموم وعدم الاختصاص بالفترة الزمنية التي عاشها النبيّ صلى الله عليه وآله، وهذا دليل علىٰ عموم المعنىٰ المستعمل في ارتكاز أبناء اللغة، ولذا كانوا يتوجّهون إلىٰ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في طلب المغفرة ويأمرون الآخرين بذلك حتىٰ بعد وفاة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، والشواهد الروائية والتاريخية علىٰ ذلك كثيرة جدّاً:

---

(١) المستدرك على الصحيحين / الحاكم النيسابوري: ج٢ ص٦١٥.

منها: ما أخرجه النووي عن العتبي قال: «كنت جالساً عند قبر النبيّ ﷺ فجاء أعرابي، فقال: السلام عليك يارسول الله، سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** ﴾(١) وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلىٰ ربّي، ثم أنشأ يقول:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال: ثم انصرف، فحملتني عيناي فرأيت النبيّ ﷺ في النوم، فقال لي: **ياعتبي، إلحق الأعرابي فبشّره بأن الله تعالى قد غفر له**»(٢).

ومنها: ما أخرجه السيوطي عن أبي حرب الهلاليّ قال: (حجّ أعرابي، فلما جاء إلىٰ باب مسجد رسول الله ﷺ أناخ راحلته فعقلها، ثم دخل المسجد حتىٰ دخل القبر ووقف بحذاء وجه رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله، جئتك مثقلاً بالذنوب والخطايا مستشفعاً بك علىٰ ربّك، لأنه قال في محكم كتابه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** ﴾(٣) وقد جئتك بأبي أنت وأمي مثقلاً بالذنوب والخطايا استشفع بك علىٰ الله ربّك أن يغفر لي ذنوبي وأن يشفع فيّ)(٤).

ومنها: ما روي عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ؑ أنه قال: «**قدم علينا أعرابي بعد ما دفنّا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر النبيّ ﷺ**

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) الأذكار النووية / النووي: ص٢٠٦، كذلك في تفسير ابن كثير: ج ١ ص ٥٣٢.

(٣) النساء: ٦٤.

(٤) الدرّ المنثور: ج ١ ص٢٣٨.

وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يارسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾(١) وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر أنه غفر لك»(٢)، إلىٰ غير ذلك من الشواهد.

٥ ـ إن القرآن الكريم قد دلّ علىٰ حياة النبي ﷺ عند ربّه، كما قال تعالىٰ: **﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾**(٣) بل وكذا قوله تعالىٰ: **﴿ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾**(٤) وغيرها من عشرات الآيات الدالّة علىٰ أن النبي ﷺ يرىٰ ويشهد علىٰ جميع أعمال العباد إلىٰ يوم القيامة، فهو حيّ عند ربّه، كيف لا وقد دلّ القرآن علىٰ حياة الشهداء في قوله تعالىٰ: **﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾**(٥)، وقد اتّفقت روايات الفريقين المتواترة أيضاً الدالّة علىٰ حياة النبيّ الأكرم ﷺ، منها ما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام قال: **«إن رسول الله ﷺ قال: حيثما كنتم فصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني»**(٦).

(١) النساء: ٦٤.

(٢) كنز العمال: ج٢ ص٣٨٦، سبل الهدى والرشاد / الصالحي الشامي: ج١٢ ص٣٩٠.

(٣) سورة التوبة ٩: ١٠٥.

(٤) سورة النحل ١٦: ٨٩.

(٥) سورة آل عمران ٣: ١٦٩.

(٦) المعجم الأوسط / الطبراني: ج١ ص١١٧.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون»** قال الهيثمي: رواه أبو يعلىٰ والبزاز ورجال أبي يعلى ثقات(١).

وقد نقل السقّاف في كتابه الاغاثة جملة من الروايات وكلمات علماء السنّة التي ادّعي فيها الاجماع والتواتر والعلم القطعي بحياة النبيّ الأكرم فراجع(٢).

وإذا ثبت ذلك ثبت عموم الآية المباركة بالرجوع إلىٰ النبيّ الأكرم ﷺ والاستغاثة به.

٦ ـ آيات وروايات عرض الأعمال علىٰ الرسول ﷺ، كما في قوله تعالىٰ: **﴿قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**(٣) وهذه الآية متطابقة ومتشاهدة مع آية **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ...﴾**، وأما الروايات في هذا المجال فهي كثيرة جدّاً:

منها: ما عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: **«تعرض الأعمال علىٰ رسول الله ﷺ كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها»**(٤).

ومنها: ما عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **«إن الأعمال تعرض علىٰ نبيكم كلّ عشية خميس، فليستحي أحدكم أن يعرض علىٰ نبيه العمل القبيح»**(٥).

منها: ما ورد عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«حياتي خير لكم**

---

(١) مجمع الزوائد: ج٨ص ٢١١.

(٢) الاغاثة: ص ٥ ـ ٧.

(٣) التوبة: ١٠٥.

(٤) تفسير البرهان: ج ٣ص ٤٨٨.

(٥) تفسير البرهان: ج ٣ص ٤٩٠.

تحدّثون وتحدّث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض عليّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شرّ استغفرت لكم»، قال الهيثمي: رواه البزاز ورجاله رجال الصحيح(١).

وهذه الرواية وغيرها منسجمة المضمون مع الشرط الثالث في الآية التي هي محلّ البحث، حيث جاء فيها ﴿ **وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ** ﴾، فالتائب والمستغفر يتوجّه إلىٰ النبيّ الأكرم ﷺ ويعرض استغفاره عنده لكي يستغفر له الرسول ﷺ ويشفع له عند الله تعالىٰ في قبول توبته، فعبادات الأمة لابدّ أن يشفع النبيّ ﷺ عند ربّه في قبولها، وهو المضمون والغرض والحكمة من عرض الأعمال وأن قبولها مشروط بإمضاء النبيّ ﷺ وشفاعته، فكما أن آيات وروايات عرض الأعمال ذكرت أن سبب العرض هو أن يستغفر النبيّ ﷺ لأمته، كذلك في الآية المباركة إنما يعرض العبد استغفاره في الحضرة النبويّة لكي يستغفر له، وإذا كانت آيات وروايات العرض عامة لحال الحياة وبعد الممات فكذلك الآية المباركة.

وهذا الذي ذكرناه أخيراً هو الشرط الثالث في الآية المباركة وهو استغفار النبيّ ﷺ للمذنب الظالم لنفسه.

٧ـ أن الأحكام في الآيات التي أخذ فيها الحكم مرتبطاً بالرسول ﷺ في الآيات الكثيرة كلّها لا تختص بحياة الرسول ﷺ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾(٢) وقوله تعالىٰ: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا**

---

(١) مجمع الزوائد: ج٩ ص٢٤.

(٢) سورة الممتحنة ٦٠: ٦.

الرَّسُولَ ﴾(١) وقوله تعالىٰ: ﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾(٢) وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾(٣) وغيرها من الآيات، فإنه لو توهم اختصاصها بحياته ﷺ الدنيوية لعُطّل العمل بهذه الآيات، وتقوّضت أركان الدين.

والذي يتحصّل من الآية: أن المجيء إلىٰ النبيّ ﷺ والتوجّه إليه شرط في قبول التوبة، بل كافّة العبادات ومطلق المقامات القربية عند الله تعالىٰ.

كما يستفاد من الآية المباركة أيضاً أن التوسّل والتوجّه أمر تعييني ضروري لابدّ منه، وليس هو أمراً تخييرياً بيد العبد فعله أو تركه.

واتضح أن التوجّه للنبيّ ﷺ في تلك المقامات ليس خاصّاً بالتوجّه الفيزيائي البدني، بل شامل للتوجّه القلبي أيضاً.

ثم إن المجيء إلىٰ النبيّ والتوسّل به بمعنىٰ الارتباط به والإنتماء إليه بكلّ أنحاء الانتماء، كانتماء المواطنة والانتماء الأُسري والوظيفي والتنظيمي، وغيرها من أنحاء الانتماء إلىٰ الرسالة الخاتمة والحاكمية الإلهية المتمثّلة بالنبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

كذلك لابدّ أن يعلم أن الآية الخاصّة في المقام غير مختصّة بالرسول الأعظم ﷺ، بل هي سنّة إلهيّة جارية في النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام فالآية عامة؛ ولذا نصّت علىٰ هذا العموم آية عرض الأعمال، حيث شملت الذين آمنوا وهم أولوا الأمر من أهل بيت النبيّ ﷺ، كما نصّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ

---

(١) سورة النساء ٤: ٥٩.

(٢) سورة الحشر ٥٩: ٧.

(٣) سورة الأنبياء ٢١: ١٠٧.

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[1] إذ هم الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل المجتباة الذين بعث فيهم النبي ﷺ وجعلهم الله شهداء على الناس وأعمالهم وعقائدهم، ويدلّ على العموم أيضاً الآيات المتقدّمة التي نصّت على وجوب المجيء إلىٰ إبراهيم في الحجّ ووجوب الصلاة عند مصلّاه وهويّ القلوب إلى ذرّيته، وسيأتي من الآيات ما يدلّ على العموم أيضاً.

إذن التوجّه إلىٰ النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام في التوبة والعبادة ونيل المقامات شرط ومشارطة إلهية لابدّ من توفّرها لنيل ما يبتغيه العبد.

الدليل السابع: التوسّل بالرسول ﷺ ميثاق الأنبياء

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[2]، فالميثاق المذكور في هذه الآية المباركة معناه أن هناك تعاقداً بين الله تعالىٰ والأنبياء عليهم السلام، والطرفان اللذان وقع عليهم الميثاق والتعاقد هما النبوّة والمقامات الغيبة التي أعطاها الله تعالىٰ للأنبياء في مقابل أمر مهمّ وخطير لابدّ أن يؤمنوا به، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ فالمقامات الإلهية والمنح

---

(١) سورة الحج ٢٢: ٧٨.

(٢) آل عمران: ٨١.

الربّانية إنما تعطىٰ للأنبياء بشرط الإيمان بخاتمهم ونصرته، ولا شك أن الذي يكون ناصراً إنما هو تابع للمنصور والمنصور قائد له، فالأنبياء كلّهم مأمومون والرسول الأكرم إمامهم، والأنبياء سبقوا الناس بالإصطفاء الإلهي الخاصّ وحُبوا بالنبوّة والرسالة والمقامات الغيبيّة بتوسّط إيمانهم بولاية النبيّ ﷺ وتعهّدهم بنصرته ومؤازرته، وهم أسبق الناس شيعة وإسلاماً لخاتم الأنبياء ﷺ.

الأنبياء علىٰ دين النبي الأكرم ﷺ:

ومن ثمّ فإن هذه الآية المباركة تدلّل علىٰ أن دين الأنبياء بعد الايمان بالله عزّ وجلّ هو الإيمان بخاتم الأنبياء ومشايعته ومؤازرته، فالأنبياء كانوا علىٰ دين النبيّ محمّد ﷺ وهو الإسلام، بيان ذلك:

إن قوله تعالىٰ في الآية المباركة ﴿ **مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ** ﴾ معناه أن النبيّ الأكرم ﷺ ليس تابعاً للأنبياء، بل تابع للوحي الإلهي جملة، الذي هو فعل الله تعالىٰ؛ ولذا لم يأمر الله عزّ وجلّ نبيّه الأكرم ﷺ بالاقتداء بالأنبياء وإنما بالهدىٰ الذي هم عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾[١].

فالنبيّ الأكرم ﷺ ليس على هدىٰ نبيّ من الأنبياء وليس هو تابعاً لأحد من الرسل، بل هو علىٰ هدىٰ الله عزّ وجلّ، وهو أوّل المسلمين، والفاتح الأول للهدىٰ الإلهي والدين الاسلامي الواحد هو خاتم الأنبياء، ولم يُعبَّر عن نبيّ من الأنبياء في القرآن الكريم بأنه أوّل المسليمن علىٰ الاطلاق سوىٰ النبيّ

---

(١) الأنعام: ٩٠.

محمّد ﷺ، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾(١) وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٢) وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٣)، وأما سائر الأنبياء فقد عُبّر عنهم في القرآن الكريم بأنهم من المسلمين، بما فيهم أنبياء أولي العزم، فقد حكى الله عزّ وجلّ على لسان نوح قوله:

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٤) ولم يُعبّر عنه بأنه أوّل المسلمين، ولا شك أن الدين عند الله عزّ وجلّ واحد، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾(٥)، ولا يتقبّل من مخلوق من المخلوقات غير الاسلام، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾(٦)، فالنبيّ الأكرم ﷺ أوّل المسلمين وأوّل من نطق بميثاق التوحيد والتسليم لله عزّ وجلّ، فكان هو أفضل الأنبياء وهو الإمام المتبوع وهم المأمومون التابعون له في الدين الاسلامي، فضلاً عن غيرهم من المخلوقين، ولذا ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «**أن بعض قريش قال لرسول الله ﷺ:**

(١) الأنعام: ١٤.
(٢) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣
(٣) الزمر: ١١ ـ ١٢.
(٤) يونس: ٧٢.
(٥) آل عمران: ١٩.
(٦) آل عمران: ٨٥.

بأي شيء سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ قال: إني كنت أوّل من آمن بربّي وأوّل من أجاب حين أخذ الله ميثاق النبيين ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ فكنت أنا أوّل نبيّ قال بلى، فسبقتهم بالإقرار بالله»(١).

وفي الحديث أيضاً عن النبيّ الأكرم ﷺ في حديثه لأصحابه قال: «**فأخذ لي العهد والميثاق على جميع النبيين، وهو قوله الذي أكرمني به جلّ من قائل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٢) وقد علمتهم أن الميثاق أخذ لي على جميع النبيّين، وأنا الرسول الذي ختم الله بي الرسل، وهو قوله تعالى: ﴿ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾(٣) فكنت والله قبلهم وبعثت بعدهم وأعطيت ما أعطوا وزادني ربّي من فضله ما لم يعطه لأحد من خلقه غيري، فمن ذلك إنه أخذ لي الميثاق على سائر النبيّين ولم يأخذ ميثاقي لأحد، ومن ذلك ما نبّأ نبيّاً ولا أرسل رسولاً إلّا أمره بالإقرار بي وأن يبشّر أمته بمبعثي ورسالتي»(٤).**

اذن فالدين دين محمّد ﷺ وهو فاتح ذلك الصرح العظيم، وإن كانت الفطرة والملّة ملّة إبراهيم ؑ وهي غير الدين، وكذلك للأنبياء شرائع ومناهج مختلفة وهي غير الدين أيضاً، وإنما هي تفصيلات وتنزّلات كلّيات ذلك الدين الحنيف وهو الإسلام، ولذا جاء في دعاء التوجّه في الصلاة:

---

(١) الكافي: ج ١ ص ٤٤١.
(٢) سورة آل عمران ٣: ٨١.
(٣) الأحزاب: ٤٠.
(٤) الهداية الكبرى / الحسين بن حمدان الخصيبي: ص ٣٨٠.

«وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً على ملّة إبراهيم ودين محمّد ﷺ وهدي علي أمير المؤمنين عليه السلام وما أنا من المشركين»(١).

إذن الإسلام دين النبيّ والأنبياء على دينه ومن شيعته، ولذا فُسّر قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(٢) بالنبيّ الأكرم ﷺ وأن إبراهيم من شيعته وعلىٰ دينه الحنيف، حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **«قوله عزّوجلّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي إن إبراهيم عليه السلام من شيعة النبيّ ﷺ»**(٣) وقد اختار هذا القول الكلبي وابن السائب والفرّاء(٤).

فالنبيّ الأكرم ﷺ ليس تابعاً للأنبياء بل على العكس، فهو على الهدىٰ الذي هو هدى الله تعالىٰ، ومصدّق لما مع الأنبياء، أي شاهد علىٰ ما هم عليه من دينه الحنيف وبإمضائه يُصدّق ما هم عليه، أما الأنبياء فهم يؤمنون بخاتم الأنبياء ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ لا أنهم يؤمنون بما معه، فإيمانهم بذات النبيّ ﷺ، فهو ﷺ شاهد مطّلع مصدّق على ما عندهم، وأما هم فيؤمنون به، وهذا يعني أنه لا يوجد في مقامات الأنبياء ودرجاتهم عند الله تعالىٰ ما هو غيب عن النبيّ ﷺ، وأما الذي يؤمن بذات النبيّ ﷺ وهم سائر الأنبياء عليهم السلام فهو يؤمن بأمر غيبيّ، فمقام النبيّ ﷺ بالنسبة إلىٰ باقي الأنبياء غيب الغيوب، وأما مقامات سائر الأنبياء فالنبيّ الأكرم ﷺ مطّلع عليها ويعلمها ويشهد لهم على صدقها، والأنبياء في أصل نيلهم لمقام النبوّة إنما استأهلوه بعد أن آمنوا بخاتم الأنبياء قبل سائر

---

(١) الاحتجاج / الطبرسي: ج٢ ص٣٠٧.

(٢) الصافات: ٨٣.

(٣) البرهان في تفسير القرآن / هاشم البحراني: ج٦ ص٤١٩.

(٤) تفسير القرطبي: ج١٥ ص٩١.

الأرواح في عالم الأرواح وشرطوا على أنفسهم نصرته، ولذا فإن النبيّ ﷺ شفيع الكلّ، والأنبياء لم ينالوا ما نالوا إلّا بالديانة لخاتم الأنبياء، فهو الشفيع لقبول الأعمال، وهو باب رحمة الله العامّة ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾(١).

ومن ذلك كلّه يتّضح أن هذه الآية المباركة نصّ في المقام الثالث، وأن التوجّه إلى الله لنيل أي مقام أو قربى أو زلفى لا يتمّ إلّا بالتوسل بالنبيّ ﷺ والتشفّع به، وبالتشفّع به يعطى للعبد أعظم الأرزاق وهو النبوّة والكتاب والحكمة، فكيف بك بسائر الأرزاق الأخرى، التي لا تقاس بمقامات الأنبياء.

ثم إن الآية الكريمة رسمت خطورة الأمر في ضمن تأكيدات مغلّظة، حيث جاء فيها قوله تعالى: ﴿ **أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي** ﴾ وبعد أن تم الإقرار والمعاهدة والمعاقدة المشدّدة أشهدهم الله تعالى على ذلك، حيث قال: ﴿ **فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾(٢)، وهذا يعني أن للتوسل والتوجّه دوراً مهمّاً ومحورية رئيسية في رسم معالم الدين.

وإنكار التوسّل في المسائل الدنيوية غير الخطيرة ليس إلّا تعظيماً لصغائر الأمور وتصغيراً لما عظّمه الله عزّ وجلّ، فإن الإيمان بكون الأنبياء لم يستحقّوا ما استحقّوه إلّا بتوسلهم بالإيمان بالنبيّ ﷺ، وإنكار التوسّل في بعض الأمور الدنيويّة والحاجات المعاشية ليس له معنى إلّا الاستهانة بتلك المقامات الشامخة وتعظيم وتهويل ما ليس حقّه ذلك.

---

(١) سورة الأنبياء ٢١: ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران ٣: ٨١.

أهل البيت عليهم السلام شركاء النبيّ صلى الله عليه وآله في الميثاق:

ثمّ إن أهل البيت عليهم السلام يشتركون مع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في دائرة الميثاق والدين الحنيف، الذي أخذ علىٰ الأنبياء الإيمان به ونصرته والدعوة إليه، وإن كان أهل البيت عليهم السلام تابعين للنبيّ صلى الله عليه وآله وهم يتوجّهون به إلىٰ الله تعالىٰ، وبشفاعته يكونون معه صلى الله عليه وآله في مقامه، وهو مقام الشفاعة الكبرىٰ والوسيلة العظمىٰ.

ويدلّ علىٰ اشتراك أهل البيت عليهم السلام مع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في دائرة الميثاق الذي أخذ علىٰ الأنبياء وجوه عديدة، وإليك بعضها:

١ - إن نصرة الأنبياء للرسول صلى الله عليه وآله لم تتحقّق إلىٰ يومنا الحاضر، وهي إنما تتحقّق بالنصرة لأهل بيته عند ظهور المهدي من آل محمّد، وعند رجعة الأئمة عليهم السلام، كما نصّت علىٰ ذلك الروايات المتضافرة، حيث جاء فيها أن عيسىٰ عليه السلام وإدريس وغيرهما من الأنبياء سوف يقاتلون بين يدي الإمام المهدي عليه السلام عند قيامه بدولة الحقّ والعدل، هذا من طرق الفريقين، وأما من طرقنا فقد دلّت الروايات المتضافرة أيضاً علىٰ أن جميع الأنبياء والمرسلين سوف يقاتلون مع الأئمة عليهم السلام عند رجوعهم وكرّتهم في دولتهم العالمية المباركة.

بل إن بعض الأنبياء كإلياس والخضر عليهما السلام علىٰ القول بنبوّة الخضر عليه السلام الآن هم وزراء في حكومة الإمام المهدي عليه السلام الخفيّة، وهي حكومة خليفة الله في أرضه، التي لا يمكن أن تفتقدها البشرية في لحظة من اللحظات، وإلّا لساخت الأرض بأهلها.

ونشير فيما يلي إلىٰ بعض تلك الروايات التي وردت في هذا المجال:

منها: طوائف الروايات التي دلّت على أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ينزل لنصرة المهدي عليه السلام، وإليك فيما يلي هذه الرواية، ننقلها بطولها لارتباطها بالبحث الذي نحن فيه، قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: **«أتى يهودي النبيّ صلى الله عليه وآله، فقام بين يديه يحدّ النظر إليه، فقال: يايهودي ما حاجتك؟ قال: أنت أفضل أم موسى بن عمران النبيّ الذي كلّمه الله، وأنزل عليه التوراة والعصا وفلق له البحر وأظلّه بالغمام؟**

فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: إنه يكره للعبد أن يزكّي نفسه، ولكنّي أقول: إن آدم عليه السلام لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: اللّهم إني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لما غفرت لي فغفرها الله له، وإن نوحاً عليه السلام لما ركب في السفينة وخاف الغرق، قال: اللّهم إني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لما نجّيتني من الغرق، فنجّاه الله منه، وإن إبراهيم عليه السلام: لما ألقي في النار قال: اللّهم إني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لما نجّيتني منها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وإن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه أوجس في نفسه خيفة، قال اللّهم إني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد لما آمنتني منها، فقال الله جلّ جلاله: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾[١] **يايهودي: إن موسى لو أدركني ثم لم يؤمن بي وبنبوّتي ما نفعه إيمانه شيئاً ولا نفعته نبوّته.**

يايهودي ومن ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسى بن مريم لنصرته، فقدّمه وصلّى خلفه»[٢].

---

(١) طه: ٦٨.

(٢) الأمالي / الصدوق: ص٢٨٨، روضة الواعظين / النيسابوري: ص٢٧٢.

وفي حديث آخر: «**فيلتفت المهدي فينظر عيسى عليه السلام فيقول لعيسى: يابن البتول صلّ بالناس، فيقول: لك أقيمت الصلاة، فيتقدّم المهدي فيصلّي بالناس ويصلّي عيسى خلفه ويبايعه**»(١).

ولا شك أن المبايعة لأجل نصرته عليه السلام لإقامة دولة الحقّ، بقرينة تتمّة الرواية حيث ورد فيها أن المسيح عيسىٰ بن مريم عليه السلام بعد المبايعة يكون من وزراء المهدي عليه السلام ويخرج لقتال الدجال.

ومنها: الروايات التي دلّت على أن نصرة الأنبياء للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إنما تحصل بالنصرة لوصيّه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام والقتال بين يديه عند الكرّة والرجعة في دولة الحقّ، وذلك نظير ما أخرجه سعد بن عبدالله القمي عن فيض بن أبي شيبة، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول، وتلا هذه الآية: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ** ﴾: «**لتؤمننّ برسول الله صلى الله عليه وآله ولتنصرنّ علياً أمير المؤمنين عليه السلام. قال: نعم والله من لدن آدم وهلمّ جراً، فلم يبعث الله نبياً ولا رسولاً إلّا ردّ جميعهم إلى الدنيا حتّى يقاتلوا بين يدي عليّ بن أبي طالب عليه السلام**»(٢).

ومن الواضح أن نصرة أمير المؤمنين عليه السلام نصرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وللدين الذي جاء به.

وحاصل هذه النقطة: هو اشتراك أهل البيت عليهم السلام مع النبيّ صلى الله عليه وآله في الميثاق الذي أخذ علىٰ الأنبياء، إذ أن إيفاءهم بالعهد إنما يكون بنصرتهم لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله.

---

(١) عقد الدرر / الشافعي: ص٢٧٥.

(٢) مختصر بصائر الدرجات / الحسن بن سليمان الحلّي: ص٢٥.

٢ ـ مرّ بنا أن الدين عند الله الإسلام وهو واحد لا تعدّد فيه، وأن جميع المخلوقات بما فيهم سائر الأنبياء عجزوا عن تحمّل الدين والسبق في فتح سبله وبلوغ مقاماته الرفيعة، سوىٰ الذات النبويّة المباركة التي لها الأهلية والاستعداد لتلقّي ذلك عن الله عزّ وجلّ، فكان للنبيّ ﷺ الأسبقية في الإسلام والتسليم لله تعالىٰ؛ ولذا كان الدين دين محمّد ﷺ، إذن دين الإسلام الواحد عبارة عن تلك المقامات السامية والنور الأعظم الذي لم يتحمّله مخلوق عن الله تعالىٰ سوىٰ خاتم الرسل ﷺ، فأسكن الله عزّ وجلّ ذلك النور في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وكان بدن النبيّ الأكرم مسكناً لذلك النور، لأنه أوّل من قال بلىٰ عندما قال الله تعالىٰ للبشر: ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** ﴾.

ومن هنا يتّضح أن الميثاق والعهد الذي أخذه الله علىٰ أنبيائه هو الإيمان بذات الرسول ﷺ، والإيمان بمقامه ﷺ هو الدين الذي بعث به جميع الأنبياء، وهو بدرجاته العالية غيب الله وسره المكنون الذي أمر الأنبياء بالإيمان به والتسليم له، وكان نيل مقامات النبوّة علىٰ قدر درجة التسليم لذلك الدين، وقد مدح الله تعالىٰ أنبياءه لكونهم مسلمين، قال عزّ وجلّ: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾[1]، وقد أمر الله تعالىٰ أنبياءه باتخاذ الاسلام ديناً، كما في قوله لإبراهيم: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[2].

إذن الدين الواحد هو الميثاق الذي أخذ علىٰ جميع الأنبياء التسليم له

---

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) البقرة: ١٣١.

والإيمان به ونصرته، وهو دين النبيّ الأكرم ﷺ المتمثّل برسالته ووساطته بين الله وخلقه، فهو دين الله الناطق.

وإذا كان الأمر كذلك فكلّ ما هو داخل في دائرة الدين يكون من الميثاق الذي أخذ علىٰ الأنبياء الإيمان به ونصرته والتسليم له، ومن الدين ولاية أهل البيت عليهم السلام بنصّ القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ **الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾[1] حيث نصّت روايات الفريقين علىٰ أن هذا المقطع من الآية المباركة نزل عند تنصيب الله عزّ وجلّ أمير المؤمنين عليه السلام لمقام الخلافة والإمامة بعد رسول الله ﷺ وذلك في واقعة الغدير[2].

إذن الولاية والخلافة بعد رسول الله ﷺ من الدين الذي بعث به جميع الأنبياء، وقد أُكمل بتنصيب أمير المؤمنين عليه السلام بعد حجّة الوداع مضافاً إلىٰ أن جملة الآيات والأدلّة القائمة علىٰ إمامة أهل البيت عليهم السلام دالّة علىٰ أن إمامتهم وولايتهم من أصول الدين تتلو أصل النبوّة، سيما وأن الأنبياء مخاطبون بآيات الولاية والقربىٰ والمودّة عند رجوعهم للنصرة، فهم مأمورون بطاعة أولي الأمر والمودّة للقربىٰ والتوجّه بهم إلىٰ الله تعالىٰ.

والحاصل: إنه لم يبعث نبيّ من الأنبياء إلّا بعد أن آمن وسلّم بالدين الذي هو ولاية النبيّ ﷺ وأهل بيته، فالولاية دين الله الذي بتسليمه استحقّ الأنبياء مقام النبوّة كلّ بحسب ما بلغه من درجة التسليم، فإن للولاية والتسليم درجات

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) لاحظ كتاب الغدير للأميني وشرح إحقاق الحق، حيث تتبعا الروايات في هذا المجال.

وبحسب درجة التسليم لكلّ نبيّ يعطىٰ ذلك النبيّ مقام الحظوة عند الله تعالىٰ ويستحقّ مقام النبوّة، وإذا ازدادت درجة التسليم كان ذلك النبيّ من أولي العزم، فتفضيل الأنبياء الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ** ﴾[1]، كذلك تفضيل الرسل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾[2]، كلّ ذلك التفضيل بحسب درجة التسليم والتولّي لدين الله عزّ وجلّ، وذلك بالولاية للنبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته، فالتسليم للنبيّ وأهل بيته والإيمان بولايتهم نوع توجّه قلبي إلىٰ الله عزّ وجلّ بهم، وهو شرط لنيل المقامات العظيمة عند الله تعالىٰ كالنبوّة والرسالة، فضلاً عن غيرها من العبادات وقبول التوبة واستدرار الأرزاق الإلهيّة.

٣ـ لقد بيّن الله عزّ وجلّ حقيقة الميثاق الذي أخذه علىٰ الأنبياء وكيفية إقرارهم وإيمانهم به وثباتهم عليه، كما في قصة آدم عليه السلام، حيث جاء فيها أن الأمانة والميثاق الذي أقرّ به آدم وتحمّله لنيل منصب الخلافة الإلهية عبارة عن الأسماء الحيّة العاقلة الشاعرة، التي علّمها الله عزّ وجلّ آدم وليست هي من السماوات والأرض، بل هي ملكوتها وباطنها ومحيطة بها ومهيمنة عليها، والأسماء هم الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، كما تقدّم في الأبحاث السابقة كما نصّت عليه روايات الفريقين، وعليه فيكون الميثاق الذي تحمّله آدم وآمن به ونال بواسطته مقام الخلافة هو الولاية للنبيّ الأكرم ﷺ وأهل البيت عليهم السلام.

---

(١) الإسراء: ٥٥.
(٢) البقرة: ٢٥٣.

كذلك الحال في الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام، فلما أتمّهن نال مقام الإمامة، فهذه الكلمات هي ميثاق إبراهيم عليه السلام لما أتمّها وآمن بها وأسلم بواسطتها لله ربّ العالمين استحقّ مقام الإمامة الإلهية، وسبق أيضاً أن تلك الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم وكان إتمامها سبباً لنيل المقامات العالية هم محمّد صلى الله عليه وآله وآله الطاهرين عليهم السلام.

إذن الميثاق عبارة عن أمتحان وابتلاء لنيل المقامات الرفيعة كالنبوّة والإمامة، والميثاق هو ولاية أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

نعم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أعلى مقاماً من أهل بيته عليهم السلام وهم يتوجّهون بالنبيّ صلى الله عليه وآله إلىٰ الله عزّ وجلّ وبشفاعته ينالون درجة مقامه عند الله.

٤ ـ إن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام ذكرت تلو ولاية النبيّ الأكرم في جملة من آيات الطاعة والولاية، التي تقدم ذكرها، مما يدلّل علىٰ أن ولاية المعصومين عليهم السلام من الدين الذي بعث به الأنبياء، إذ الدين دائرته موحّدة بين الأنبياء، والذي هو عبارة عن أصول العقائد وأصول الواجبات والمحرّمات، التي هي أركان الفروع كأصل وجوب الصلاة والحجّ والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه كلّها من دائرة الدين لا الشريعة المختلفة من نبيّ إلىٰ آخر، وولاية أمير المؤمنين عليه السلام من الدين الذي بعث به جميع الأنبياء والرسل.

كذلك من الآيات التي قرنت الرسول الأكرم بأهل بيته عليهم السلام آيات الفيء والخمس، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾(١) فإن الآية المباركة

(١) الأنفال: ٤١.

تبيّن أن أولياء الخمس الذين لهم الولاية علىٰ اقتصاد الدولة الإسلامية هم الله تعالىٰ ورسوله وذوي القربىٰ، بقرينة الاشتراك بـ(اللام) الدالّة علىٰ ملكية التصرف في أموال الدولة الإسلامية، وأما اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل فهم موارد مصرف الخمس؛ ولذا تغيّر التعبير فيهم بحذف اللام.

كذلك بنفس البيان ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ** ﴾(١)، فلإقامة العدالة المالية والاقتصادية علىٰ الأرض لابدّ أن تدار الأموال العامة التي ترجع إلىٰ بلاد الإسلام بولاية الله ورسوله وذوي القربىٰ، وهم قربى الرسول الأكرم الذين جعلت مودّتهم أجراً وعدلاً لما جاء به النبيّ الأكرم من الدين الحنيف، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾(٢).

وهذا يكشف عن أهميّة تولّي ذوي القربىٰ وأن ولايتهم مفتاح لسائر أبواب الدين ومن دون التوسّل بها يخطأ الشخص ويضلّ طريق التوحيد، فيقع في مثل الجبر أو التفويض أو غير ذلك، فلابدّ من الولوج إلىٰ الدين عن الطريق والباب الذي نصبه الله عزّ وجلّ لخلقه، ولا يمكن الوقوف علىٰ حقيقة الدين إلّا بالإمامة.

فمودّة ذوي القربىٰ أمر عظيم إذا سَلِم سَلِمت بقيّة أصول الدين، ولا يوجد قربىٰ للنبيّ الأكرم ﷺ بهذا الشأن الخطير سوىٰ المعصومين من أهل بيته،

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) الشورى: ٢٣.

فولايتهم عاصمة عن الضلال وهي ركن ركين في الدين الذي بعث به الأنبياء كافّة.

ولا شك أن الدين عام ـ كما ستأتي الإشارة إلىٰ ذلك ـ لا يستثنىٰ منه أحد في جميع النشآت بنحو الأبد وعدم الانقطاع، ومن ثمّ يكون وجوب الطاعة والولاية مكلّف به جميع المخلوقات بنحو من التأبيد والخلود، فخلافة وولاية أولي الأمر ووجوب طاعتهم لا تختصّ بالجنّ أو الإنس ولا بالأمور السياسية الدنيوية وليس لأمدها حدّ ولا انقطاع.

وهناك أيضاً آيات أخرىٰ ستأتي لاحقاً قرنت بين النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته، مما يكشف عن أن مقامات الأنبياء ونيل الحظوة الإلهية لا يتم إلّا بالتوسل والتوجّه بهم إلىٰ الله تعالىٰ، وأن توليهم واسطة للفيض الإلهي، ولولاهم لما بعث الأنبياء والمرسلون، فهم الوسيلة إلىٰ الله تعالىٰ في عظائم الأمور، فكيف بالقضايا الأخرىٰ التي هي أقلّ شأناً مما يرتبط بالأمور الحياتية والمعيشية للناس؟!

وهذا كلّه يصلح بياناً بذاته لتبعية الأنبياء جميعاً لخاتم الأنبياء وأهل بيته عليهم السلام مع سبقهم الزمني عليهم.

بيان آخر لتوسل الأنبياء بالرسول الأكرم وأهل بيته في نيل المقامات:

النبي وأهل بيته قدوة للأنبياء:

مما يشير إلىٰ كون النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام قدوة لجميع الأنبياء والمرسلين حتّىٰ أولي العزم منهم، وبالتالي اتّباعهم للنبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وسيلة

لبلوغهم إلىٰ المقامات العالية من النبوّة والرسالة والخلّة والإمامة وغيرها، مع أن النبيّ وأهل بيته متأخرين عنهم من حيث الزمان في النشأة الأرضية، هو ما دلّت عليه جملة من الآيات والروايات من أن الله تعالىٰ أنبأ آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من الأنبياء والرسل بالأحوال والحوادث التي تجري على خاتم الأنبياء ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، من المحن والمصائب والابتلاءات والامتحانات والشدائد وكيفية ثباتهم عليهم السلام فيها وصبرهم ورضاهم وتسليمهم بقضاء الله وقدره وتنمّرهم في ذات الله، وأطلعهم على الكمالات والمقامات الرفيعة التي يكونون عليها، مع عظيم ابتلائهم بتلك الشدائد.

وهذا ما يوجب تربية روحية عالية لهم ليتحلّوا بالكمالات عند مواجهتهم للشدائد والفتن والمحن وبالتالي نيل المقامات التي حظوا بها عند الله تعالىٰ.

وكان فيما أوحىٰ الله عزّ وجلّ لهم عن أحوال النبيّ وأهل بيته بأنماط متعدّدة من الوحي، أي من الوحي الصوري نظير الرؤيا أو الوحي بالإلهام والمعنىٰ وغيرها من أنماط الوحي.

فكانت سيرة النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام تمثالاً منصوباً وشعاراً مرفوعاً لهم يحتذون ويقتدون به، ماثل أمام أعينهم طيلة مسيرة أيام نبوّتهم ورسالتهم.

وهذا أحد معاني اقتداء الأنبياء والمرسلين بالنبيّ وأهل بيته.

أما الآيات التي تشير إلىٰ هذا المعنىٰ فهي عديدة نشير إلىٰ جانب منها:

١ ـ ما تقدّم من قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ** ﴾[1] فإنها دالّة

---

(١) آل عمران: ٨١.

علىٰ أن الله عزّ وجلّ أخبرهم عن خاتم الأنبياء ومقاماته وأن الدين دينه وهو فاتح حصونه، ثم بعد ذلك أمرهم بالتسليم له والإيمان به ونصرته.

٢ـ قوله تعالىٰ علىٰ لسان عيسىٰ عليه السلام: ﴿ **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾(١).

٣ـ قوله تعالىٰ في يهود المدينة، قُبيل ولادة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾(٢)، فقد نقل المفسّرون في ذيل هذه الآية المباركة أن اليهود من أهل المدينة وخيبر كانوا إذا قاتلوا من يليهم من مشركي العرب من الأوس والخزرج يستنصرون بالنبيّ صلى الله عليه وآله عليهم ويستفتحون به، لما يجدون من ذكره وصفاته وشمائله ومحلّ ولادته في التوراة، وكانوا يدعون ويتوسلون بحقّه للنصرة عليهم، حيث يقولون: (اللّهم إنّا نستنصرك بحقّ النبيّ الأميّ إلّا نصرتنا عليهم).

وعن ابن عباس قال: (كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلّما التقوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء: اللّهم إنا نسألك بحقّ محمّد النبيّ الأميّ الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلّا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وآله كفروا به، فأنزل الله وقد كانوا يستفتحون بك يامحمّد علىٰ الكافرين)(٣).

٤ـ قوله تعالىٰ في اليهود والنصارىٰ الذين آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ**

---

(١) الصف: ٦.

(٢) البقرة: ٨٩.

(٣) تفسير الطبري: ج١ ص٣٢٤، تفسير القرطبي: ج٢ ص٢٧.

الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

٥ ـ قوله تعالىٰ في معرفة أهل الكتاب بصفات وشمائل النبيّ ﷺ: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**(٢).

إن هذه الأربع آيات الأخيرة صريحة في إخبار الأنبياء عليهم السلام أممهم بأحوال خاتم الأنبياء ﷺ وسيرته، وهذا يكشف عن أن الله تعالىٰ أطلع أنبياءه علىٰ سيرة النبيّ الأعظم وما يجري عليه من المحن والشدائد.

٦ ـ قوله تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم في دعائه لذريّته:

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾(٣) فهي دالّة علىٰ أن إبراهيم كان مطّلعاً علىٰ سيرة ذرّيته الطاهرة، ودعا الله عزّ وجلّ بمودّة الناس لهم وهويّ القلوب إليهم.

هذا بالنسبة إلىٰ الآيات المباركة، وهي دالّة على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا علىٰ اطّلاع بالنبيّ الأكرم وأهل بيته الطاهرين وما يجري عليهم من البلايا.

أما الروايات في هذا المجال فهي كثيرة جدّاً نشير إلىٰ شطر منها علىٰ سبيل الاختصار:

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) البقرة: ١٤٦.

(٣) إبراهيم: ٣٧.

١ ـ ما أخرجه القندوزي الحنفي في الينابيع ، عن رسول الله ﷺ قال: «**ياعباد الله إن آدم عليه السلام لما رأى النور ساطعاً من صلبه، إذ كان الله تعالى نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره، رأى النور ولم يتبيّن الأشباح، فقال: ياربّ ما هذه الأنوار؟ قال: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع العرش إلى ظهرك، ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك، إذ كنت وعاءً لتلك الأشباح، فقال آدم عليه السلام: ياربّ لو بيّنتها لي.**

فقال الله عزّوجلّ: انظر ياآدم إلى ذروة العرش.

فنظر آدم عليه السلام ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم عليه السلام إلى ذروة العرش، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره كما ينطبع وجه الانسان في المرآة الصافية، فرأى أشباحنا.

فقال: ما هذه الأشباح ياربّ؟

قال الله تعالى: ياآدم هذه الأشباح أشباح أفضل خلائقي وبريّاتي، هذا محمّد وأنا المحمود في أفعالي، شققت له اسماً من اسمي، وهذا علي وأنا العليّ العظيم شققت له اسماً من اسمي، وهذه فاطمة وأنا فاطر السماوات والأرض، فاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل القضاء، وفاطم أوليائي مما يبيرهم ويشينهم، شققت لها اسماً من اسمي، وهذا الحسن وهذا الحسين وأنا المحسن المجمل ومنّي الاحسان، شققت اسميهما من اسمي.

وهؤلاء خيار خلقي وكرائم بريّتي، بهم آخذ وبهم أعطي، وبهم أعاقب وبهم أثيب، فتوسل بهم إليّ ياآدم، وإذا دهتك داهية فاجعلهم إليّ شفعائك فإني آليت

على نفسي قسماً حقاً لا أُخيّب لهم آملاً ولا أردّ لهم سائلاً»(١).

فهذه الرواية صريحة في أن الله تعالىٰ أطلع خليفته ونبيّه آدم علىٰ حقائق أهل البيت عليهم السلام، ليكونوا له قدوة يقتدي بهم وشفعاء يتوسل بهم إلىٰ الله تعالىٰ.

٢ ـ روي: أن آدم عليه السلام لما هبط إلىٰ الأرض لم يرَ حواء، فصار يطوف الأرض في طلبها، فمرّ بكربلاء فاغتمّ وضاق صدره من غير سبب، وعثر في الموضع الذي قُتل فيه الحسين عليه السلام حتى سال الدمّ من رجله، فرفع رأسه إلىٰ السماء وقال: إلهي هل حدث منّي ذنب آخر فعاقبتني به؟ فإني طفت جميع الأرض وما أصابني سوء مثل ما أصابني في هذه الأرض.

فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه ياآدم ما حدث منك ذنب، ولكن يقتل في هذه الأرض ولدك الحسين ظلماً، فسال دمك موافقة لدمه(٢).

٣ ـ ما أخرجه المجلسي في البحار عن صاحب الدرّ الثمين في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ فَتَلَقَّىٰ ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾(٣): (أنه رأىٰ ساق العرش وأسماء النبيّ والأئمة عليهم السلام، فلقّنه جبرئيل، قل: ياحميد بحقّ محمّد، ياعالي بحقّ عليّ يافاطر بحقّ فاطمة، يامحسن بحقّ الحسن والحسين ومنك الإحسان.

فلمّا ذكر الحسين سالت دموعه وانخشع قلبه، وقال: ياأخي جبرئيل في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي؟ قال: جبرئيل: ولدك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب، فقال: ياأخي وما هي؟ قال: يقتل عطشاناً غريباً وحيداً

---

(١) ينابيع المودّة لذوي القربى / القندوزي الحنفي: ج ١ ص ٢٨٩.
(٢) بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢٤٢.
(٣) البقرة: ٣٧.

فريداً ليس له ناصر ولا معين)(١).

٤ـ ما أخرجه الصدوق عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، قال: **«لما أمر الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه تمنّى إبراهيم عليه السلام أن يكون يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام بيده، وأنه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه؛ ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعزّ ولده بيده فيستحقّ بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، فأوحى الله عزّوجلّ إليه: ياإبراهيم من أحبّ خلقي إليك؟ فقال: ياربّ ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ من حبيبك محمّد صلى الله عليه وآله، فأوحى الله عزّوجلّ إليه: ياإبراهيم أفهو أحبّ إليك أو نفسك؟ قال: بل هو أحبّ إليّ من نفسي، قال: فولده أحبّ إليك أو ولدك؟ قال: بل ولده، قال: فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك في طاعتي؟ قال: ياربّ بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي، قال: ياإبراهيم فإن طائفة تزعم إنها من أمة محمّد صلى الله عليه وآله ستقتل الحسين عليه السلام إبنه من بعده ظلماً وعدواناً كما يذبح الكبش، فيستوجبون بذلك سخطي، فجزع إبراهيم عليه السلام لذلك وتوجّع قلبه وأقبل يبكي، فأوحى الله عزّوجلّ إليه: ياإبراهيم قد فديت جزعك على إبنك إسماعيل لو ذبحته بيدك بجزعك على الحسين عليه السلام وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب»**(٢).

٥ـ ما أخرجه ابن قولويه في كامل الزيارات عن أبي عبدالله عليه السلام قال: **«إن إسماعيل الذي قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ**

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤ ص٢٤٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام / الصدوق: ج٢ ص١٨٨ ب١٧ ح١.

صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴾[(١)] **لم يكن إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام، بل كان نبيّاً من الأنبياء بعثه الله إلى قومه، فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه، فأتاه ملك عن الله تبارك وتعالى فقال: إن الله بعثني إليك فمرني بما شئت، فقال: لي أسوة بما يصنع بالحسين عليه السلام»**[(٢)].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام قال: **«ذاك إسماعيل بن حزقيل النبيّ عليه السلام، بعثه الله إلى قومه فكذّبوه فقتلوه وسلخوا وجهه، فغضب الله له عليهم فوجّه إليه اسطاطائيل ملك العذاب، فقال له: ياإسماعيل: أنا اسطاطائيل ملك العذاب، وجّهني إليك ربّ العزّة لأعذّب قومك بأنواع العذاب إن شئت، فقال له إسماعيل: لا حاجة لي في ذلك، فأوحى الله إليه فما حاجتك ياإسماعيل؟ فقال: ياربّ إنك أخذت الميثاق لنفسك بالربوبية ولمحمّد صلى الله عليه وآله بالنبوّة ولأوصيائه بالولاية، وأخبرت خير خلقك بما تفعل أمته بالحسين بن عليّ عليه السلام من بعد نبيّها، وأنك وعدت الحسين عليه السلام أن تكرّهُ إلى الدنيا حتى ينتقم بنفسه ممن فعل ذلك به، فحاجتي إليك ياربّي أن تكرّني إلى الدنيا حتّى أنتقم ممن فعل ذلك بي، كما تكرّ الحسين عليه السلام، فوعد الله إسماعيل بن حزقيل ذلك، فهو يكرّ مع الحسين عليه السلام»**[(٣)].

٦ ـ عن سعد بن عبدالله القمي في سؤاله للإمام المهدي عليه السلام في محضر الإمام الحسن العسكري عليه السلام، حيث قال: فأخبرني يابن رسول الله عن تأويل **﴿ كهيعص ﴾**؟ قال عليه السلام: **«هذه الحروف من أنباء الغيب، أطلع الله عليها عبده زكريا، ثم قصّها على محمّد صلى الله عليه وآله، وذلك إن زكريا سأل ربّه أن يعلّمه أسماء**

---

(١) مريم: ٥٤.

(٢) كامل الزيارات / جعفر بن محمد بن قولويه: ص١٣٧.

(٣) المصدر السابق: ص١٣٨ ـ ١٣٩.

الخمسة، فأهبط عليه جبرئيل فعلّمه إياها، فكان زكريا إذا ذكر محمّداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين، سرى عنه همّه، وانجلى كربه، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة، ووقعت عليه البهرة[1]**، فقال ذات يوم: ياإلهي ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم تسلّيت بأسمائهم من همومي، وإذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه الله تعالى عن قصّته»** إلىٰ أن قال: **«فلما سمع ذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ومنع فيها الناس من الدخول عليه، وأقبل على البكاء والنحيب، وكانت ندبته: إلهي أتفجع خير خلقك بولده؟**

إلهي أتنزل بلوى هذه الرزية بفنائه؟ إلهي أتلبس علياً وفاطمة ثياب هذه المصيبة؟ إلهي أتحلّ كربة هذه الفجيعة بساحتهما؟

ثم كان يقول: ألّلهم ارزقني ولداً تقرّ به عيني على الكبر، واجعله وارثاً وصيّاً، واجعل محلّه منّي محلّ الحسين، فإذا رزقتنيه فافتنّي بحبّه ثم افجعني به كما تفجع محمّداً حبيبك بولده، فرزقه الله يحيىٰ وفجعه به»[2].

والروايات في هذا المجال كثيرة جدّاً، وهي دالّة على ما أردنا التنبيه عليه من تبعية الأنبياء لمحمّد وأهل بيته ﷺ، وكونهم قدوة لهم وواسطة في بلوغ ما وصلوا إليه من المقامات، وذلك عن طريق استعراض سيرتهم والحوادث التي جرت عليهم ﷺ.

(١) البهر: تتابع النفس وانقطاعه كما يحصل بعد الإعياء والعدو الشديد.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة / الصدوق: ص٤٥٩.

آيات اخرى في اقتران اهل البيت عليهم السلام بالنبيّ صلى الله عليه وآله في الصفات:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾(١)، حيث قرنت هذه الآية المباركة بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أهل بيته عليهم السلام وجعلتهم شركاء له تابعون في الطهارة، وهي تعني درجة العصمة التي للرسول صلى الله عليه وآله، فهو صلى الله عليه وآله سيّد الأنبياء ويفوق الكلّ في درجة العصمة والطهارة، إلّا أن سنخ عصمته صلى الله عليه وآله متقاربة ومتقارنة مع سنخ العصمة التي لأهل البيت عليهم السلام، ففي الوقت الذي قرن الله تعالىٰ بنبيّه صلى الله عليه وآله أهل بيته في العصمة والطهارة، لم يقرن أحداً من الأنبياء في نمط التطهير والعصمة الذي له صلى الله عليه وآله.

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾(٢)، فلم يُنزَّل أحد كنفس النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا عليّ عليه السلام، وقرن الله تعالىٰ بالنبيّ صلى الله عليه وآله أهل بيته عليهم السلام في الحجّية، فالخمسة عليهم السلام معاً حجج علىٰ جميع الأديان السماوية والبشرية عموماً إلىٰ يوم القيامة، فهم عليهم السلام شركاء النبيّ صلى الله عليه وآله في الرسالة؛ لأن المباهلة نوع محالفة، وفي الحلف لابدّ أن يحلف الأصيل ولا وكالة في الحلف، وهذا يعني أنهم عليهم السلام شركاء في الرسالة أصالة، ولكنهم تابعون في ذلك للنبيّ صلى الله عليه وآله وهو سيّدهم وبشفاعته نالوا الأصالة في الحجّية.

والحاصل: إن أهل البيت عليهم السلام مقرونون بسيّد الأنبياء في المقامات تبعاً له صلى الله عليه وآله، وهذا يعني أن الإيمان بأهل البيت والتولّي لهم من الدين الذي أخذ علىٰ

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) آل عمران: ٦١.

الأنبياء الإيمان به ونصرته لأجل نيل المقامات العالية عند الله تعالىٰ.

هذا تمام الكلام في الدليل السابع على عموم شرطية التوسّل بالنبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام لصحّة الإيمان وللتوبة وسائر العبادات ولنيل مقامات القرب.

الدليل الثامن: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾(١).

تقدّم أن هذه الآية المباركة دالّة علىٰ مبدأ التوسّل، ونشير هنا أيضاً إلىٰ أنها دالّة عموم شرطية التوسّل في التوجّه إلى الحضرة الإلهية، فلابدّ من التوسّل بالذريّة والتوجّه بهم وصلتهم والمجيء إليهم، وسبق كذلك أن التوجّه نوع دعاء وهو لا يرتفع ولا تفتّح له أبواب السماء إلّا بالتوسل بالنبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وهويّ القلوب إليهم.

ولذا كانت مودّة أهل البيت عليهم السلام أجر الرسالة الخاتمة، كما في قوله تعالىٰ: **﴿ قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾(٢)**، وقال تعالىٰ: **﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾(٣)**، مما يعني أن مودّة أهل البيت عليهم السلام يعود نفعها للأمة جمعاء، وقال عزّ وجلّ: **﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾(٤)**، ومعنىٰ ذلك أن مودّتهم عليهم السلام هي السبيل الوحيد والطريق والوسيلة المنحصرة إلىٰ الله تعالىٰ، فهم السبيل إليه والمسلك إلىٰ رضوانه.

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

(٢) الشورىٰ: ٢٣.

(٣) سبأ: ٤٧.

(٤) الفرقان: ٥٧.

الدليل التاسع: الاستكبار والصدّ عن آيات الله تعالى موجب لحبط الأعمال

نريد أن نتعرض هنا في الاستدلال على المقام بما تقدّم من قوله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾(١) ونريد أن نضيف علىٰ ما تقدم من بيان هذه الآية الكريمة بما له دلالة علىٰ المطلوب في المقام، وذلك بالبيان التالي:

إن الآية المباركة تتعرّض لبعض الأحكام المترتّبة علىٰ التكذيب بآيات الله تعالىٰ.

والمقصود من الآيات هي الحجج الإلهية، حيث أطلق الله عزّ وجلّ لفظ الآية علىٰ مريم وعيسىٰ عليهما السلام ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً**﴾(٢)، وإذا كان عيسىٰ عليه السلام لم ينل ما ناله إلّا بولايته وإقراره وإيمانه بسيّد الأنبياء فكيف بنفس النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فهو أعظم آية لله تعالىٰ؟ وإذا كان عيسىٰ عليه السلام من وزراء الإمام المهدي عليه السلام وتابعاً له في دولته، فكيف لا يكون أهل البيت عليهم السلام من أعظم آيات الله تعالىٰ؟ خصوصاً وأن الله تعالىٰ قرن بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أهل بيته عليهم السلام في الطهارة والعصمة والحجّية والولاية وغيرها من المقامات التي تقدّم التعرّض لها آنفاً، فلا شك أن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام المصداق البارز للآية التي نحن بصدد بيانها، فهم عليهم السلام أوضح وأبرز وأعظم آيات الله تعالىٰ.

---

(١) الأعراف: ٤٠.

(٢) المؤمنون: ٥٠.

والذين يكذّبون بآيات الله تعالىٰ ويصدّون ويستكبرون عنها ـ كما فعل إبليس مع آدم عليه السلام ـ لا تفتّح لهم أبواب السماء، فلكي تفتّح أبواب السماء لقبول الأعمال والعبادات والعقائد وجميع المقامات، وقد قال تعالىٰ: ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾(١) والكلم الطيب هو العقيدة، فبيّنت الآية أن الإيمان والعقيدة لابدّ له أن يصعد في مسير قبوله عند الله تعالىٰ، والصعود إلىٰ السماء لابدّ أن تفتّح له أبواب السماء، وقد بيّنت الآية السابقة أن مفتاح أبواب السماء هو كلّ من التصديق بالآيات الإلهية والخضوع لها واللّجأ إليها وعدم الصدّ عنها، ومن أجل الرقي والعروج إلىٰ السماء لابدّ من التوجّه إلىٰ آيات الله تعالىٰ واللجوء إليها والتصديق بها وعدم الصدّ عنها، فالآية صريحة في أن التوبة والعبادة وأيّ قربى أو زلفى إلىٰ الله عزّ وجلّ تفتقر إلىٰ تفتّح أبواب السماء وأنها لا تفتّح أبداً مع الاستكبار علىٰ الآيات الإلهية، فليس الإيمان بآيات الله فحسب كافٍ في قبول العبادات ورقي المقامات، بل لابدّ من المودّة والصلة والإقبال والتوجّه إلىٰ الآيات والتوسّل بها إلىٰ الله، وعدم الصدّ والإعراض والإستكبار عنها، لأن الآية جعلت شرطين لفتح أبواب السماء ولدخول الجنّة:

الأول: عدم التكذيب، أيْ التصديق والإيمان والمعرفة بآيات الله الحجج.

والثاني: عدم الاستكبار عنها، وهذا الأمر يتضمّن شيئين:

أحدهما: عدم الاستكبار أي الخضوع والتواضع، وثانيتهما: عدم الصدّ الذي قد ضُمّن في فعل الاستكبار بقرنية عن، نظير ما ذكرته الآيات في مسبب كفر إبليس (أبىٰ واستكبر) فالإباء هو الجحود مقابل التصديق، والاستكبار مقابل

---

(١) سورة فاطر ٣٥: ١٠.

الخضوع والاتباع.

ونظير ذلك ما ورد في سورة المنافقين في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** ﴾(١) وهذه الآية الكريمة صريحة في أن الاستغفار وقبول التوبة متوقّف علىٰ المجيء إلىٰ النبيّ ﷺ، وأن صفة المنافق الصدّ عن الآيات الإلهية والاستكبار عليها والابتعاد عنها وعدم اللجوء واللواذ إليها، وهذا نوع من التشاهد بين الآيات القرآنية، فالآية تدلّ علىٰ أن الأوبة إلىٰ الله تعالىٰ والقرب إليه لابدّ فيه من التوجّه أوّلاً إلىٰ الحضرة النبوّية والتوسّل والاستشفاع بالنبي ﷺ ثم شفاعته.

فالتوسّل خيار حصري لابدّي شرطي منحصر بالمجيء واللجوء إلىٰ الحضرة النبويّة واللّواذ بها والاستغاثة به ﷺ، ثم إبداء التوبة والاستغفار وإمضاء النبيّ ﷺ له باستغفاره وشفاعته لهم من أجل تحقّق التوبة ومقام المغفرة وقبول العبادة التي منها عبادة التوبة.

ونظير هذه الآيات أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾(٢).

ومن الشواهد أيضاً علىٰ أن المراد من الآيات هنا هم الأنبياء والخلفاء الأوصياء الحجج هو التعبير بـ(كذّبوا) فإنه مقابل التصديق فيما يزعمون من مناصب وفيما لهم من دعوىٰ، وأما الآية الكونية فليس فيها تكذيب أو تصديق، بل إنما يقع الغفلة والإعراض عنها؛ إذ لا يوجد فيها زعم أو دعوىٰ معيّنة

---

(١) المنافقون: ٥.

(٢) الأعراف: ٣٦.

كي يصدق في حقّها التصديق أو التكذيب، فالتصديق أو التكذيب إنما يكون للحجج الإلهية التي تدّعي مقاماً إلهياً وكذا فيما تبلّغه عن الله تعالىٰ، فالمراد بالآية والآيات في المقام الحجج الإلهية من الأنبياء والرسل والأصفياء والأوصياء، الذين أُسندت إليهم المقامات الإلهية.

والحاصل: إن هذه الآيات المباركة تبيّن أن مفتاح أبواب سماء الحضرة الربوبية الإقرار بالحجج والآيات والتوجّه إليها والتوسّل والتشبّث بها والإنقطاع إليها لا عنها، وأبرز وأعظم تلك الآيات النبيّ ﷺ وأهل بيته ﷺ، فهم مفاتيح أبواب السماء في قبول وصعود التوبة والعبادة والمعرفة والإيمان والعقيدة ونيل المقامات، فلا ترتفع أي عبادة ولا ينال مقام ولا تتحقّق التوبة مع عدم التصديق بالآيات وصلتها ومودّتها والتوجّه إليها والتوسّل بها، والإعراض عنها يوجب حبط الأعمال وامتناع دخولهم الجنّة في الآخرة ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط** ﴾ ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾، فشرط النجاة يوم القيامة الارتباط بالآيات الإلهيّة والإنتماء إليها والتوسّل بها، لكونها قنوات غيبيّة توجب القرب إلىٰ الله تعالىٰ.

فالتوسل شرط في تفتّح الأبواب لقبول وصحّة الإيمان والتوبة وقبول الأعمال وسائر المقامات.

الدليل العاشر: خضوع الملائكة لآدم ﷺ

كلّ خليفة الله الباب الأعظم لملائكته

لقد سبق ذكر الآيات التي تعرّضت لقصة آدم ﷺ وأمر الملائكة كلّهم

أجمعين بالسجود له، وقلنا إن الأمر بسجود الملائكة وخضوعهم وانقيادهم ليس خاصّاً بآدم عليه السلام، لأنها معادلة دائمة في عالم الخلقة لكلّ من يتحلّىٰ بمقام الخلافة الإلهية، فمن يتحلّىٰ بهذا المقام يطوع الله عزّ وجلّ له الملائكة ويدينون بأجمعهم لله تعالىٰ بطاعته بما فيهم كبار الملائكة المقرّبين، وهم في كلّ ما يقومون به من أدوار عظيمة في عالم الإمكان والكون خاضعون لوليّ الله، وهو خضوع حقيقي قائم على أساس العلوّ الرتبيّ التكويني لخليفة الله تعالىٰ، وحينئذٍ يكون الأمر بالسجود والخضوع للخليفة شامل للأنبياء، وخصوصاً أولي العزم منهم كنوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ والرسول الأكرم وأوصيائه عليهم السلام، فالملائكة المقرّبين وغيرهم بابهم إلىٰ الله تعالىٰ خليفة الله الذي يُنبئهم بالأسماء والمقامات.

ثمّ إن الآيات والروايات ذكرت أن الملائكة عندما اعترضت علىٰ جعل خليفة الله في الأرض وهو من ترك الأولى الناشئ من ضيق الأفق وعدم سعة العلم ـ آبت وتابت إلىٰ الله عزّ وجلّ بالسجود لآدم عليه السلام.

إذن سنّة الله للملائكة كدين هو الإقبال علىٰ وليّ الله، وهو شرط أوبتهم وقبول عبادتهم وحظوتهم بالمقامات العالية.

ففي عالم الغيب الذي هو خال عن نشأة التشريع الأرضي، وليس خالٍ عن الدين الإلهي، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(١)، افتقرت الملائكة إلىٰ أن يكون بينهم وبين الله تعالىٰ واسطة في الخضوع والإنباء والمعرفة والعبادة والتقرّب إلىٰ الله تعالىٰ، فما بالك بالنشآت الأخرىٰ؟!

---

(١) سورة آل عمران ٣: ٨٣.

وإذا كان آدم أبو البشر نبيّ الملائكة وقناة الإنباء والفيوضات العلمية وغيرها عليهم من الله تعالىٰ، وهو وليّهم وهم طائعون له لا يتمرّدون عليه ولا ينبغي لهم ذلك، فكيف بسيّد البشر؟! ألا تكون الملائكة منقادة وطائعة له؟!

ومن هنا تكون الملائكة مشمولة بقوله تعالىٰ: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾(١) من غير اختصاص بالنشأة الأرضيّة، وهذا لوحدة الدين وشموله لجميع المخلوقات كما سيأتي لاحقاً بيانه.

فالخليفة نبيّ الملائكة وله مقام إنبائهم وتعليمهم؛ لأنه مزوّد بالعلم اللّدني الأسمائي، فهو نبيّ المعارف وإن لم يكن نبيّ شريعة للناس في الأرض.

والحاصل: إن المقامات التكوينيّة العالية للملائكة لا يمكن أن تنال إلّا بطاعة وليّ الله والإقبال عليه والتوجّه إليه وبه إلىٰ الله تعالىٰ.

أخذ ميثاق ولاية أهل البيت عليهم السلام معرفة وتوسّلاً في جميع النشآت علىٰ أصناف المخلوقات:

الدين الذي هو عند الله الإسلام لا يختصّ بنشأة من النشآت، بل الكلّ مكلّف بالطاعة لله والإسلام له في أصول معالم دينه، قال تعالىٰ: ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾(٢)، ولذا كان الأمر بالسجود لآدم غير خاصّ بالملائكة، بل شامل لكل النشآت ومن هنا عمّ الأمر إبليس، لأن دين الله عزّ وجلّ وهو التسليم دين جميع المخلوقات،

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) آل عمران: ٨٣.

فالملائكة أيضاً مأمورة بالتوحيد لله تعالىٰ وطاعة وليّ الله بالسجود له، وعلى هذا فكلّ ما يبيّن في النصوص القرآنية بأنه من أركان الدين فقد أخذ علىٰ جميع الملائكة الإيمان به، ومن تلك الأركان تولّي خليفة الله والطاعة له.

وإذا عرفت ذلك يتّضح لك ما ورد في الروايات من أن ولاية النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام أُخذت من جميع الملائكة وسائر الكائنات، وذلك لكونها من الدين غير الخاص بنشأة من النشآت.

إذن فنبوّة خاتم الأنبياء وولاية سيّد الأوصياء لا تختصّ بالموجودات الأرضية، وهذا يعني أن الشهادة الثانية والثالثة لم تؤخذ علىٰ أهل هذه الدنيا فحسب، لأن الإنباء ونيل الفيوضات عموماً يحتاج إلىٰ وجود خليفة الله ولابدّ من التوجّه إليه لنيل المقامات وقبول الطاعات في جميع النشآت؛ لأنه واسطة الله وسفيره بينه وبين خلقه في كلّ المقامات العلمية والتكوينية.

تأبيد رسالة الرسول ﷺ ووساطته في الوحي الإلهي لجميع النشآت:

فمفاد الشهادةالثانية والثالثة إقرار بالواسطة الأبدية غيرالخاصة بالنشأة الأرضية، وهذه هي تداعيات ومقتضيات الشهادة الثانية والثالثة، التي لايتمّ التوحيد بدونها، ومن دونها لايتحقّق قرب المخلوق إلىٰ ربّه، ذلك المخلوق البعيد عن مقامات الربوبية وعظمة الصفات الإلهية.

جحود التوسّل سنّة إبليس في الاستكبار:

ومن يأبىٰ ذلك يحصل له العتوّ والاستكبار في نفسه والتعظيم لها، مع أن

نفسه صغيرة فقيرة بعيدة عن ساحة عظمة الصفات الإلهية، فهي أي النفس - محتاجة إلىٰ الواسطة والسفارة التي يتوجّه بها إلىٰ الله تعالىٰ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾[1].

ويتّضح أيضاً أن معطيات الشهادة الثانية والثالثة ومؤداهما مرتبطة بالمعارف الدينيّة الأبديّة الشاملة للملائكة والجنّ والإنس والبرزخ والجنّة والنار والآخرة، فضلاً عن النشأة الأرضية، كذلك الوساطة والشهادة الثانية والثالثة شاملة لعالم العقول والأرواح، ولذا نجد أن مجرىٰ الفيض في تكامل عقول علماء هذه الأمة ومستوياتها العلميّة في الدين هو النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، حيث تمّ بجهودهم المباركة تشييد المعارف الصحيحة ورفض الجبر والتفويض والتجسيم والتشبيه والتعطيل وغيرها من العقائد الفاسدة، فهم عليهم السلام وسائط الفيض وسفراء الأرواح والعقول.

وهذا بيان عقلي لمعطيات الشهادة الثانية والشهادة الثالثة يُضاف إلىٰ البيانات السابقة المعتمدة علىٰ الآيات القرآنية المباركة.

والحاصل: إن شرطية التوسّل في المقامات الثلاث المذكورة تعمّ جميع الأنبياء والرسل وكلّ المخلوقات من الملائكة وغيرها.

---

(١) سورة ص ٣٨: ٧٥-٧٨.

الفصل الرابع

◘ شبهات وردود

الشبهة الأولى: التوسّل عبادة لغير الله تعالى.

الشبهة الثانية: التوسّل مناف لكلمة التوحيد.

الشبهة الثالثة: التوسّل مناف للآيات القرآنية

الشبهة الرابعة: الأعمال الصالحة هي الوسيلة.

الشبهة الخامسة: التوحيد الإبراهيمي يأبى التوسّل بغير الله.

الشبهة السادسة: التوسّل يعني التفويض وعجز الله تعالى.

الشبهة السابعة: إيجاد المخلوقات الامكانية كلّه ابداعيّ بلا واسطة.

شبهات وردود

قبل الدخول في بيان الشبهات والأجوبة التفصيلية عنها لابدّ من التنبيه علىٰ نقطة جديرة بالإلتفات، وهي إننا لا نخطّئ قول أصحاب الشبهة في تأثير التوسّل ومدخليته المباشرة في العقيدة التوحيدية، وذلك لأن فروع الدين الاعتقادية، بل كلّ فروع الدين ترجع في لبّها وجذرها إلىٰ أصول الدين، فإن معنىٰ كونها من فروع الدين أنها تنحدر وتنشعب وتتنزّل من الشجرة المباركة الطيّبة لأصول الدين.

إذن فعبادة التوسّل توحيدية، بمعنىٰ أن لها عمقاً توحيدياً وجذراً تنشعب منه يربطها بأصول الدين الكلّية.

وهذا هو معنىٰ أن التوحيد لا يتمّ بكلمة (لا إله إلّا الله)، بل لابدّ من أدبيات ومعطيات الشهادة الثانية لكي يتمّ التوحيد.

والحاصل: إن المسألة ليست مرتبطة بصورة الفعل الذي يأتي به العبد، بل الأمر يعود إلىٰ لبّ ذلك الفعل وجذره وهو التوحيد، ولكن بعد أن أثبتنا ضرورة التوسّل فضلاً عن مشروعيته، بل شرطيته في صحّة العقيدة والأعمال، يكون الأمر علىٰ عكس ما ذكروه من أن التوسّل بغير الله تعالىٰ يوجب الكفر والخروج

عن العقيدة التوحيدية، بل نقول: إن تـرك التـوسّل والتـوجّه يـوجب الجـحود والاستكبار والكفر والخروج عن عقيدة التوحيد.

كذلك من الجدير بالإلتفات أن ثبوت ضرورة التوسّل بآيات الله وكلماته من الأنبياء والأولياء والأوصياء معناه ضرورة الإرتباط بكائن حيّ بشري يربطنا مع الحيّ القيوم، فلابدّ من استشعار ضرورة وجود نموذج بشـري نـرتبط بـه وله القدرة علىٰ أن يكون حلقة الوصل بين الله عزّ وجلّ وبين عبيده، وليس ذلك إلّا لعظمة الله تعالىٰ وتنزّهه عن التشبيه والتجسيم والتعطيل.

وفي غير هذه الصورة تكون جميع المناسك العبادية كمناسك الحجّ عـبارة عن جمادات لا حيوية فيها، وهذا يعطي استشعاراً بأننا نعظّم أحجاراً جامدة لا حيوية فيها ولا تماسّ لها بالله الذي لا إله إلّا هو الحيّ القيوم.

بعد هذا البيان الموجز نقول:

إن المنكرين لمشروعية التوسّل استدلّوا علىٰ دعواهم ببعض الأدلّة، وهـي بعد بيان ما هو الحقّ في المسألة وأن التوسّل ضرورة لابدّ منها تكون شـبهات وتلبيسات لابدّ من الإجابة عنها، وهذه عمدتها:

شبهات المنكرين لجواز التوسّل

الشبهة الأولى: التوسّل عبادة لغير الله تعالىٰ

إن الدعاء عبارة عن النداء وطلب الحاجة، ولا شك أن الدعاء عبادة للمدعو؛ لأن الدعاء فيه نوع من التوجّه والقصد والنيّة، وهذه الأمور هي روح العبادة وقوامها، ولذا ورد في الحديث «**أن الدعاء مخ العبادة وجوهرها**».

وبالتالي يكون دعاء غير الله تعالىٰ وندبته وطلب الحاجة منه عبادة له، وهو من أوضح أنواع الشرك في العبادة.

ويعبّر عنه بالشرك الصريح أو الشرك الأكبر، الذي يوجب الرّدة والارتداد عن الدين والمنافاة لأوليّات الدين الاسلامي، والخروج عن المواثيق والعهود التي التزم بها الشخص بالتزامه وتشهّده الشهادتين.

مع العلم أن جميع طقوس العبادة لا تبلغ درجة الدعاء الذي هو قوام حقيقة العبودية، وهو نوع افتقار إلىٰ الباري تعالىٰ.

والحاصل: إن الدعاء والنداء وطلب الحوائج من غير الله تعالىٰ من أغلظ أنواع العبادة والتأليه للشخص المدعو، وهو عبارة عن الشرك الصريح أو الأكبر.

الجواب عن الشبهة الأولى:

كان خلاصة الشبهة هو أن الدعاء والنداء وطلب الحاجة عبادة لا تجوز لغير الله تعالىٰ.

والجواب عن هذه الشبهة اتضح ضمناً سابقاً في بيان ما هو الحقّ في المسألة، وأن الدعاء بمعنىٰ النداء، والطلب إنما يكون عبادة للمدعو إذا اعتقد الداعي أن المدعو مستقل بالقدرة غني بالذات، وأما إذا اعتقد الداعي أن المدعو لا يستقل بالقدرة، بل يستمد القدرة من الباري تعالىٰ وأن الحول والقدرة التي لديه هي من الباري تعالىٰ وأن المدعو إنما حصل عليها لمكان حظوته وقربه عند الباري وأن الداعي إنما يدعوه نظراً لقربه ووجاهته من الباري وأن تكريم الله له بالقرب والوجاهة حفاوة منه تعالىٰ وإذن منه للاستشفاع والتوسّل والتوجّه به إليه عزّوجلّ، فإن دعاء ذلك الغير يعدّ حينئذٍ توجّهاً وقصداً إلىٰ الحضرة الإلهية، لأن قصد القريب من الحضرة الإلهية قصد للحضرة، كما أن الصدّ والإعراض عن القريب ابتعاد عن الحضرة الإلهية، فدعاء ذلك الغير هو دعاء لله بآياته العظيمة ودعاء له بأسمائه الحسنىٰ التي يظهر بها.

وينقض أيضاً علىٰ هذه الشبهة بطلب الحيّ الحاجة من الحيّ، مثل طلب العلاج من الطبيب، وطلب البناء من البنّاء، واصلاح الزراعة من الزرّاع، فإنه لا ريب في عدم توقّف أحد من المسلمين، بل ولا من البشر عموماً في ذلك.

ولم يقل أحد أن ذلك يوجب كفراً أو زندقة أو شركاً، والحال إنه علىٰ مقتضىٰ كلامهم لابدّ أن يكون ذلك كفراً وشركاً؛ لأن الحدّ الذي ذكروه لبيان معنىٰ الشرك ينطبق على نداء الحيّ للحيّ وطلب الحيّ الحاجة من الحيّ واستغاثته به، كما

في قوله تعالىٰ: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ ﴾[١] وكذا في التوسّل والتشفّع وتوسيط الحيّ للحيّ، فإنه لم يدّع أحد أن ذلك من الشرك والكفر، مع أن حدّ الشرك الذي زعموه ينطبق عليه تماماً.

لا سيما وأن هذه المباحث من المباحث العقلية التكوينية وهي لا تقبل التخصيص، بخلاف المباحث الاعتبارية الجعلية التي قد لا تكون مطّردة في جميع المصاديق.

ثم إن أصحاب هذه المقالة حاولوا أن يجيبوا عن هذا النقض بجوابين:

الأول: إن سؤال الحيّ الحاضر بما يقدر عليه والاستعانة به في الأمور الحسّية التي يقدر عليها ليس ذلك من الشرك، بل من الأمور العادية الحياتية الجائزة بين المسلمين.

الثاني: إن الأمور العادية والأسباب الحسّية التي يقدر عليها المخلوق الحيّ الحاضر ليست من العبادة، بل تجوز بالنصّ والاجماع، بأن يستعين الإنسان بالإنسان الحيّ القادر في الأمور العادية، التي يقدر عليها كأن يستعين به أو يستغيث به في دفع شرٍ ولده أو خادمه أو كلبه، وما أشبه ذلك، وكأن يستعين الانسان بالانسان الحيّ الحاضر القادر أو الغائب بواسطة الأسباب الحسّية، كالمكاتبة ونحوها في بناء بيته أو إصلاح سيارته أو ما أشبه ذلك، ومن ذلك الاستغاثة التي جرت لأحد بني إسرائيل عندما استغاث بموسىٰ عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾[٢]، وكذا استغاثه

---

(١) القصص: ١٥.

(٢) القصص: ١٥.

الانسان بأصحابه في الجهاد أو الحرب أو نحو ذلك، وأما الاستغاثة بـالأموات والجنّ والملائكة والأشجار والأحجار فذلك من الشرك الأكبر، وهو من جنس عمل المشركين الأوّلين مع آلهتهم كاللّات والعزّىٰ وغيرهما.

دفع الجوابين:

جحود التوسّل يستند إلى التفويض

أما الجواب الأول: فالوهن فيه واضح؛ لأنه يقول الاستعانة بـالانسان الحـيّ القادر على الأمور العادية الحسّية ليس من الشرك، وكونه حيّاً أو ميّتاً لا يؤثّر في تحقّق الغيرية مع الله عزّ وجلّ، والشرك ـ بحسب زعمهم ـ قائم بالغيريّة مع الله تعالىٰ، والغيريّة لغة وعقلاً لا تختلف سواء جعل مصداق الغير والغيريّة الحيّ أو الميّت، فإن أحد الأجزاء المقوّمة لحصول الشرك كما ذكروا هو ضمّ غير الله تعالىٰ إليه، وهذا لا يختلف في تحقّقه سواء كان الغير حيّاً أو ميّتاً، فالتفريق بلا فارق.

وأما ما ذكروه من التعلّق بالقادر، حيث قيّد الجواب بالقادر، فنقول فـيه: إن كانت القدرة التي يعتقدها للحيّ نابعة من ذاته بلحاظ الاستقلال لا من إقدار الله عزّ وجلّ وتمكينه فهو الشرك الأكبر، وقد كرّ هذا المجيب علىٰ ما فرّ منه.

وأما إن كان يعتقد أن هذه القدرة من الله تعالىٰ ومضافة إلىٰ المخلوق من قبل الخالق فأي فرق بين الحيّ والميت؟! فكما قد يُـقدر تـعالىٰ الحـيّ يُـقدر روح الميّت على ما أقدر عليه الحيّ.

ثم إنه لا معنىٰ للتفريق أيضاً بين الاستعانة بالأمور العادية وغيرها، فـهل إن

قدرة الله تعالىٰ تنحسر في الأمور العادية والحسّية ويكون هناك ندّ فيها لقدرة الربّ عزّ وجلّ وهي قدرة الحيّ الحاضر؟! فإن هذا هو القول بالثنوية، ومعناه أنه في الأمور غير العادية لابدّ من التوحيد بقدرة الربّ فيها وأما في الأمور العادية فنؤمن بالثنوية.

وحيث أن الثنوية باطلة وشرك صريح فلابدّ من التوحيد في جميع الأفعال الإلهية، وأنها كلّها تستند من دون جبر إلىٰ الباري عزّ وجلّ، من دون أي درجة من درجات التفويض، وحينئذٍ يستوي الحال في الأمور العادية والأمور غير العادية.

جحود التوسّل يستند إلىٰ المذاهب الحسيّة المادية:

ثم ما هو الفرق في التوسّل في شفاء مريض على يد طبيب نادرة زمانة وبين التوسّل بأحد أولياء الله تعالىٰ في الشفاء؟!

فإن مورد الحاجة في هذا المثال عادي، فهل الكلام في مورد الحاجة وأنه لابدّ أن يكون من الأمور العادية أو في السبب المتوسل به؟ وما هو الفرق في السبب بين العادي وغير العادي إذا كان الأمر بيد الله تعالىٰ وهو علىٰ كلّ شيء قدير؟!

مع أن الأدلّة الشرعية والدراسات الحديثة العلمية أثبتت أن طاقات البدن البرزخي لا تقاس بطاقات بدننا المادّي وقدرته، وأن البدن البرزخي يحتوي على طاقات هائلة تفوق قدرة أبداننا المادّية بكثير جدّاً، وعليه كيف نتصور أن الحيّ قادر على قضاء الحوائج بما لا قدرة للميت عليه بروحه وبدنه البرزخي؟!

أضف إلىٰ ذلك كلّه أن تقييد الاستعانة والتوسّل بالأمور الحسّية ناشئ من الايمان بأصالة الحسّ والمادّة والتنكّر للعوالم المخلوقة الأخرىٰ التي ما وراء الحسّ والمادّة، وأن كلّ ما غاب عن الحسّ ينكر، وهذا الكلام أشبه بالفلسفات المادّية الحسّية، التي آمنت بأضعف العوالم وأدنىٰ المراتب الوجودية وتنكّرت لبقيّة العوالم العلوية.

هذا بالنسبة إلىٰ دفع الجواب الأول.

تفصيل الجاحدين للتوسّل في الوسائط:

وأما الجواب الثاني: إن صاحب الشبهة بعد أن استشعر أن الجواب الأوّل غير موزون من الناحية العقلية تشبّث بالنصّ والإجماع وأن توسّل وتشفّع الحيّ بالحيّ في الأمور العادية الحسّية جائزة بالنصّ والإجماع، وأما الاستغاثة والتوسّل بالأموات فهو من جنس عمل الوثنية.

والتمسّك بالدليل النقلي في المقام، سواء في جانب الجواز أو النفي غير تام من وجوه:

الأول: إن بحث الشرك بحث عقلي لا سيما في الشرك الأكبر، فهو من أوليّات العقيدة التي للعقل فيها دور ومجال واسع، وإذا كان عقلياً يرد عليه ما ورد في الدفع الأول، من أن حكم العقل وانطباق حدّ الشرك علىٰ الحيّ الحاضر والميّت سواء.

الثاني: الاستدلال علىٰ التحريم بأن الطلب من الأموات من جنس عمل الوثنيين، تمسّكاً بعموم دليل التحريم، مع أن موضوعه ومصبّه ما لم يأذن به الله

عزّ وجلّ، إذ سبق أن محطّ ومصبّ انكار العقيدة الوثنية في القرآن الكريم هو التوجّه إلىٰ ما لم يأذن به الله تعالىٰ ولم ينزل به سلطاناً، وكونه تحكيماً لسلطان العبيد وإرادتهم علىٰ سلطان الله وإرادته، ولم يكن المحذور في أصل الوساطة، وسبق أيضاً أن الله عليّ حكيم، متعال عن الجسمية والتجسيم وحكيم غير معطّل، فلابدّ من الوسائط والحجج، والعبادة إنما تتحقّق بالطوعانية لله تعالىٰ وإن كان التوجّه بالفعل إلىٰ الحجر كالتوجّه إلىٰ الكعبة الشريفة، والشرك إنما يتحقّق بالاستكبار علىٰ الله تعالىٰ حتّىٰ مع نفي الواسطة كما في إبليس.

الثالث: إذا كان توسيط غير الله تعالىٰ شركاً، فكيف يعقل تجويزه بالنصّ؟! فإن الله عزّ وجلّ لا يأمر بالشرك.

وهذا يعني أن توسيط الغير بحدّ ذاته ليس شركاً، فإذا جازت الاستغاثة بالحيّ لقيام النص والاجماع، أي الإذن الشرعي، فلا فرق إذن في الاستغاثة بين الحيّ والميّت ما دام المجوّز لذلك هو الإذن، إذ يتّضح أن المدار في الشرك ليس على الغيرية مع الله تعالىٰ كما فرضه القائل، بل علىٰ الإذن وعدمه وعلىٰ وجود الأمر وعدمه، وقد أذن الله عزّ وجلّ بذلك في كثير من الآيات القرآنية، كما تقدّم في قصة آدم وغيرها.

الشبهة الثانية: التوسّل خلاف كلمة التوحيد

إن التوجّه والقصد والدعاء والنداء لغير الله عزّ وجلّ ينافي مقتضىٰ كلمة التوحيد، وهي قول (لا إله إلّا الله).

بيان ذلك:

اختلف المفسّرون في بيان قول (لا إله إلّا الله):

فهل المراد من تلك الكلمة المباركة التوحيد في الذات أو التوحيد في الصفات والأسماء أو التوحيد في الأفعال أو التوحيد في الخضوع والعبادة؟

وهذا الاختلاف ناشئ من الاختلاف في تفسير معنى الألوهية (لا إله) وتفسير معنىٰ لفظة (الله).

فهل اسم الجلالة علم للذات أو هو اسم مشتقّ من التأليه؟

فإن كان مشتقّاً من التأليه وباقٍ علىٰ المعنىٰ الوصفيّ حينئذٍ يكون المعنيان متحدّين أو متقاربين.

وأما إذا كان لفظ الجلالة في الأصل علماً للذات فيكون على خلاف المعنىٰ الأول وهو الألوهية والتأليه في مقطع (لا إله).

وكيفما كان؛ فإن لفظ (إله) الذي جاء في كلمة التوحيد معناه في اللغة من أله يأله إذا تحيّر، ومعنىٰ ولاه أن الخلق يولهون إليه في حوائجهم ويضرعون إليه فيما يصيبهم، ويفزعون إليه في كلّ ما ينوبهم، كما يوله كلّ طفل إلىٰ أمه[1].

إذاً فالمعنىٰ اللغوي يتضمّن طلب الشيء والتوجّه نحوه.

وأما الإله في الاصطلاح:

فقد اختلفوا في بيان معناه؛ فبعض قال: هو بمعنى الاتجاه والقصد، وبعض آخر فسّره بالحبّ والعشق، وثالث قال: وله يأله من عبد يعبد، ورابع قال: وله يأله بمعنىٰ اتخذه ربّاً وخالقاً، وغير ذلك من المعاني التي ذكرت لمعنىٰ (إله).

ولكن اتفقوا علىٰ أن التأليه فعل المخلوق، فأله ووله إنما يحكي شأن

(١) لسان العرب: ج١٣ ص٤٦٧.

المخلوق وهو التوحيد في العبادة، وأما توحيد الذات أو الصفات أو الأفعال فإنما هو مرتبط بالواقعية ونفس الأمر، وأن هناك ذات واجبة قيّومة غنية الذات لها الأسماء الحسنىٰ والكلمات التامّة وهذا كلّه غير مرتبط بفعل المخلوقات.

ولذلك يقال إن كلمة (لا إله إلا الله) تختلف عن التعبير بـ(يامن لا هو إلّا هو)، فإن مفاد هذه العبارة غير مرتبط بفعل العبد، بل هو إخبار عن نفي أي ذات مستقلة واجبة الوجود إلّا ذات الله عزّ وجلّ.

ولكن عندما نقول: (لا إله إلا الله) فإن التأليه فيه مادّة مأخوذة من فعل العبد وليس هو وصفاً أو معنىً قائم بذات واجب الوجود.

ومن ثم يقال إن النبيّ ﷺ بعث بكلمة (لا إله إلّا الله) ولم يبعث بـ(يا من لا هو إلّا هو)، إذ أن هذا توحيد الذات، والبشريّة قد أقرّته واعتقدت به، وهي الآن في خطىً متقدّمة من التوحيد الأفعالي والتوحيد في العبودية.

والخلاف في زمن البعثة مع المشركين ليس في توحيد الذات، بل في توحيد العبودية وتوحيد الدعاء والطلب والتوسّل والتوجّه أو في توحيد الأفعال باسنادها إلىٰ الله عزّ وجلّ.

فالنبيّ ﷺ بُعث بالتوحيد في الألوهية والعبادة والخضوع والخشية والوله والتوجّه، فلابدّ من ترك الدعاء والتوسّل والعبادة لغير الله تعالىٰ، وهو ما كان عليه مشركي العرب.

والحاصل: أن معنىٰ الشرك الذي حاربه الاسلام بكلمة التوحيد هو جعل أنداد لله تعالىٰ يستغاث ويتوسل بهم، فالتوسل جاهلية جديدة استُبدلت بالجاهلية القديمة.

الجواب عن الشبهة الثانية:

كان حاصل هذه الشبهة هو أن مقتضىٰ قول: (لا إله إلّا الله) هو التوحيد في العبادة، فإذا دعي غير الله عزّ وجلّ كان هذا نوعاً من العبادة والتأليه لغير الله عزّ وجلّ.

والجواب عن هذه الشبهة اتضح مما ذكرناه في الدليل العام وكذلك ما ذكرنا من الجواب علىٰ الشبهة الأولىٰ، وحاصله: أن التوسّل بالوسائط الإلهية التي أمر الله عزّ وجلّ بالتوجّه إليها هي عبادة لله تعالىٰ وطاعة وانصياعاً لأوامره وليس هو عبادة للوسائط، بل قلنا إن التوسّل طوعانية للأوامر الإلهية وهو عين التوحيد التام، فالتوسل مقتضىٰ التوحيد في العبادة وجحوده وإباؤه هو الاستكبار والكفر المنافي لكلمة التوحيد، ونبذ التوسّل جاهلية إبليس الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين، فالتوسّل بالوسيلة المنصوبة لله تعالىٰ هو قصد لله والصدّ عن تلك الوسيلة صدّ عن التوجّه إليه تعالىٰ؛ لأن المفروض أن تلك الوسيلة والآية والكلمة هي علامة يُهتدىٰ بها إليه تعالىٰ، وتفتّح بها أبواب سماء الحضرة الإلهية، والعلامة سمة ووسم وإسم إلهي يُدعىٰ به، بل إن قول القائل التوسّل بالله معنىٰ مقلوب غير صحيح، فإنّ الباري تعالىٰ لا يجعل وسيلة إلىٰ غيره؛ إذ ليس وراء الله منتهىٰ ولا غاية كي يجعل هو تعالىٰ واسطة إليها، بل هو غاية الغايات، وإلىٰ شموخ عظمته توسّط الوسائط ويتوسّل بالوسائل، وقد تقدّم أن الاعتقاد بضرورة الواسطة والوسيلة إلىٰ الله تعالىٰ هو حاقّ حقيقة تعظيم الله وتنزيهه، ولم ينكر القرآن علىٰ المشركين هذه العقيدة، وهي ضرورة الحاجة إلىٰ الوسيلة بين العبيد وخالقهم؛ ليقتربوا من خالقهم، لضرورة الحاجة إلىٰ التقرّب والنجاة

من البعد من جهة العبيد، وإن كان الباري تعالىٰ قريب من كل مخلوقاته علىٰ السواء، إلّا أن مخلوقاته ليست في القرب منه على استواء ولا في القرب من عظمته ونوره وعلمه وقدرته علىٰ سواسية، فضرورة الحاجة إلىٰ الوسيلة والقيام بالتقرب ضرورة نابعة من العبودية والفقر إلىٰ الغني المطلق، وهذا ما لم ينكره القرآن على المشركين، كيف وهي عين التوحيد والتعظيم، بل إنما أنكر عليهم اتخاذ الوسائل والوسائط من قبل أنفسهم ومن قرائحهم ومن فرض إرادتهم في تعيين الوسيلة علىٰ إرادة الله، وهي من تكبّر المعبود علىٰ العابد، فالإنكار عليهم نشأ من كونهم توسّلوا بوسائل وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، ومن ذلك يكون الجاحدون لضرورة التوسّل بالوسائط المنصوبة من قبله تعالىٰ أشدّ جاهلية من المشركين؛ لأنهم لا يرجون لله وقاراً ولا تعظيماً، فيجعلون الباري تعالىٰ منالاً تحت أيديهم، لأن إنكار الحاجة إلىٰ الوسيلة والوسائل هو إنكار لعظمة الله وكبريائه وعلوّ شأنه ورفعته وعزّته وجبروته وكينونته بالأفق الأعلىٰ، في حين قاهريته تعالىٰ وهيمنته علىٰ تمام مخلوقاته وأنه خبير بصير، إلّا أن الحال من ناحية المخلوق تجاه الخالق هو بُعد المخلوق عن معرفة خالقه وبعده عن مقام الزلفىٰ لباريه وكذا بعده عن حظوة الكرامة عند خالقه، وبعده عن استحقاق الإجابة والمنّ والتفضّل الإلهي، بعد كون المخلوق في حُجب التقصير والقصور والجهل والجهالة، مما يستحق بها الطرد لا القرب والإبعاد لا الدنو والعقوبة لا الثواب والحرمان لا الإنعام، فكل هذه الحجب المانعة عن القرب يزيلها العبد بوجاهة الوسيلة عند الربّ العظيم، لا سيّما وأن اللجوء إلىٰ الوسيلة التي هي آية للربّ المتعال هو لَجأ إلىٰ الجناب الإلهي،

وتعظيمها تعظيم للفعل الإلهي وزيادة خضوع للربّ بالخضوع إلىٰ ما هو بمنزلة صفاته في مقام الفعل فضلاً عن مقام ذات عزّه تعالىٰ.

الشبهة الثالثة: التوسّل مخالف للآيات القرآنية

حاول أصحاب هذه الشبه الاستناد إلىٰ بعض الآيات القرآنية، وادّعوا أنها تدلّ علىٰ أن التوسّل والقصد لا يكون إلّا لله عزّ وجلّ، وأن التوسّل بغيره شرك وإلحاد، منها الآيات التالية:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[(١)].

فقوله تعالىٰ: ﴿ **فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ معناه أنه في مقام الدعاء والتوجّه لا يُدعىٰ إلّا بأسماء الله عزّ وجلّ، وأما غير الأسماء الإلهية فيشملها قوله تعالىٰ: ﴿ **وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** ﴾ أي ينحرفون عنها إلىٰ أسماء المخلوقات، كقول القائل: يا محمّد ويا عليّ ويا فاطمة، فإن هذا ـ بحسب زعمهم ـ انحراف وإلحاد في أسماء الباري تعالىٰ.

٢ - قوله تعالىٰ: ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾[(٢)].

٣ - قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾[(٣)].

٤ - قوله تعالىٰ: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ**

---

(١) الأعراف: ١٨.

(٢) الجن: ١٨.

(٣) يونس: ١٠٦.

اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾(١).

٥ - قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُواْ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾(٢).

هذه الآيات المباركة لسانها واحد واستدلالهم بها قريب من الاستدلال بالآية الأولىٰ، حيث أن هذه الآيات القرآنية تنهى عن أن يدعو الإنسان مع الله أحداً، أي لا يعبد مع الله مخلوقاً من المخلوقات، وإذا كان الدعاء روح العبادة وقوامها فسوف يكون منهياً عنه بمقتضىٰ صريح هذه الآيات الكريمة؛ لكونه من الشرك الصريح.

٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾(٣).

٧ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾(٤).

وهذا اللسان من الآيات القرآنية يؤكّد علىٰ أن التوجّه إلىٰ الغير بغية الاستنصار به شرك ومغالاة يوجب الخذلان الإلهي.

٨ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾(٥).

٩ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

---

(١) الحج: ٦٢.

(٢) الجن: ٢٠.

(٣) آل عمران: ١٢٦.

(٤) آل عمران: ١٦٠.

(٥) يونس: ١٨.

زُلْفَى ﴾(١).

فهاتان الآيتان دلّتا على وجوب نبذ مقالة المشركين الذين جعلوا أصنامهم شركاء في الدعاء والتوسّل والتقرّب والتشفّع والوساطة بينهم وبين الله عزّ وجلّ، والإسلام جاء لكسر مثل هذه الأصنام وإبطال عقيدة الصنمية والوثنية والمغالاة والتشفّع والتوسّل بغير الله تعالىٰ، وهو ما ابتلىٰ به مشركو العرب، إذ لم يكن شركهم في ذات الله تعالىٰ أو صفاته، بل كان شركهم شركاً في العبادة والدعاء والاستغاثة والتوسّل.

فيُعلم من هذه الآيات أن التوحيد في العبادة والدعاء والاستغاثة والتوسّل أساس الدين، وهدف الرسالة الإسلامية الخاتمة، وذلك لأن صحة الأعمال والنسك العبادية مشروطة بصحّة العقيدة، فمن يعمل ويعبد وكان في معتقده الدينيّ شيء من الغلو والصنمية للأشخاص يحبط عمله كلّه، ويستدلّون لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٢)، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٣)، فصحّة العقيدة بالتوحيد شرطاً في صحة وقبول الأعمال، ولابدّ حينئذٍ من نبذ كلّ ما يوجب الشرك وبطلان العقيدة، كالتشفّع والتوسّل بغير الله تعالىٰ.

الجواب عن الشبهة الثالثة:

الشبهة الثالثة عبارة عن تمسّكهم ببعض الآيات القرآنية التي زعموا أنها

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) الزمر: ٦٥.

(٣) الأنعام: ٨٨.

تنهىٰ عن التوجّه والقصد إلىٰ غير الله عزّ وجلّ منها:

قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** ﴾(١)، فلا يجوز التوسّل والدعاء بغير الأسماء الحسنىٰ التي جاءت في قوله تعالىٰ: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾(٢).

إذن لابدّ من التوحيد في الدعاء الذي هو مخّ العبادة ولا يجوز القصد والتوجّه في الدعاء إلىٰ غير الله عزّ وجلّ وأسمائه الحسنىٰ؛ لأنه شرك وإلحاد بالأسماء الإلهية.

الجواب الأول: حقيقة الأسماء الالهية مستند للتوسّل

في البدء لابدّ من الإجابة عن التساؤل التالي:

ما هو المراد من الأسماء الإلهية الواردة في الآيات المباركة؟

الاسم في اللغة عبارة عن السّمة والعلامة.

قال ابن منظور: (واسم الشيء علامته).

(قال أبو العباس: الاسم وسمة توضع علىٰ الشيء يُعرف به، قال ابن سيدة: والاسم اللفظ الموضوع علىٰ الجوهر أو العرض لتفصل به بعضه عن بعض، كقولك مبتدئاً: اسم هذا كذا).

(قال أبو إسحاق: إنما جعل الاسم تنويهاً بالدلالة علىٰ المعنىٰ)(٣).

---

(١) الأعراف: ١٨٠.

(٢) الإسراء: ١١٠.

(٣) لسان العرب: ج ١٤ ص ٤٠١ ـ ٤٠٣.

إذن اسم الشيء سمته وعلامته وصفته الدالّة عليه.

والأسماء والصفات تنقسم إلىٰ ذاتية وفعلية، فللّه تعالىٰ أسماء وصفات ذاتية هي عين ذاته غير زائدة عليها، وله عزّ وجلّ أسماء وصفات فعلية هي عين فعله.

فالقدرة والعلم والحياة صفات ذاتية يُشتقّ منها القادر والعالم والحيّ، وهي أسماء ذاتية غير زائدة على الذات الإلهية المقدّسة.

والخلق والرزق والتدبير والربوبية والحكم والعدل وغيرها صفات فعلية يشتقّ منها أسماء فعلية، هي الخالق والرازق والمدبّر والربّ والحكم والعدل، ولا ريب أن الأسماء الفعلية غير الذات وليست عينها مخلوقة لها مشتقّة من أفعاله عزّ وجلّ.

ولا ريب أيضاً أن جملة وافرة من الأسماء الإلهية هي أسماء فعلية مشتقّة من أفعاله ومخلوقاته تعالىٰ.

والمخلوق يكون اسماً لله عزّ وجلّ بملاحظة صدوره من خالقه وأنه فقير له متقوّم به ليس له من نفسه شيء، دالّ بسبب افتقاره بما فيه من كمال علىٰ كمال خالقه وباريه، فهو سمة وعلامة على صانعه، وما فيه من عظمة وحكمة دالّة علىٰ عظمة وحكمة الخالق؛ إذ ليس له من ذاته إلّا الفقر والاحتياج.

الجواب الثاني: الكلمة والآية:

إن الكلمة والآية مع الاسم متقاربة المعنىٰ متّحدة المضمون، فهي وإن لم تكن ألفاظاً مترادفة، إلّا أن مضمونها والمراد منها في اللغة وفي القرآن الكريم واحد، وهو الدلالة على الشيء والعلاميّة والمرآتية له.

ففي لسان العرب:

(الآية العلامة) (وأيّا آية: وضع علامة).

وفيه أيضاً: (وقال ابن حمزة: الآية في القرآن كأنها العلامة التي يفضىٰ منها إلىٰ غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية)(١).

كذلك قال في اللسان:

(كلمات الله أي كلامه وهو صفته وصفاته)(٢).

أضف إلىٰ ذلك أن الكلمة في حقيقتها دالّة على مراد المتكلم وكاشفة عنه.

إذن الأسماء والآيات والكلمات في شطر وافر منها عبارة عن مخلوقات دالّة بوجودها علىٰ وجود صانعها، ودالّة بعظمتها واتقانها وهادفيتها علىٰ عظمة وقدرة وحكمة الباري عزّ وجلّ، ومن ثمّ يكون كلّ مخلوق إسماً من أسماء الله تعالىٰ وآية من آياته وكلمة من كلماته، ولكن الأسماء والآيات والكلمات علىٰ درجات في الصغر والكبر، فكلّما كان الاسم أعظم والآية أكبر، لما أعطيت من المقامات والكرامات الإلهية كلّما كانت آيتيّة ذلك المخلوق وإسميته أعظم، لا سيما المخلوق الأول وهو نور النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

وقد ورد هذا الاستعمال في القرآن الكريم في موارد كثيرة جدّاً، منها:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾(٣).

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا

---

(١) لسان العرب: ج ٤ ص ٦١ ـ ٦٢.

(٢) لسان العرب: ج ١٢ ص ٥٢٢.

(٣) المؤمنون: ٥٠.

آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾(١).

٣ـقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾(٢).

٤ـقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾(٣).

٥ـقوله تعالىٰ: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٤).

فقد أطلق في هذه الآيات المباركة على مريم عليها السلام أنها آية، وعلىٰ عيسىٰ عليه السلام أنه كلمة الله وآيته للعالمين.

٦ـقوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٥).

٧ـقوله تعالىٰ: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٦).

٨ـقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

---

(١) الأنبياء: ٩١.
(٢) آل عمران: ٤٥.
(٣) النساء: ١٧١.
(٤) آل عمران: ٣٨ـ٣٩.
(٥) البقرة: ٣١.
(٦) البقرة: ٣٧.

إمَامًا ﴾[1].

٩ ـ **﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾**[2].

فإن هذه المخلوقات العظيمة عند الله عزّ وجلّ أسماء وآيات وكلمات وعلامات لله تعالىٰ، وحينئذٍ تكون مشمولة لإطلاق قوله تعالىٰ: **﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾**[3] فهذه الآية المباركة وغيرها، التي ذكروها للتدليل على مدّعاهم لا تعني النهي عن التوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ بالوسائط، بل هي توجب وتعيّن التوجّه إلىٰ الله تعالىٰ بأعاظم مخلوقاته وأسمائه الفعلية.

إذن ليست الآية المباركة غير صالحة للاستدلال بها علىٰ مدّعاهم فحسب، بل هي تحكمهم وتدينهم بالإلحاد عن أسمائه وتنصّ علىٰ ضرورة توسيط الأسماء الإلهية والمخلوقات الوجيهة عند الله تعالىٰ، ولابدّ من عدم الالحاد فيها والاعراض عنها في الدعاء.

لكن لابدّ من الالتفات إلىٰ أن النظرة إلىٰ الوسائط لابد أن لا تكون نظرة استقلالية وموضوعية وبما هي هي، بل لابدّ أن تكون نظرة آلية حرفية آيتيّة، أي بما هي يُنظر بها إلىٰ الله تعالىٰ، فالتوجّه بها لا إليها بما هي هي.

وبناء علىٰ ذلك يكون التعاطي مع الأسماء والآيات والوسائط علىٰ ثلاثة مناهج:

الأول: منهج إبليس وهو رفض وساطة الآيات والأسماء والمخلوقات

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) الأنعام: ١١٥.

(٣) الأعراف: ١٨٠.

الوجيهة عند الله عزّ وجلّ وإنكارها والإلحاد بها والصدّ عنها، وهذا شرّ المناهج، وهو الكفر والحجاب الأعظم؛ إذ مع الالحاد في تلك المخلوقات العظيمة والأسماء الإلهية لا يمكن التوجّه والزلفىٰ إلىٰ الله عزّ وجلّ؛ لأنه ليس بجسم وهو حقيقة الحقائق والمقوّم لها، فلا يجابه ولا يقابل، فلابدّ من التوجّه إلىٰ المظاهر والمجالي والآيات.

الثاني: وهو منهج المغالين الذين ينظرون إلىٰ الأسماء الإلهية بالنظرة الاستقلالية وبما هي هي ويتوجّهون إليها لا بها، وهذا أيضاً من الشرك والحجاب الذي يمنع عن معرفة الله تعالىٰ، ولكنّه أهون من سابقه؛ إذ أصحابه علىٰ سبيل نجاة فيما إذا شملهم الله عزّ وجلّ بلطفه ورأوا ما وراء الآية من الحقائق، بخلاف من أعرض عن الآية بالمرّة.

الثالث: التوجّه بالآيات وتوسيطها في الدعاء، وهذا هو التوحيد التام الذي يوصل إلىٰ معرفة الله تبارك وتعالىٰ.

فالنظرة في هذا المنهج إلىٰ الأسماء الإلهية الفعلية من حيث هي مخلوقة للباري تعالىٰ ومرتبطة به ومفتقرة إليه ودالّة عليه، وأكرم المخلوقات وأعظم الآيات هم النبيّ الأعظم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام؛ إذ حباهم الله عزّ وجلّ بالكرامات والمقامات التكوينية، التي تفضل جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين، فهم عليهم السلام الأسماء التي تعلّمها آدم وفُضل بها علىٰ الملائكة كلّهم أجمعون، وذلك بنصّ سورة البقرة في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾(١)، حيث

---

(١) البقرة: ٣١.

جاء التعبير فيها بـ(عرضهم) ولم يقل: عرضها، وكذا التعبير بـ(هؤلاء) ولم يقل: هذه، كلّ ذلك يدلّ علىٰ أن تلك الأسماء موجودات نورية مخلوقة حيّة شاعرة عاقلة، أفضل من جميع الملائكة، ولم يعلم بها الملائكة ولا يحيطون بها وهي تحيط بهم وهي أوّل ما خلق الله تعالىٰ، فهم عباد ليس علىٰ الله أكرم منهم، أُسند إليهم ما لم يسند إلىٰ غيرهم، ومكّنهم الله عزّ وجلّ ما لم يمكّن به غيرهم بإرادته وإذنه وسلطانه.

والحاصل: إن تلك الآيات التي ذكروها لنفي التوسّل تدلّ على ضرورة التوجّه والتشفّع والتوسّل بالآيات الكبرىٰ، والأسماء الفعلية الحسنىٰ والعظمىٰ وهم محمّد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام -إلىٰ الله عزّ وجلّ، والباء في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ للتوسيط وجعل الآيات والأسماء واسطة؛ ولذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«ياهشام الله مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهاً، والاسم غير المسمّىٰ، فمن عبد الإسم دون المعنىٰ فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنىٰ فقد أشرك وعبد الإثنين، ومن عبد المعنىٰ دون الإسم فذاك التوحيد، أفهمت ياهشام؟ قال: قلت: زدني، قال: لله تسعة وتسعون إسماً فلو كان الإسم هو المسمىٰ لكان كل إسم منها إلهاً، ولكن الله معنىٰ يُدلّ عليه بهذه الأسماء وكلّها غيره. ياهشام الخبز اسم للمأكول والماء اسم للمشروب والثوب اسم للملبوس والنار إسم للمحرق، أفهمت ياهشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا المتخذين مع الله عزّوجلّ غيره، قلت: نعم، فقال: نفعك الله به وثبّتك ياهشام،

قال: فوالله ما قهرني أحد في التوحيد حتىٰ قمت مقامي هذا»[١]، فبيّن عليه السلام أن الإسم غير المسمىٰ وهو الذات الإلهية ومغاير لها، ولو كان الاسم هو عين الذات الإلهية لكان كل اسم إلهاً ولتكثرت الآلهة، ولكن الله ذات أحدية واحدة يُدلّ عليه وله علامات هي هذه الأسماء المتكثرة المتعدّدة، فالأسماء آيات وعلامات وكلمات دالّة ووسيلة إلىٰ الذات، فظهر أن قوله تعالىٰ: **﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾**[٢] برهان قرآني علىٰ ضرورة الوسيلة، وهي الكلمات والآيات الإلهية، بأن يدعىٰ الله بها، فلا يُدعى الله بدونها، بل لابدّ من توسيطها في دعاء الله، وذلك بالتوجّه بها إليه، فلابدّ من تعلّق التوجّه بها كي يتوجّه منها إلىٰ الله، ولابدّ من تعلّق الدعاء بها ليتحقّق دعاء الله تعالىٰ، وقد جعلت الآية الإعراض عن الأسماء والكلمات والآيات الإلهية إلحاداً ومجانبة وزيغاً عن الطريق إلىٰ الله، ومن ثمّ قد أُكّد في الآية أن الأسماء الإلهية بكثرتها الكاثرة هي برمّتها ملك لله تعالىٰ مملوكة له، فالاستخفاف بها استخفاف بالعظمة الإلهية، وجحود وساطتها استكبار وتمرّد علىٰ الشأن الإلهي، ومنه يعرف اتحاد الإسم والوجه وأن الأسماء هي وجه الله التي يتوجّه بها إليه، وأن من له وجاهة ووجيه عند الله هو وجه لله يتوجّه به إليه تعالىٰ، فيكون إسماً وآية وكلمة لله تعالىٰ.

نعم بين الأسماء والكلمات والآيات درجات وتفاضل في الدلالة عليه تعالىٰ عظمة وكبراً.

وذلك لأن الاسم إذا كان من أسماء الأفعال يكون مخلوقاً لله تعالىٰ وآية من

---

(١) توحيد الصدوق: ص ٥٢١، أصول الكافي: ج ١ ص ٨٩ باب معاني الأسماء واشتقاقها ح ٢.
(٢) سورة الأعراف ٧: ١٨٠.

آياته، فالعبادة ليست له، بل لباريه تعالىٰ، ومن ثم يتوجّه إليه كمرآة وآية يُنظر بها ولا ينظر إليها؛ ولذا تكون إسماً وعلامة، وأما إذا نظر إلىٰ الاسم بما هو هو، فيكون حينئذٍ صنماً موجباً للشرك والكفر وهو الغلو المنهيّ عنه، ولكن هذا لا يعني رفض الأسماء والوسائط، فإن ذلك يحجب عن المسمّىٰ أيضاً، فلا يلحد بها ولا ينظر إليها بالاستقلال بل ينظر بها، وذلك لما بيّناه سابقاً من أنه لا تعطيل ولا تشبيه، فالالحاد في الأسماء تعطيل للباري بعد عدم كونه جسماً يقابل أو يجابه أو يشابه مخلوقاته وهو نفي الجسميّة، فلا محيص عن التوجّه بالأسماء، لا سيّما الاسم الأعظم وهو أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ، نور النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، الذين بواسطتهم وصل آدم إلىٰ ما وصل إليه من الخلافة، عندما علّمه الله عزّ وجلّ تلك الأسماء الحيّة الشاعرة العاقلة المجرّدة النوريّة، التي هي أعظم آيات الباري تعالىٰ وأفضل من جميع الملائكة.

الكلمات التامّات:

هناك آيات عديدة تدلّ بمعونة الروايات الواردة فيها ـ علىٰ أن الكلمات التامّات والآيات الكبرىٰ لله عزّ وجلّ هم النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام منها:

١ ـ ما تقدّم من قوله تعالىٰ: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾(١)، وقد سبق تقريب الاستدلال بهذه الآية المباركة، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إن الله تبارك وتعالى كان ولا شيء، فخلق خمسة من نور جلاله، وجعل لكلّ واحد منهم إسماً من أسمائه المنزلة، فهو الحميد وسمّىٰ النبيّ محمّداً ﷺ، وهو الأعلى وسمّىٰ**

---

(١) البقرة: ٣١.

أمير المؤمنين عليه السلام علياً، وله الأسماء الحسنىٰ فاشتقّ منها حسناً وحسيناً، وهو فاطر فاشتقّ لفاطمة من أسمائه إسماً، فلمّا خلقهم جعلهم في الميثاق، فإنهم عن يمين العرش، وخلق الملائكة من نور، فلما نظروا إليهم عظّموا أمرهم وشأنهم ولقّنوا التسبيح فذلك قوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾(١) فلمّا خلق الله تعالى آدم صلوات الله وسلامه عليه نظر إليهم عن يمين العرش، فقال: ياربّ مَنْ هؤلاء؟ قال: ياآدم هؤلاء صفوتي وخاصّتي، خلقتهم من نور جلالي وشققت لهم إسماً من أسمائي، قال: ياربّ فبحقّك عليهم علّمني أسماءهم، قال: ياآدم فهم عندك أمانة، سرّ من سرّي، لا يطّلع عليه غيرك إلّا بإذني، قال: نعم ياربّ، قال: ياآدم أعطني على ذلك العهد، فأخذ عليه العهد، ثم علّمه أسماءهم ثم عرضهم على الملائكة، ولم يكن علّمهم بأسمائهم، ﴿ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾(٢) علمت الملائكة أنه مستودع وأنه مفضّل بالعلم، وأُمروا بالسجود إذ كانت سجدتهم لآدم تفضيلاً له وعبادة لله، إذ كان ذلك بحقّ له، وأبىٰ إبليس الفاسق عن أمر ربّه»(٣).

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾، ويمكن تقريب دلالة الآية إجمالاً علىٰ كون الكلمات هي النبي وأهل بيته بما تقدّمت الإشارة من

---

(١) الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) البقرة: ٣١ و٣٢ و٣٣.

(٣) تفسير فرات الكوفي: ص٥٦، كمال الدين وتمام النعمة: ص١٤، الهداية الكبرى للخصيبي: ص٤٢٨ (واللفظ للأول).

إطلاق الكلمة في القرآن الكريم على النبي عيسىٰ عليه السلام بما هو حجّة لله اصطفاه على العباد، فمنه يعرف أن الكلمة في استعمال القرآن تطلق علىٰ حجج الله وأصفيائه، ويشير إلىٰ ذلك أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً** ﴾[1] حيث تومئ الآية إلىٰ كون كلمة الله تعرف بالصدق والعدالة وهو وصف لحجج الله، وهذا الوصف أحرىٰ بالصدق علىٰ سيد الأنبياء بعد صدقه على النبي عيسىٰ عليه السلام، وقد وردت بذلك الروايات من الفريقين كما سيأتي معتضداً ذلك بأن الأسماء التي تعلّمها آدم وشرّف بها على الملائكة قد مرّ أنها عرّفت بضمير الجمع للحي الشاعر العاقل وأُشير إليها بإسم الإشارة للجمع الحي الشاعر العاقل، مما يدلُّ على أنها موجودات وكائنات حيّة شاعرة عاقلة، نشأتها في غيب السماوات والأرض لعدم علم ملائكة السماوات والأرض بها، كما أُشير إلىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾[2] ولا ريب أن أشرف الكائنات بنصوصية الكثير من الآيات وروايات الفريقين هو سيد الأنبياء، كما قد تبيّن أن الكلمات التي بشرفها قُبلت توبة آدم أوّلها وأسماها هو سيد الأنبياء، وحينئذٍ تُبيّن الآيات أن تلك الأسماء والكلمات حيث عبّر عنها بلفظ الجمع يقتضي أن مع سيد الأنبياء حجج آخرين لله تعالىٰ شُرّف بمعرفتهم آدم وتاب الله بهم عليه، ولا نجد القرآن الكريم يُنزّل منزلة نفس النبي أحداً من الأنبياء والرسل، بل نزل علي بن أبي طالب منزلة نفس النبي صلى الله عليه وآله وهذه خصيصة اختصّ هو عليه السلام بها، كما لم يُشرك الله تعالىٰ في طهارة

---

(١) سورة الأنعام ٦: ١١٥.

(٢) سورة البقرة ٢: ٣٣.

النبي وعصمته ونمط حجيّته وعلمه بالكتاب كلّه مع العديد من المقامات الأخرىٰ أحداً من أنبيائه ورسله، لكنه أشرك أهل بيته، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، كما في آية التطهير والمباهلة ومسّ الكتاب من المطهرين من هذه الأمة وغيرها من الآيات النازلة فيهم.

فتبيّن أن قرين سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله في المراد من الكلمات والأسماء هم أهل بيته عليهم السلام.

وقد ورد في كتب الفريقين من السنّة والشيعة أن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه هم النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فدعا الله عزّ وجلّ بواسطة الكلمات فتاب عليه.

منها: ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«لما اقترف آدم الخطيئة، قال: ياربّ أسألك بحقّ محمّد لمّا غفرت لي، فقال: ياآدم وكيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟، قال: ياربّ لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فعلمت أنك لم تُضف إلى إسمك إلّا أحبّ الخلق إليك، فقال: صدقت ياآدم إنه لأحبّ الخلق إليّ، ادعني بحقّه فقد غفرت لك ولولا محمّد ما خلقتك»**(١)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد.

ومنها: ما أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل عن ابن عباس قال: **«سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، قال:**

---

(١) المستدرك: ج٢ ص٦١٥.

سأل بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت علي فتاب عليه»[١].

ومنها: ما أخرجه السيوطي عن الإمام علي عليه السلام أنه ذكر أن الله عزّ وجلّ علّم آدم الكلمات التي تاب بها عليه وهي: **«اللّهم إني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد سبحانك لا إله إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم.**

اللّهم إني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد سبحانك لا إله إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم، فهؤلاء الكلمات التي تلقّىٰ آدم»[٢].

٣ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ** ﴾[٣].

فالكلمة أُطلقت علىٰ عيسىٰ عليه السلام، وهذا الإطلاق غير خاص به عليه السلام، بل هو شامل لكلّ الأنبياء لا سيما أولوا العزم منهم ولا سيما خاتم النبيين، فهو أفضل الأنبياء وسيّدهم وأعظمهم، فلا محالة يكون هو الكلمة الأتمّ، وكذا من هم نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وهم أهل بيته عليهم السلام.

٤ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾[٤]

فإن إبراهيم عليه السلام بلا شك كلمة وآية من آيات الله تعالىٰ؛ لأنه أفضل من عيسىٰ عليه السلام، ومع ذلك امتحنه الله عزّ وجلّ بكلمات تفوقه في المقام والمنزلة، ولمّا ثبت في الامتحان فاز بمقام الإمامة بعد الخلّة والنبوّة والرسالة، فلا محالة

---

(١) شواهد التنزيل: ج ١ ص ١٠١.

(٢) الدر المنثور: ج ١ ص ٦٠.

(٣) النساء: ١٧١.

(٤) البقرة: ١٢٤.

تكون الكلمات هم سيد الأنبياء ﷺ وآخرين غير النبي إبراهيم والنبي عيسىٰ وموسىٰ وآدم عليهم السلام.

والكلمات كما جاء في الروايات ـ هم خمسة أصحاب الكساء، فإبراهيم نال مقام الخلافة في الأرض والزلفىٰ عند الله عزّ وجلّ بالكلمات، كما أن آدم فضّل علىٰ الملائكة وأصبح مسجوداً لهم لتعلّمه الأسماء الحسنىٰ والآيات العظمىٰ، وهم أهل آية التطهير عليهم السلام.

وكذلك آدم تسنّم مقام الخلافة الإلهية بتوسّط علم الأسماء الحيّة العاقلة النوريّة، التي تحيط بجميع المخلوقات، ولا يحيط بها مخلوق من المخلوقات إلّا بما شاء الله عزّ وجلّ.

عن المفضّل بن عمر عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ما هذه الكلمات؟

قال: «**هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب الله عليه، وهو أنه قال: أسألك بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ، فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم**»(١).

٥ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾(٢).

وقد كان المعصومون الأربعة عشر كلّهم عليهم السلام يقرأون هذه الآية عند ولادتهم، فهم الكلمات التامات التي تمّت صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته، وقد مرّت الإشارة إلىٰ أن نعت الكلمة بالصدق والعدالة يشير إلىٰ حجج الله فيما

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ص٣٥٨.

(٢) الأنعام: ١١٥.

يؤدّونه عن الله وما هي عليه سيرتهم من الصدق والعدل والعدالة، هذا كلّه بالنسبة إلىٰ الجواب الأوّل وتفصيلاته.

الجواب الثالث: الآيات القرآنية

١ ـ وهو ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمجْرِمِينَ** ﴾(١).

الاستكبار علىٰ الآيات الوارد في هذه الآية المباركة نظير ما فعله إبليس، حيث أبىٰ واستكبر أن يسجد لآدم، فكذّب بآية من آيات الله تعالىٰ، وذلك عندما قال: ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾(٢) وقد استند في تكذيبه هذا إلىٰ القياس الباطل وهو لا يعلم حقائق دين الله تعالىٰ، ولا يعلم أن جانباً آخر في آدم نوريّ يعلو علىٰ النار هو الذي أهّله لذلك المقام، وليس الطين إلّا وجوده النازل المادّي.

ثم إن الآية المباركة ذكرت أثراً آخر من آثار التكذيب بالآيات الإلهية والاستكبار عليها، حيث قالت: ﴿ **لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ** ﴾، ومن الواضح أن أبواب السماء إنما تفتّح حين الدعاء والعبادة والتوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ وحين إرادة الزلفىٰ والقرب، وكذلك لتصاعد الإيمان والعقيدة، كما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾(٣)، فهذه الآية المباركة تقول إن الذين يكذّبون بآيات الله تعالىٰ وأسمائه وكلماته ويستكبرون عنها كما فعل إبليس لا

---

(١) الأعراف: ٤٠.

(٢) الأعراف: ١٢.

(٣) سورة فاطر ٣٥: ١٠.

تفتّح لهم أبواب السماء، فلا يمكنهم أن يدعوا الله أو يتقرّبوا إليه، ولا يستجاب لهم دعاؤهم ولا عباداتهم كالصلاة والصوم والحجّ.

والربط بين ترك الآية والاعراض عنها والاستكبار عليها وبين عدم القرب وعدم قبول الدعاء وعدم تفتّح الأبواب هو أن الله عزّ وجلّ ليس بماديّ ولا بجسم، فلا يمكن أن يقابل أو يجابه فلا زلفىٰ إلّا بالآيات والإيمان بها والطاعة والخضوع لها والتوجّه بها إلىٰ الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾، وقد مرّ في هذا الفصل وفي الفصل الثالث أن الآيات هم الحجج المصطفون، فلابدّ عند إرادة التوجّه إلىٰ سماء الحضرة الإلهية بالدعاء والعبادة والازدلاف من التوجّه بهم والتوسّل بهم؛ لأن ذلك مفتاح فتح أبواب السماء، فهذه الآية تتشاهد وتتطابق مع الآية المتقدمة من قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(١) وأن الأسماء التي يُدعىٰ بها في مقام الدعاء والفوز علىٰ الله هي الآيات التي لابدّ من الإيمان بها والخضوع والإقبال عليها والتوجّه بها إلىٰ الحضرة السماوية.

وهذا المضمون هو ما ورد في الروايات المتواترة من أن ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط في قبول الأعمال والعقائد، فإمامتهم عليهم السلام مقام من مقامات التوحيد في الطاعة، وهي شرط التوحيد وكلمة لا إله إلّا الله، فمن لا ولاية ولا طاعة له لا يقبل الله عزّ وجلّ له عملاً، كما هو الحال في إبليس، حيث لم يقبل الله عزّ وجلّ أعماله، ولم يقم له وزناً وطُرد من جوار الله وقربه.

---

(١) سورة الأعراف ٧: ١٨٠.

إذن من لا يذعن بالواسطة والولاية لا يقبل له عمل، لأنه لا تفتّح له الأبواب، ولا يكون ناجياً يوم القيامة ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾.

٢ ـ وهو قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[(١)]، فهذه الآية جاءت في سياق واحد مع قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[(٢)]، فالسياق الواحد في هذه الآيات دالّ علىٰ أن ما فعله إبليس كان إنكاراً وظلماً لآية من آيات الله تعالىٰ، ودالّ أيضاً علىٰ أن ثقل الميزان والقرب وقبول الأعمال إنما يتمّ بالخضوع للآيات والإيمان بها.

وليست الأصنام إلّا الوسائل والوسائط المقترحة.

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[(٣)]، وتقريب الاستدلال بهذه الآية كالتقريب الذي تقدّم في الآيات التي سبقتها، ولا يخفىٰ ما في التعبير بـ(عنها) دون التعبير بـ(عليها) من دلالة علىٰ الاعراض والإنكار لوساطة الآيات الإلهية، وأنه موجب لبطلان الأعمال والخلود في النار.

---

(١) الأعراف: ٩.

(٢) الأعراف: ١١ ـ ١٣.

(٣) الأعراف: ٣٦.

الشبهة الرابعة: الأعمال الصالحة هي الوسيلة

التوسّل والوسيلة حقيقة العقيدة بالنبوّة والرسالة

لقد قام أصحاب هذا الاتجاه المنكر لمبدأ التوسّل بتوجيه قوله تعالىٰ: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾(١)، حيث فسّروا الوسيلة في هذه الآية بالطاعات والقربات والأعمال الصالحة التي يتقرّب بها العبد إلىٰ ربّه.

وقد ورد في الأحاديث بأن العبد لا يتقرّب إلىٰ الله عزّ وجلّ إلّا بالطاعة والعمل الصالح، فطوعانية العبد لربّه هي وسيلته الوحيدة، وليس بين الله وبين خلقه قرابة وقرب إلّا بالطاعة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ فالجنّة يدخلها المطيع ولو كان عبداً حبشياً والنار يدخلها العاصي ولو كان سيّداً قرشيّاً.

الجواب عن الشبهة الرابعة:

كان حصيلة الشبهة الرابعة هو تمسّكهم بقوله تعالىٰ: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ حيث فسّروا الوسيلة بالأعمال الصالحة من البرّ والتقوىٰ والورع وسائر العبادات، وأن طوعانية العبد لربّه هي الوسيلة الوحيدة للنجاة والفوز بالجنة.

وفي المقدّمة نحن لا ننفي كون الأعمال الصالحة وسيلة من وسائل القرب إلىٰ الله عزّ وجلّ، ولكن نريد أن نقول هي أحد مصاديق الوسيلة وليست الوسيلة منحصرة بها، وذلك بمقتضىٰ نفس زعمهم من أن الوسيلة هي الأعمال الصالحة والطاعات، حيث أن أعظم الأعمال الصالحة والطاعات هو الإيمان بالله ورسوله؛ إذ لا يقاس بالإيمان بقيّة الأعمال من الصلاة والصيام والحج وغيرها،

---

(١) المائدة: ٣٥.

بل إن بقية الأعمال لا تقبل ولا يثاب عليها الإنسان إلّا بالإيمان، فإذا كان الإيمان أعظمها، والإيمان هو الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، بل إن الإيمان بالرسول ﷺ هو الهادي إلىٰ حقيقة التوحيد، فيكون الإيمان بالرسول ﷺ من أعظم ما يتوسّل به إلىٰ الله عند الدعاء وعند العبادة وعند التوجّه إلىٰ الحضرة الإلهية، فهذا يقتضي كون الرسول ﷺ أعظم وسيلة، لأن الإيمان إنما حاز هذا الشرف العظيم ومكان الوساطة والوسيلية إلىٰ الله تعالىٰ ببركة تعلّق الإيمان بالنبي ﷺ، إذ شرف المعرفة بالمعروف الذي تعلّقت به المعرفة، كما أن شرف العلم بالمعلوم الذي تعلّق به العلم، فذات المعلوم والمعروف أشرف من العلم والمعرفة المتعلّقة بهما، ومن شرف ذات المعلوم المعروف ترشّح شرف العلم والمعرفة، فهذا يقضي بالضرورة أن أعظم الوسائل هو النبي الأكرم ﷺ ومن ثم نُعت في القرآن الكريم بأنه رحمة للعالمين، وهذا ما أشارت إليه الأدلّة المتضافرة من أنه ﷺ صاحب الوسيلة الكبرىٰ والشفاعة العظمىٰ.

ولكي تكون الاجابة واضحة لابدّ من التأمل في مفاد الآية المباركة، وذلك ضمن النقاط التالية:

النقطة الأولى: ما هو المراد من الوسيلة؟

لقد جاء التعبير في الآية الكريمة هكذا ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ولم يقل الله عزّ وجلّ (وابتغوه بالوسيلة)، وليس ذلك إلّا للتنبيه علىٰ أن الذي يُبتغىٰ ويُقصد لطلب الحوائج هو الوسيلة، التي تكون واسطة في الفيض بين العبد وربّه، ومعنىٰ الآية المباركة وابتغوا الوسيلة إليه، فالابتغاء والقصد والتوجّه بالوسيلة

إلىٰ الله عزّ وجلّ، ولا تتحقّق البُغية إلىٰ الله تعالىٰ إلّا بالوسيلة؛ ولذا لابدّ من تحديد ما هو المراد من الوسيلة.

إن روايات الفريقين متّفقة علىٰ أن الوسيلة مقام من المقامات المشهودة والسامية للنبيّ الأعظم ﷺ، وهي على طوائف متعدّدة:

منها: الطائفة التي فسّرت الوسيلة بالمقام المحمود ومقام الشفاعة المختصّ بالنبيّ الأكرم ﷺ، وذلك كقوله ﷺ: (سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة)(١)، وقد فهم بعض الشرّاح من هذا الحديث أن المقصود من الوسيلة فيه هي الشفاعة ذاتها(٢).

ولا شك أن الروايات نصّت علىٰ أن الشفاعة هي المقام المحمود، فالشفاعة التي هي المقام المحمود لا تحلّ على الشخص إلّا بسؤال ذلك الشخص مقام الوسيلة للرسول الأكرم ﷺ.

ومنها: الطائفة التي يظهر منها أن مقام الوسيلة والشفاعة والمقام المحمود مناصب متعدّدة للنبيّ الأكرم ﷺ، كقوله ﷺ: «**من قال حين يسمع النداء اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إلّا حلّت له شفاعتي يوم القيامة**»(٣)، وظاهر هذه الرواية تغاير المقامات الثلاثة وهي الوسيلة والمقام المحمود والشفاعة.

ومنها: الروايات التي ذكرت أن مقام الوسيلة منبر من نور ينصب للنبيّ ﷺ،

(١) مسند أحمد: ج٢ ص١٦٨.
(٢) تحفة الأحوذي / المباركفوري: ج١٠ ص٥٧.
(٣) سنن النسائي: ج٢ ص٢٧.

فعن النبيّ ﷺ في حديث له مع أمير المؤمنين عليه السلام، قال: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة وضع لي منبر بين الجنة والنار من نور، لذلك المنبر مائة مرقاة وهي الدرجة الوسيلة، ثم تحفّ بالمنبر النبيّون ثم الوصيّون ثم الصالحون ثم الشهداء، ثم يجاء إليّ، فيقال لي: يامحمّد قم فارقه، قال: فأرقى حتى أصير في أعلى مرقاة من المنبر -إلى أن قال ﷺ ثم يقال لك: إرقَ ياعليّ، فترقى ياأبا الحسن حتّى تصير أسفل منّي بمرقاة، فأناولك يميني وأقعدك على جنبي الأيمن، وأقول: هذا الموقف الذي وعدني ربّي أنه يعطني فيك»**(١).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«وفوق قبّة الرضوان منزل يقال له الوسيلة، وليس في الجنّة منزل يشبهه وهو منبر رسول الله ﷺ»**(٢).

ومنها: الروايات التي ذكرت أن مقام الوسيلة مقام حظوة وحبوة للنبيّ ﷺ، ويطول المقام بذكرها فلا حاجة إلىٰ استعراضها، وبعض الروايات المتقدّمة فيها إشارة إلىٰ ذلك.

ولا يوجد أي تنافي بين هذه الطوائف من الروايات، حيث أنها تثبت للنبيّ الأكرم ﷺ مقاماً خاصّاً لا يدركه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، وهذا المقام في جهة من جهاته يسمّىٰ بالمقام المحمود وفي أخرىٰ يسمّىٰ بالوسيلة وفي ثالثة يسمّىٰ بالشفاعة، وهذا أيضاً لا يتقاطع مع كون مقام الوسيلة منبر من نور؛ لأن التعبير بذلك للدّلالة علىٰ حظوة النبيّ ﷺ وحمد مقامه عند الله عزّ وجلّ في ذلك اليوم العصيب، الذي يكون فيه كلّ الأنبياء علىٰ جانب عظيم من الوجل

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام / محمّد بن سليمان الكوفي القاضي: ج١ ص٢٠٠، ميزان الاعتدال / الذهبي: ج٢ ص٢٥.

(٢) كتاب الغيبة / النعماني: ص١٠١.

والشفقة والخشية، والكلّ يستغيث وانفساه، والنبيّ الأكرم ﷺ في تلك الحال وجيه عند الله عزّ وجلّ على منبر من نور صاحب حظوة ومكانة دون باقي البشر، فالمنبر كناية عن الوجاهة والقرب والزلفى والواسطة والشفاعة وأنه يتوسّط به إلى الله عزّ وجلّ ويستغاث به للنجاة من النار، فهو صاحب الشفاعة الكبرى، وهو القائل: «**ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[1].

النقطة الثانية: الرابطة بين الشفاعة والتوسّل

قلنا في النقطة السابقة أن المقام المحمود هو الشفاعة، كما نصّت على ذلك الروايات[2]، وأشرنا أيضاً إلى أن الاستشفاع بشفاعة الشفيع والتوسّل بالوسيلة وجهان لمقام واحد، ونريد الوقوف قليلاً عند هذه الحقيقة، فإن تفرقة المتكلمين والفقهاء بين الشفاعة والتوسّل صحيحة من جهة وخاطئة من جهة أخرى، وذلك لأن التوسّل والشفاعة وجهان لحقيقة واحدة لا ينفصلان عن بعضهما البعض، فالتوسل هو فعل صاحب الحاجة عند الشفيع، والشفاعة هي فعل الشفيع بينه وبين المشفوع عنده، فإذا لاحظنا جهة العلاقة والرابطة بين طالب الشفاعة والشفيع يقال توسّل واستشفاع، وإذا لاحظنا نفس العملية ولكن من جهة الرابطة بين الشفيع والمشفوع عنده فيقال لذات تلك العملية شفاعة، فالوسيلة تتلوها الشفاعة والشفاعة يتلوها قضاء الحوائج وغفران الذنوب.

وإذا كان المسلمون قد أجمعوا على ثبوت المقام المحمود والشفاعة

---

(١) البداية والنهاية / ابن كثير: ج ١٠ ص ٢٥٤.

(٢) لاحظ مسند أحمد: ج ٢ ص ٤٧٨، المعجم الكبير للطبراني: ج ٢ ص ٤٨.

الكبرىٰ للنبيّ الأكرم ﷺ فهو يستلزم اجماعاً آخر وهو جواز التوسّل بالنبيّ ﷺ وإن غفل شرذمة عن هذا اللازم، فإذا جازت الشفاعة من النبيّ ﷺ وهو فعل يقوم به بالإضافة إلىٰ الله عزّ وجلّ في حقّ أصحاب الحاجات فبالتالي سوف يكون التوسّل راجحاً ومشروعاً لا محالة؛ لعدم تصوّر انفكاك مشروعية الشفاعة عن مشروعية التوسّل؛ لأن التوسّل متعلّقه طلب الشفاعة فإذا كانت الشفاعة مشروعه كيف يكون طلب المشروع غير مشروع؟!، بل حيث إن معتقد الشفاعة للنبي ﷺ دين من أسس الإيمان فلا محالة يكون التوسّل معتقد ديني من أسس الإيمان أيضاً، بل حيث كانت الضرورة قائمة علىٰ ثبوت مقام الشفاعة للنبي ﷺ فلا محالة الضرورة قائمة أيضاً علىٰ أن التوسّل من أركان العبادات.

فالذهاب إلىٰ الوسيط وطلب توسيطه في قضاء الحاجة توسّل وعمل الوسيط شفاعة، والشفع هو الضمّ، فيضمّ الوسيط جاهه إلىٰ حاجة المتوسل فيقضيها المشفوع عنده، فالتوسّل من مقوّمات الدعاء والتوجّه للحضرة الإلهيّة.

إذن دليل التوسّل القول بمشروعية وضرورة الشفاعة بقول مطلق.

وبناء علىٰ ذلك يكون عقد بابين مستقلّين للتوسل والشفاعة من المماشاة للغفلة التي وقع فيها أصحاب المقالة الجاحدة لعقيدة التوسّل، وإلّا فإن باب الشفاعة لا يمكن أن ينفك عن باب التوسّل؛ لأن التوسّل هو طلب التشفّع.

النقطة الثالثة: عموم تشريع الشفاعة

حاول أصحاب هذه المقالة تحديد نطاق الأدلّة الدالّة علىٰ تشريع شفاعة النبيّ الأكرم ﷺ، حيث قالوا تارة بأن الشفاعة في دار الدنيا لا تجوز إلّا إذا كان

النبيّ الأكرم حيّاً في هذه الدنيا، وأما بعد وفاته فلا مشروعية للشفاعة إلّا يوم القيامة دون الشفاعة في الدنيا أو البرزخ، وقالوا أخرىٰ بأن متعلّق الشفاعة طلب الغفران من الذنوب، وليس طلب الحاجات الدنيويّة، كشفاء المريض وغيره.

أما المزعمة الأولى: من أن الشفاعة في الآخرة فقط أو مع حياة النبيّ ﷺ:

فهي مبتنية علىٰ أن الشرك بالنصّ وعدم النصّ، مع أن الشرك من مدركات العقل وأحكامه، وهي غير قابلة للتخصيص، فإذا كان التشفّع شركاً فلابدّ أن يكون كذلك في جميع النشآت وسواء كان النبيّ ﷺ موجوداً في دار الدنيا أو بعد وفاته.

فالتفرقة لجوء منهم إلىٰ النصّ وأن الشرك ليس له حدّ عقلي منضبط، وهو خلاف ما عليه علماء المسلمين، من أن الشرك إما بحثه عقلي أو عقلي ونقلي وليس هو نقلياً محضاً، هذا أولاً.

وثانياً: مع فرض أن دليل مشروعية الشفاعة نقلي، فلا دليل علىٰ الاختصاص بيوم القيامة؛ لأن الآية مطلقة، فقوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ** ﴾ شامل لما بعد وفاة النبيّ الأكرم ﷺ وهو ﷺ حيّ عند ربّه يرزق، مضافاً إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ **قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ** ﴾ فالنبيّ ﷺ ناظر للأعمال، والآية الكريمة مطلقة والمخاطب بها كلّ الأجيال، ولو بني علىٰ اختصاص الأحكام التي تعلّقت بالرسول ﷺ علىٰ خصوص حياته في دار الدنيا ونفي شمولها لحياته عند ربّه لاستلزم ذلك تعطيل جملة الآيات والأحكام في الدين الحنيف، ولما قامت للدين قائمة، نظير قوله تعالىٰ: ﴿ **مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ**

فَانْتَهُوا﴾[1] وقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾**[2] وقوله تعالىٰ: **﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[3] وغيرها من الآيات والأحكام، فعلىٰ زعمهم الواهي لابدّ أن تُخصّ هذه الآيات بخصوص حياته ﷺ في دار الدنيا دون حياته في عند ربّه.

وقد وردت روايات متضافرة تنصّ علىٰ أن الأعمال تُعرض علىٰ رسول الله ﷺ كلّ يوم أو كلّ يوم خميس أو جمعة، وأنه ﷺ يسمع السلام ويردّه، ويصلّي على من يصلّي عليه.

فما ذكر من الاختصاص بيوم القيامة باطل عقلاً ونقلاً.

وأما المزعمة الثانية: وهي أن متعلّق الشفاعة طلب الغفران لا الحاجات الدنيوية:

فالجواب عنها:

أولاً: ما ذكرناه آنفاً من اطلاق الآية المباركة، فإن متعلّقها شامل للمسائل الدنيوية أيضاً ولا دليل علىٰ التخصيص بما ذكروه.

وثانياً: إذا صحّت المقايسة التي زعموها فإن الحاجات الدنيوية أهون علىٰ الله تعالىٰ من حاجات الآخرة، فكيف يعقل أن الشفاعة تنفذ فيما هو أكثر خطورة وهي الحياة الأبديّة، دون ما هو أقلّ خطورة وهي الحياة الدنيوية المنقطعة؟! وكيف يكون الثاني شركاً دون الأوّل؟!

ثم إن سيرة المسلمين وكذا الصدر الأول منهم تتنافي مع ما ذكره، حيث

---

(١) سورة الحشر ٥٩: ٧.

(٢) سورة المائدة ٥: ٥٥.

(٣) سورة الأعراف ٧: ١٥٧.

أثبتت كتب المسلمين كما سيأتي ـ توسّل المسلمين بالنبيّ الأكرم بعد وفاته أيضاً، وسيرتهم إلىٰ يومنا هذا جارية على التوسّل في طلب حاجاتهم الدنيوية، ولا يقتصرون في ذلك على طلب الحاجات الأخرويّة فقط.

وكذا ليس متعلّق الشفاعة غفران الذنوب والنجاة من النار فحسب، بل حتىٰ في الرقيّ في المراتب والمقامات، فالشخص يحتاج إلىٰ الشفاعة لعدم الأهلية في عمله للصعود إلى مقام أعلى، كما ورد ذلك في توسّل الأنبياء بسيّد الرسل صلى الله عليه وآله، بل هو صلى الله عليه وآله يشفع أيضاً للأئمة المعصومين عليهم السلام لرفع مقامهم ودرجتهم إلىٰ مقامه ودرجته صلى الله عليه وآله.

إذن متعلّق الشفاعة وسيع يشمل النجاة من النار وغفران الذنوب ورفع المقامات وقضاء الحاجات وغيرها، فالشفاعة بإذن الله تعالىٰ متعلّقها مطلق موارد فيض الباري عزّ وجلّ.

وثالثاً: ما ورد من وصف النبيّ موسى وعيسىٰ عليهما السلام بأنهما وجيهان عند الله عزّ وجلّ، كما في قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾**(١)، وكذا قوله تعالىٰ: **﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾**(٢)، وهذا البيان ليس خاصاً بموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، بل هو شامل علىٰ أقل تقدير لأنبياء أولي العزم، خصوصاً سيّد المرسلين وخاتمهم وأفضلهم محمّد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الذين أورثوا علم الكتاب

---

(١) الأحزاب: ٦٩.

(٢) آل عمران: ٤٥.

كلّه، بل قد أشير إلىٰ ذلك في تشريع القبلة، وأنها رغم كونها وجهاً لله تعالىٰ يتّجه إليه المصلّي في اتجاه استقباله في الصلاة، إلّا أن الغاية منها هي الإنقياد والخضوع لرسول الله ﷺ والولاية له، وهو يؤدّي للأوبة لله تعالىٰ، حيث قال تعالىٰ: ﴿ **وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾[1] وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿ **أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾[3]، وللتعبير بالوجيه مدلولان التزاميان عقلي ونقلي:

أما العقلي؛ فلأن الله عزّ وجلّ منزّه عن الجسمية والمقابلة والمجابهة المادّية، فلابدّ من وجه يتوجّه به إليه، فالوجيه معناه هو وجه الله الذي يتقرّب به إليه وآيته الدالّة عليه، التي لابدّ أن تُوسّط وتُشفّع في التوجّه.

وأما النقلي؛ فهو ما ورد من أن زكاة الوجاهة الشفاعة في الخيرات.

إذن الشفاعة والوساطة مدلول التزامي عقلي ونقلي لمفهوم الوجاهة، فالوجيه هو الشفيع والوسيلة والواسطة بين العبد وربّه.

ومقتضىٰ إطلاق كون الأنبياء عليهم السلام وجهاء عند الله عزّ وجلّ هو كونهم شفعاء في الخيرات وقضاء الحوائج الدنيوية والأخروية، ولا تختصّ وجاهتهم وشفاعتهم بغفران الذنوب فقط.

ومعنىٰ ذلك أيضاً أن الأنبياء وجهاء عند الله وشفعاء في كلّ الأزمان والأدوار، من دون اختصاص بيوم القيامة أو قبل وفاة النبيّ، وذلك لإطلاق الآيات الدالّة

---

(١) سورة البقرة ٢: ١٤٤.

(٢) سورة البقرة ٢: ١١٥.

(٣) سورة البقرة ٢: ١٤٣.

علىٰ الوجاهة التي تلزمها الشفاعة عقلاً ونقلاً.

والحاصل:

إن الوسيلة في الآية التي ذكروها هو مقام الشفاعة الكبرىٰ للنبيّ الأكرم ﷺ، واتّضح أن الوسيلة والشفاعة وجهان لمقام واحد، واتّضح أيضاً أن الشفاعة والتوسّل ركن من أركان الدين قائم في الدنيا والآخرة، سواء كان النبيّ حيّاً في دار الدنيا أو عند ربّه تعالىٰ بعد وفاته ﷺ، وهكذا الشفاعة منصوبة في ديانة الإسلام لطلب الحوائج الدنيوية وغيرها.

وممّا يبرهن علىٰ عموم شفاعة النبي ﷺ لكلّ النشآت والعوالم ولعموم الأمور ما مرّ في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾(١)، حيث مرّ في الفصل الثالث أن الآية تبيّن مشارطة الله ومواثقته علىٰ النبيين في إعطائهم مقام النبوة والرسالة والمقامات الغيبية أنهم إنما يستأهلوها ويستحقّوها إذا آمنوا بخاتم النبيّين والتزموا بنصرته واتباعه وأقرّوا علىٰ أنفسهم بذلك، فالآية تبيّن أن سيد الأنبياء صاحب الوسيلة لجميع المخلوقات، بل ولأشرف المخلوقات وهم الأنبياء والرسل، وأنهم إنما نالوا المقامات الكبرىٰ الغيبية من النبوّة والرسالة والحكمة بالتوسّل بذيل ولاية سيد الأنبياء وأهل بيته المعصومين، مع أن النبي ﷺ لم يُخلق بدنه حينذاك، وإنما خُلق نوره وأنوار أهل بيته قبل خلق السماوات والأرض وخلق الأنبياء، كما أشارت إلىٰ ذلك

---

(١) سورة آل عمران ٣: ٨١.

سورة النور والروايات من الفريقين، حسب ما تقدّم في الفصل الثالث.

فالآية ترصد أعظم ملحمة في الخلقة والخليقة لأعظم توسّل بأعظم متوسّل به لأعظم حاجة، وكفىٰ بذلك بشارة للمؤمنين بهذا الركن العظيم في الدين، ونذارة للجاحدين.

وأخيراً نقول:

إذا كانت الأعمال كما قالوا تُزلف وتُقرّب العبد إلىٰ الله عزّ وجلّ وهي فيها ما فيها من عدم الخلوص وخلطها بالصالح والطالح، فكيف ظنك بمقام سيّد الرسل ﷺ؟!

فالعمل موجود مخلوق وكذا النبيّ ﷺ، ولكن لا قياس ولا نسبة بينهما في الوجاهة والقرب إذا توسّل بهما العبد.

الشبهة الخامسة: التوحيد الإبراهيميّ يأبىٰ التوسّل بغير الله

وذلك ما ورد في الحديث أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار (عرض له جبرئيل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وأما من الله فبلىٰ)(١)، (قال جبرئيل: فسل ربّك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فقال الله عزّ وجلّ: يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)(٢) فالنبيّ إبراهيم عليه السلام في هذا الحديث يحصر التوجّه في الحاجات إلىٰ الله عزّ وجلّ ويرفض كلّ واسطة ولو كانت بمنزلة جبرئيل عليه السلام، وهذا هو النفس التوحيدي الصحيح من مؤسّس

---

(١) تفسير ابن كثير: ج٣ ص١٩٣.

(٢) زاد المسير / ابن الجوزي: ج٥ ص٢٥٤.

التوحيد ومكسّر الأصنام ومجاهد الوثنية إبراهيم عليه السلام، إذ لم يوسّط حتىٰ جبرئيل في طلب حاجته.

إذاً لابدّ من نفي الشرك في الواسطة وطلب الحاجة؛ إذ لا حجاب بين الله وبين خلقه، ولم يتّخذ الله تعالىٰ أصناماً ولا أحجاراً ولا أشخاصاً ليتوجّه بها إليه.

الجواب عن الشبهة الخامسة:

وهو ما يتعلّق بقصة إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار، وما جرىٰ بينه وبين جبرئيل، حيث أن جبرئيل عليه السلام تدارك إبراهيم وهو في حال الهويّ في النار، وهي حالة عصيبة جدّاً، ولكن مع ذلك عندما عرض جبرئيل عليه السلام عليه قضاء حاجته وتخليصه من محنته، قال عليه السلام: (علمه بحالي يغني عن سؤالي)، فقالوا إن نفس عدم سؤال إبراهيم عليه السلام من جبرئيل معناه أن السؤال والاستغاثة بغير الله تعالىٰ غير جائزة.

الردّ الأول: إن أي حادثة من الحوادث تتضمّن دائماً ملابسات تحتفّ بها لابدّ من معرفتها؛ لمدخليتها في استيضاح سياق تلك الحادثة، وفي المقام مسائلة جبرئيل عليه السلام للنبيّ إبراهيم عليه السلام من أجل امتحانه وابتلائه وتفقّد رسوخ إيمانه وطمأنينته ورباطة جأشه؛ ولذا قال له: (أما إليك فلا) ليبيّن له أنه ليس في مقام طلب الحاجة والخوف والهلع وإنقاذ الموقف وأنه مطمئن النفس ثابت الإيمان متوكّل علىٰ ربّه.

ويعزّز هذه الدعوىٰ قول إبراهيم عليه السلام لجبرئيل عليه السلام: (علمه بحالي يغني عن سؤالي) مع أن السؤال والدعاء مرغوب فيه ومحبّب عند الله عزّ وجلّ، وقد حثّ

القرآن الكريم في آيات عديدة على السؤال والدعاء وطلب قضاء الحاجة من الله تعالىٰ، وقد توعّد الله تعالىٰ المستكبر علىٰ عبادته ودعائه باللسان والقول.

إذن الدعاء من الأمور المرغوب فيها والمأمور بها، ومن الواضح المتّفق عليه أن الرواية في المقام لا تريد أن تقول أن الدعاء باللسان أمر مرجوح ومرغوب عنه، بل إن الدعاء وطلب الحاجة بالقول واللسان من الآداب الإلهية، وقد قال الله تعالىٰ لنبيّه الأكرم ﷺ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1] وحاشا للنبيّ إبراهيم عليه السلام أن يخرج عن أعظم الآداب الإلهية ولا يتقيّد بها؛ إذ الدعاء أعظم العبادات وروحها.

فهذا شاهد بيّن دامغ علىٰ أن كلام إبراهيم عليه السلام بحسب السياق في مقام آخر، وهو مقام الامتحان للثبات على الإيمان والطمأنينة به.

فأراد إبراهيم عليه السلام باكتفائه بعلم الله عزّ وجلّ بحاله أن يبيّن لجبرئيل عليه السلام أنه ليس علىٰ وجل واضطراب، ويظهر له الثبات والحزم الذي هو عليه في الحقيقة والواقع.

ودعاؤه عليه السلام في خصوص ذلك الظرف والمقام قد يكون كاشفاً عن الوجل والتزلزل وعدم الطمأنينة، فهو عليه السلام لكمال ثباته وتوكّله علىٰ الله تعالىٰ أظهر ما هو عليه من رباطة الجأش والحزم وقوّة الإيمان.

فصدر الجواب وذيله في هذا المقام الذي ذكرناه.

الردّ الثاني:

قد يقال هنا أن إبراهيم عليه السلام لم يستنجد بجبرئيل عليه السلام ولم يسأله لأنه أفضل منه، وذلك إن مقام أنبياء أولي العزم أفضل من مقام الملائكة الذين أسجدهم

---

(١) طه: ١١٤.

وأطوعهم لآدم، وقد ورد في روايات الفريقين أن جبرئيل عليه السلام في مواطن عديدة لم يتقدّم على آدم لكونه مسجود الملائكة، ففي هذه الحالة يكون مقام السائل أرفع شأناً من مقام المسؤول، ونحن محلّ كلامنا فيما إذا كان السائل يتقرّب بواسطة المسؤول ويتوسل به إلىٰ الله عزّ وجلّ، وإذا كان السائل أقرب مقاماً من المسؤول، فلا معنىٰ للتوسّط والتشفّع والزلفىٰ.

الردّ الثالث: أنه ينقض عليهم بموارد:

منها: أن الجاحدين للتوسّل يقرّون بأن الضرورة قائمة في الدين ـ كما تقدّم ـ علىٰ ثبوت الشفاعة الكبرىٰ لسيد الأنبياء يوم المعاد، وأنه يستشفع به صلى الله عليه وآله للنجاة الأبدية، فإذا كان الاستشفاع شركاً ـ حسب زعمهم ـ وخلاف منهج التوحيد الذي هو ملّة إبراهيم الحنيف فكيف يسمح الباري بوقوعه يوم القيامة، ويُبشر به نبيّه، وأنه يعدّه الباري مقاماً محموداً؟!

ومنها: ما تقدّم من استشفاع آدم بسيد الأنبياء، فهل يظن بنبي الله وصفوته مجانبة طريق التوحيد؟!

الشبهة السادسة: التوسّل يعني التفويض وعجز الله تعالىٰ

قد يطرح هنا إشكال حول التوسّل بالوسائط، وهو دعوىٰ أن الاعتقاد بالوسائط والتوسّل بها لاستدرار الفيض الإلهي قد يوجب اعتقاد العجز في قدرة الله تعالىٰ، ومما لاشك فيه أن الباري عزّ وجلّ واجب بالذات وغني عن العالمين، فلابدّ من رفض الوسائط في التوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ.

وبعبارة أخرىٰ: إن السؤال والتوسّل والتوجّه إلىٰ غير الله تعالىٰ يستبطن التفويض والغلو وبالتالي يؤدّي إلىٰ الشرك؛ لأن التوسّل يتضمّن إسناد بعض الصلاحيات الإلهية إلىٰ الوسائل، وهو يعني إثبات العجز إلىٰ قدرة الباري تعالىٰ وهو التفويض والغلو الباطل.

الجواب عن الشبهة السادسة:

قصور الجاحدين للتوسّل عن معرفة التوحيد في الأفعال:

في مقام ردّ هذه الشبهة نجيب بعدّة أجوبة:

الجواب الأول: إن الله عزّ وجلّ إذا أقدر مخلوقاً من المخلوقات علىٰ بعض الأمور، فهو لا يعني سلب القدرة عنه تعالىٰ في تلك الأمور، ولا يعني أيضاً عزله عن صفاته التي منها الصفات التي أعزاها إلىٰ كلماته ووسائطه، فلا تجافي ولا عزلة في البين؛ لأن التجافي والعزلة من أحكام المادّة.

إذن الباري تعالىٰ لا يتجافىٰ ولا ينعزل عن القدرة التي أقدر بعض الموجودات عليها، بل هو أقدر من تلك الوسائط علىٰ ما أقدرها عليه.

ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا المقام: «**إن الله تبارك وتعالى لا يطاع باكراه ولا يعصىٰ بغلبة ويهمل العباد في الهلكة، ولكنه المالك لما ملّكهم، والقادر لما عليه أقدرهم**»(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه لله عزّ وجلّ: «**لا تشبهه صورة ولا يحسّ بالحواس ولا يقاس بالقياس، قريب في بعده بعيد في قربه، فوق كلّ شيء ولا**

---

(١) فقه الرضا عليه السلام / علي بن بابويه: ص٤٠٨.

يقال: شيء تحته، وتحت كلّ شيء ولا يقال: شيء فوقه، أمام كلّ شيء ولا يقال له: أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج من الأشياء لا كشيء من شيء خارج، فسبحان من هو هكذا، ولا هكذا غيره، ولكلّ شيء مبتدأ»(١).

والحاصل: إن أقدار الله عزّ وجلّ وكلّ عطية إلهية يجود بها علىٰ مخلوقاته ليس تمليكها تمليكاً عزلياً وبنحو التجافي، وإنما هو تمليك قيّومي إحاطي، فهو عزّ وجلّ بكلّ شيء محيط وقيّوم على كلّ شيء، وهو المالك لما ملّكهم والقادر لما عليه أقدرهم، بل إن التمليك بعينه مخلوق من المخلوقات والمُعطىٰ والعطية كلّها قائمة بالله تعالىٰ حدوثاً وبقاءً، فكيف يستقل المخلوق في فعله وهو محتاج في ذاته ومفتقر إلىٰ قيوميّة الباري تعالىٰ؟!

وهذا يعني أن ذات المخلوق وفعله وتمكينه وتمليكه وإقداره علىٰ بعض الأمور كلّها بحول الله وقوته، ولا يخرج عن حيطة قيوميّته، فلا مجال للتفويض العزلي في عالم الخلقة والامكان، وليست الوسائط إلّا مجار لفيض الله عزّ وجلّ وقدرته؛ لأجل عجز بعض القوابل عن التلقّي عن الله تعالىٰ مباشرة.

الجاحدين للتوسّل بنوا جحودهم على التفويض الأكبر:

الجواب الثاني: إن هذه الشبهة التي ذكروها تستبطن التفويض والغلو في المخلوق؛ لأنها مبتنية على دعوىٰ أن المخلوق مستقلّ عن خالقه في الوجود بقاءً، وأن الله تعالىٰ عندما ملّك وأقدر بعض الموجودات المادّية علىٰ بعض

---

(١) المحاسن / البرقي: ج١ ص٢٤٠، التوحيد / الصدوق: ص٢٨٥.

الأفعال الحياتية اليوميّة، كقدرة الشخص علىٰ تحريك أعضائه مثلاً بـاختياره، انعزلت قدرته عن تلك الأفعال، فإنهم في شبهتهم المذكورة افترضوا أن إقدار الله عزّ وجلّ وتمليكه بعض الأفعال لبعض المخلوقات وأنها استقلال للمملوك عن المالك، كاستدرار الفيض الإلهي عن طريق الوسائط تفويض وغلو في تلك المخلوقات، وحيث أنه مما لا ريب فيه أن الله تعالىٰ ـكما هـو المشـاهد حسّاً والمعلوم وجداناً ـ أقدر الموجودات المادّية علىٰ الكثير من الأفعال التي نراهـا يومياً، فإنه يقتضي اعـتقادهم بـمقالة المـعتزلة التـفويضية المـغالية، وهـي أن المــخلوق مــحتاج إلىٰ الخـالق حـدوثاً لا بـقاءً، وأن الله تـعالىٰ بـعد أن خـلق الموجودات انعزلت قدرته عنها في البقاء والعياذ بالله ـ.

ولا فرق بين فعل وفعل من الناحية العقلية، فإذا كان التوسّل وجعل الوسيلة والشفاعة لبعض المخلوقات يوجب التفويض العزلي، فكذلك إقدارهم عـلىٰ أفعالهم الحادثة اليومية لابدّ أن يكون أيضاً محكوماً بقانون التفويض العـزلي، وأن الله تعالىٰ انعزل عن مخلوقاته بعد أن أوجدها وأقدرها وملّكها لأفعالها.

ولا شك أن هذا التفكير مبنيّ على الموازين الحسّية المادّية، ودعوىٰ الفرق بين الأفعال الدنيوية الصغيرة والأفعال التدبيرية الخطيرة، كـتدبير السـماوات والأرض، وإيصال فيض الله تعالىٰ إلىٰ الموجودات المادّية الدانية في الوجود، حيث آمنوا ببطلان التفويض بـجعل وسـائط فـي الفـيض، وصـحّحوا مـقولة التفويض في صغائر الأمور والأفعال المادية الدنيويّة غير الخطيرة.

مع أن موازين بطلان التفويض موازين عـقلية لا يـفرق فـيها بـين الأفـعال الصغيرة والخـطيرة؛ لأن التـفويض يـوجب الشـرك وهـو بـاطل عـلىٰ جـميع

الأحوال.

ونحن نقول: إن المخلوق لا يستقلّ بذاته وفعله عن البـاري تـعالىٰ حـدوثاً وبقاءً، ولا يفعل المخلوق فعلاً أيّاًكان حجمه وخطورته إلّا بإقدار الله وتمكينه وبحوله وقوته بدءاً واستدامة.

ولو كان أصحاب هذه الشبهة يرفضون فكرة التفويض مطلقاً ويوحّدون في الخلقة حدوثاً وبقاءً لما حصلت لهم هذه الشبهة، لأن الله تعالىٰ لا تنحسر قدرته عن المخلوق في أصل خلقته وبعد خلقته، فهو دائماً يستمدّ وجوده وبقاءه من الفيض والمدد الإلهي، وهم أرادوا أن ينكروا التوسّل، وهو فـعل مـن الأفـعال للزوم التفويض، فـوقعوا فـيما هـو أعـظم وهـو التـفويض فـي أصـل وجـود المخلوقات من حيث البقاء فضلاً عن أفعالها، مع أن الله تعالىٰ دائم الفيض علىٰ البريّة، والمخلوق في كلّ آن من آنات وجوده محتاج إلىٰ فيض باريه، لا يستقلّ عنه في وجوده ولا ينادده في فعله؛ إذ الباري قيّوم علىٰ وجود المخلوق وأفعاله بنحو الأمر بين الأمرين، فلا ننفي المخلوقات وأفعالها كـما فـعل ذلك بـعض جهلة الصوفية، ولا نعزل قدرة الله تعالىٰ عن مخلوقاته كما فعل المفوّضة، بل نقول كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾(١).

الجواب الثالث: أن الجاحدين للتوسّل حيث كانوا عـبّاد المـذهب الحسّـي المادي من حيث يشعرون أو من حيث تشبّع نفسياتهم وذهنهم بذلك، حيث يبنون علىٰ أن كلّ فعل حسّي هو فعل للمخلوقات، وكلّ فعل وراء الحسّ فهو فعل لاهوتي إلهي، أو أن الأفعال الصغيرة الحـجم هـي فـعل لـلمخلوقات أما

(١) الأنفال: ١٧.

الأفعال الكبيرة فهي فعل إلهي، وعلىٰ هذا الميزان يكون إماتة الموتىٰ لا يصح إسنادها إلىٰ الملك الموكّل وهو عزرائيل ﷺ، لا سيما وأن الاماتة لا تقتصر علىٰ بني البشر فقط، بل تشمل جميع بني الجنّ وجميع النباتات، بل وجملة الملائكة، فهذه القدرة بهذا الحجم كيف تسند وتعزىٰ إلىٰ الملك عزرائيل؟ مع أن قدرة الله تعالىٰ أنفذ فيما أقدر عزرائيل عليه، وكذلك ميكائيل الموكّل بتقسيم الأرزاق وتدبيرها لكلّ الكائنات الحيّة علىٰ وجه الأرض، وكذلك جبرئيل الموكّل بالبطش والنقمة الإلهيّة ونشر العلم علىٰ الكائنات المدركة، وإسرافيل الموكّل بالإحياء وغير ذلك من عظائم الأفعال، فإنه علىٰ منطق هؤلاء الجاحدين تكون قدرة الله معزولة عن تلك الأفعال كما توهّمه هؤلاء، وأنّ هذه الأفعال هي صلاحيات إلهيّة لا تقبل الاسناد لغير الله.

فتبيّن أن الضابطة في كون الفعل إلهيّاً هو صدوره عن الفاعل بمعزل عن قدرته غيره، ومن ثمّ لا يصحّ توهّم استقلال المخلوق في الفعل ولو كان حقيراً صغيراً؛ إذ لو استقلّ لكان فاعلاً فعلاً إلهيّاً.

الشبهة السابعة: إيجاد المخلوقات الإمكانية كلّه ابداعيّ بلا واسطة

قالوا في المقام لِمَ لا يكون فعل الله تعالىٰ دائماً إبداعياً بكن فيكون بلا أي واسطة أو وسيلة؟ وهذا من مظاهر القدرة والهيمنة الإلهية، بخلاف القول بالأفعال غير الابداعية، فهي تستبطن القول بعجز الله تعالىٰ واحتياجه إلىٰ الأسباب في عملية الخلق والايجاد.

الجواب عن الشبهة السابعة:

ويُجاب عن هذه الشبهة بنفس الجواب السابق، ونضيف إليه بعض الأجوبة الأخرىٰ:

الجواب الأول: لا ريب أننا نشاهد في عالم الخلقة الامكانية أفعالاً لبعض المخلوقات بل موجودات مخلوقة غير ابداعية، كما نصّ علىٰ ذلك القرآن الكريم في آيات عديدة كما سيأتي ـ وأن الله تعالىٰ كان عرشه علىٰ الماء، ثم خلق السماوات والأرض، ثم خلق من الأرض النباتات والزرع، ثم خلق من الطين البدن الانساني، وخلق الجنّ من نار السموم، وخلق من الماء كلّ شيء حيّ، وغير ذلك من المخلوقات غير الإبداعية، التي توجد بعملية التوليد والتوالد بين الأسباب والمسبّبات، وبناءً علىٰ ما ذكروه من الشبهة، من أن كلّ فعل غير ابداعي، فهو مستبطن للعجز والحاجة إلىٰ الوسيلة والأسباب ويكون اسناد تلك المخلوقات غير الابداعية إلىٰ الله تعالىٰ إسناداً للعجز والحاجة إلىٰ الله عزّ وجلّ، وإن لم نُسند تلك المخلوقات إلىٰ الله تعالىٰ نقع في معضلة الشرك في الخالقية وهو شرك أعظم؛ لأن شطراً وافراً من المخلوقات كالموجودات المادّية في أصل وجودها فضلاً عن أفعالها يتمّ تخليقها عن طريق الأسباب والوسائط لا بنحو الابداع، فإن اسندناها إلىٰ الباري تعالىٰ علىٰ زعمهم ـ يلزم نسبة العجز إلىٰ الخالق، وإن لم نسندها إليه عزّ وجلّ يلزم القول بالشرك في الخالقية وخروج تلك الموجودات عن حيطة قدرته تعالىٰ.

فالصحيح: إن الله تعالىٰ خالق كلّ شيء سواء كان بالابداع أو التخليق، والسببيّة لا توجب الشرك ولا نسبة العجز إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن المخلوق الذي

يكون واسطة ووسيلة في تخليق بعض المخلوقات لا يخرج عن حيطة القدرة الإلهية، فهو بتمام شراشر وجوده مفتقر إلىٰ باريه في الحدوث والبقاء وفي فعله وأصل وجوده، وإذا صار الماء مثلاً واسطة في تخليق كلّ شيء حيّ لا يعني عجز الباري، لأن الماء بتمام وجوده مفتاق إلىٰ خالقه ولا يستغني في فعله عنه، ففعل الماء فعل الله تعالىٰ، والماء مجرىٰ الفيض وسبب إعداديّ لخالقية الله عزّ وجلّ.

ثم إن البارئ والمصوّر من أسماء الله تعالىٰ، والبَرء عملية تحويل وإيجاد وإيجاب شيء من شيء آخر، ثم بعد البرء تأتي عملية تشكيل الصورة، وهذه كلّها دائرة الموجودات غير الابداعية، وهي تحت هيمنة الأسماء الإلهية، كالبارئ والمصوّر ولا تخرج عن حيطة قدرته عزّ وجلّ.

سبب جحود التوسّل القصور في معرفة كنه ذوات المسبّبات والأسباب:

الجواب الثاني: إن الاحتياج إلىٰ الأسباب والوسائط ليس لعجز في الباري تبارك وتعالىٰ، بل لعجز وعدم قابلية في ذات الممكن، وذلك لأن بعض الموجودات الممكنة لا يمكن أن تفرض لها شيئية إلّا بعد وجود موجودات أخرىٰ سابقة عليها، فالجسم مثلاً لا يمكن أن يخرج إلىٰ الوجود إلّا من المادة؛ لعدم قابلية الجسم إلّا أن يكون متقوّماً بالمادّة، والله عزّ وجلّ علىٰ كلّ شيء قدير، ولا شيئية للجسم قبل المادّة لكي تتعلّق به القدرة؛ إذ اللّاشيئية عدم وبطلان وعجز وفقدان، ولا معنىً لأن تتعلق القدرة الإلهية بالعجز والبطلان.

نعم إذا فُرض كونه شيئاً بواسطة السبب تتعلّق به القدرة حينئذٍ، فالأشياء التي

هي ذوات أسباب ذواتها متقوّمة ذاتياً قوامياً بنيوياً وهوية بتلك الأسباب، فنفي فرض الأسباب نفي لأصل ذواتها، فيرجع إلىٰ التناقض، لا للعجز في قدرة الباري تعالىٰ، كمن يريد أن يفترض الجسم بلا أن يكون له أبعاد ممتدّة، فهؤلاء تخيّلوا أن الأسباب والوسائط منحازة عن أصل ذوات الأشياء المخلوقة في الدرجات المتوسّطة والنازلة من عوالم الخلقة، فيرجع جحودهم للوسائل إلىٰ الجهل بحقائق المخلوقات، ولو كان وجود الأسباب والوسائط يعني العجز لكانت سنّة الله تعالىٰ في تدبير الخلقة بتوسّط الملائكة عجز في الساحة الإلهية والعياذ بالله ـ، لا سيّما وأن القرآن الكريم يسند جملة أفعال الخلقة وعظائم الأفعال إلىٰ الملائكة.

الجواب الثالث: وهو عبارة عن الشواهد والطوائف القرآنية الدالّة علىٰ وقوع التخليق من الله تعالىٰ عبر الوسائط من ملائكة ورسل وغير ذلك، وأن نظام الخلقة علىٰ نحوين: إبداعيّ وتخليقيّ، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** ﴾(١).

وإليك بعض تلك الطوائف:

الطائفة الأولىٰ: آيات الإماتة وتوفّي الأنفس، وقد أسند التوفّي فيها إلىٰ الله عزّ وجلّ وإلىٰ الملائكة وإلىٰ ملك الموت خاصّة:

الاسناد الأول: إسناد توفّي الأنفس إلىٰ الملائكة.

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ** ﴾(٢).

---

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) النساء: ٩٧.

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾(١).

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

٤ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾(٣).

٥ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾(٤).

٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ لَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾(٥).

٧ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾(٦).

٨ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٧).

وغير ذلك من الآيات المباركة التي نلاحظ في مجموعها أن الله سبحانه وتعالىٰ قد نسب وأسند وفاة الأنفس إلىٰ الملائكة من باب التوسيط، مع أن

---

(١) النحل: ٢٨.

(٢) النحل: ٣٢.

(٣) الأنعام: ٦١.

(٤) الأعراف: ٣٧.

(٥) الأنفال: ٥٠.

(٦) محمد: ٢٧.

(٧) الأنعام: ٩٣.

المميت من أسماء الله تعالىٰ ولا منافاة في ذلك، ولا يلزم منه العجز؛ لأن الملك بكلّ وجوده وأفعاله قائم بالله تعالىٰ ومفتقر إليه حدوثاً وبقاءً.

وفي الآيات الثلاثة الأخيرة يسند الله عزّ وجلّ العذاب إلىٰ الملائكة وفي الوقت ذاته ينسب الله عزّ وجلّ العذاب والتعذيب إلىٰ نفسه ولا منافاة في ذلك لما تقدم.

الاسناد الثاني: وهي الآيات التي يسند الله عزّ وجلّ فيها التوفّي إليه مباشرة:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** ﴾(١).

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ** ﴾(٢).

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ** ﴾(٣).

٤ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾(٤).

وكما أسلفنا لا تنافي بين الاسناد الأول والثاني وكذلك الثالث الآتي، وكلّ منها اسناد حقيقي، لأن الملائكة لا حول لهم ولا قوة إلّا بالله تعالىٰ.

ويدلّ علىٰ هذه الطولية في الاسناد السياق الواحد في آيتي سورة النحل المتقدّمتين، حيث أسند في أحدهما التوفّي إلىٰ الله تعالىٰ وفي الأخرىٰ إلىٰ

---

(١) محمد: ٢٧.

(٢) الأنعام: ٩٣.

(٣) الزمر: ٤٢.

(٤) يونس: ١٠٤.

الملائكة.

الاسناد الثالث: إسناد التوفّي إلىٰ ملك الموت:

قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾(١).

فإسناد الإماتة إلىٰ ملك الموت والرسل في وقت واحد يعني أن بقيّة الملائكة أعوان لملك الموت، تحت هيمنته وقدرته، كما جاء ذلك في روايات الفريقين.

والحاصل: أن برنامج الإماتة لكلّ ذي روح تحت تدبير وإدارة **ملك الموت، وهو يدير ذلك البرنامج التكويني عن طريق رسله وأعوانه الذين هم تحت إمرته وسلطانه وقدرته، وهو فيالوقت ذاته تحت سلطان الله عزّوجلّ وقدرته، وافتقاره، واحتياجه إلىٰ الله عزّوجلّ حدوثاً وبقاءً أشدّ من احتياج الملائكة من أعوانه إليه بما لايقاس.**

ومن هذا البيان يتّضح أن إسناد فعل إلىٰ الملائكة لا يعني عدم إسناده إلىٰ الباري تعالىٰ، وهكذا إسناد فعل إلىٰ الملائكة لا يعني عدم إسناده إلىٰ ذات أخرىٰ شريفة تهيمن علىٰ الملائكة، وتكون الملائكة رسلاً وأعواناً لها وتحت سلطانها، كملك الموت الذي يدبّر الملائكة بإقدار الله تعالىٰ وتدبيره، ووراء ملك الموت مخلوقات أخرىٰ أشرف منه تدبّره وتدير شؤون عالم الإمكان بإذن الله تعالىٰ وهم خلفاء الله تعالىٰ.

الطائفة الثانية: وهي الآيات التي صرحت بإيكال بعض الأفعال والأمور التدبيريّة إلىٰ بعض المخلوقات.

---

(١) السجدة: ١١.

١ ـ قال تعالىٰ: ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ** ﴾(١).

٢ ـ وقال عزّ وجلّ: ﴿ **فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَـٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ** ﴾(٢).

وهذا التوكيل المذكور في الآيتين الكريمتين ليس على نسق إيكال مخلوق إلىٰ مخلوق آخر؛ لأنه في باب الوكالات الاعتبارية والقانونية هناك نوع من الاستقلال للوكيل عن الموكّل في الفعل، وفيه نوع من أنواع التفويض العزلي وإن لم يكن تفويضاً واستقلالاً وانعزالاً تاماً؛ لإمكان عزله في كلّ آن آن، وأما في توكيل الله تعالىٰ بعض المخلوقات فليس هو توكيلاً وتفويضاً عزلياً تنحسر فيه قدرة الباري عن الفعل الموكّل فيه، لأنها وكالة افتقار وتقوّم فعل الوكيل بالموكّل، فالله تعالىٰ أقدر بعض مخلوقاته وأوكل لهم بعض الأمور بلا انعزال عمّا وكّلهم فيه، بل هو تعالىٰ فيما أقدرهم عليه أقدر بما لا يتناهىٰ من القدرة، لأن وجودهم فضلاً عن فعلهم متقوّم بذات الباري تعالىٰ حدوثاً وبقاءً، وهو الحيّ القيّوم الذي به قامت السماوات والأرض.

ثم إن التوكيل الذي ورد في سورة الأنعام توكيل لدنّي لجماعة من الانس، وهذه من التعابير القرآنية الدالّة علىٰ وجود الارتباط اللّدني بين الله تعالىٰ ومجموعة من البشر، لم يكفروا بالله عزّ وجلّ طرفة عين.

الطائفة الثالثة: وهي الدالّة على توسيط بعض المخلوقات في الخلق:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ**

---

(١) السجدة: ١١.

(٢) الأنعام: ٨٩.

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾(١)، فإخراج الثمرات ليس إبداعيّ بل توسيطيّ، فالباري تعالىٰ يُخرج بواسطة الماء الثمرات، والخالق هو الله تعالىٰ وليس الماء إلّا وسيطاً في جريان الفيض الإلهي.

٢ ـ قوله تعالىٰ: **﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾**(٢).

٣ ـ قوله تعالىٰ: **﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾**(٣).

٤ ـ قوله تعالىٰ: **﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾**(٤).

وقد قرّر الحكماء وجود حياة نباتية، كما أكّدت ذلك العلوم المادّية، وهذه الحياة والإحياء يحصل بواسطة الماء ولو إعداداً، فكيف يستعظم ذلك علىٰ من هو أشرف من الماء وأعظم عند الله تعالىٰ؟!

٥ ـ قوله تعالىٰ: **﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾**(٥).

فالطهارة التي هي أمر معنوي ونوري يحصل من الله تعالىٰ بواسطة الماء؛ لأنها ليست من الأفعال الإبداعية بل التخليقية.

---

(١) البقرة: ٢٢.

(٢) الأنعام: ٩٩.

(٣) النحل: ٦٥.

(٤) البقرة: ١٦٤.

(٥) الأنفال: ١١.

٦ـقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾(١).

والعرش هو القدرة الإلهية، فقدرته تعالىٰ علىٰ الماء، والماء واسطة في فيض القدرة، على الاختلاف في المراد من الماء في الآية الكريمة.

فالقوابل محدودة ونشأة الماء هي الواسطة في تقبّل الفيوضات الإلهية.

٧ـقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

٨ـقوله تعالىٰ: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾(٣).

٩ـقوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾(٤).

١٠ـقوله تعالىٰ: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾(٥).

فالروح الذي هو خلق أعظم من الملائكة سبب وواسطة إلهية لنزول الملائكة وعروجها.

الطائفة الرابعة: إسناد الخلق والتخليق إلىٰ بعض المخلوقات:

١ـقوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾(٦).

---

(١) هود: ٧.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) النور: ٤٥.

(٤) الفرقان: ٥٤.

(٥) النحل: ٢.

(٦) يس: ٧١.

فأُسند الخلق إلىٰ الأيدي الإلهية وهي القدرة، إذ لا شك أن الله تعالىٰ لا يد جسمانية له، فيده قدرته وتصرّفه المخلوق له الخارج عن الذات المقدّسة، وهذه اليد المخلوقة تعمل وتخلق الأنعام بالمباشرة.

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾(١).

فالتسبيح في هذه الآية الكريمة أسند إلىٰ الإسم، و(الذي) وصف للمضاف إلىٰ الربّ وهو الاسم، فالإسم هو الذي خلق فسوّى وقدّر فهدىٰ، والإسم غير المسمّىٰ قائم به ومخلوق من مخلوقاته، كما جاء ذلك في سورة الرحمن في قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٢)، فالجلال والإكرام وصف لوجه الربّ لا لنفس الربّ، وهو مخلوق من المخلوقات وآية يتوجّه بها إلىٰ الله عزّ وجلّ، والشاهد علىٰ المغايرة ما جاء في آخر سورة الرحمن، حيث جعل وصف الجلال والإكرام صفة للربّ لا للوجه، حيث قال تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٣)، وليس المراد من الاسم والوجه في الآية المباركة جزء الذات الجسماني، كما توهّم ذلك المجسّمة والحشوية، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، بل المراد منه الآية الكبرىٰ الدالّة علىٰ عظمة الله عزّ وجلّ والقائمة الوجود به، وقد أطلق علىٰ البيت الحرام والكعبة أنهما وجه الله تعالىٰ الذي يتوجّه به إليه، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿ أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ مما يدلّل علىٰ أن البيت الحرام أحد الوجوه والآيات الكبرىٰ التي يتوجّه إلىٰ الله عزّ وجلّ بها، وكذلك

---

(١) الأعلى: ١ ـ ٢.

(٢) الرحمن: ٢٧.

(٣) الرحمن: ٧٨.

الأنبياء، حيث أطلق على موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهين عند الله تعالى، كما تقدّم أنهما كلمات الله وأسمائه.

٣ـ قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(١).

٤ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٢)، فهنا أسند تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى أي إحيائهم إلى القرآن الكريم.

الطائفة الخامسة: وهي التي عُبّر فيها بالمُلك، وأن الله تعالى أملك كثيراً من الأمور لمخلوقاته الشريفة من دون أن يكون هذا التمليك عزلي تفويضي، بل كلّما تلقى المخلوق من باريه فيضاً أكثر ومرتبة أعلى وأشرف في الوجود كلّما كان أكثر فقراً إلى الله عزّ وجلّ من غيره، ومن ثم كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أعبد الخلائق إلى الله تعالى، لأنه أكثرهم فقراً إلى الله عزّ وجلّ، كما أثر ذلك عنه صلى الله عليه وآله حيث كان يقول: (الفقر فخري)، وإليك بعض تلك الآيات في المقام:

١ـ قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾(٣).

---

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) الرعد: ٣١.

(٣) النساء: ٥٤.

والملك العظيم الذي أعطي لآل إبراهيم هو الإمامة، ولم يُعبّر عن غير الإمامة بالملك العظيم.

٢ـ قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾[١].

٣ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[٢].

٤ـ ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾[٣].

٥ـ ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾[٤].

٦ـ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٥].

والملك في هذه الآية ليس خاصّاً بالملك الأرضي، بل هو عامّ شامل لمطلق النشآت.

٧ـ ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[٦]، فوصف الله عزّ وجلّ خازن النيران الملك الموكّل بالنار بمالك؛ لأنه ملّكه القدرة علىٰ تدبير النيران.

٨ـ ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[٧]، والعرش هو مقام القدرة والله تعالىٰ أقدر أربعة من الأوّلين وأربعة من الآخرين

---

(١) ص: ٣٥.

(٢) الإنسان: ٥.

(٣) ص: ٢٠.

(٤) البقرة: ٢٤٧.

(٥) آل عمران: ٢٦.

(٦) الزخرف: ٧٧.

(٧) الحاقة: ١٧.

علىٰ حمله بلا تفويض.

٩ـقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾(١).

١٠ـقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(٢).

١١ـ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾(٣).

١٢ـ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾(٤).

الطائفة السادسة: ما ذكر فيها نسبة الإهلاك إلىٰ نفسه تعالىٰ وإلىٰ بعض مخلوقاته.

١ـقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٥).

٢ـ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾(٦).

٣ـ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾(٧).

---

(١) التحريم: ٤.

(٢) الأنفال: ٩.

(٣) آل عمران: ١٢٤.

(٤) آل عمران: ١٢٥.

(٥) الأحقاف: ٢٧.

(٦) الحاقة: ٥.

(٧) الحاقة: ٦.

٤ ـ ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾(١).

٥ ـ ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾(٢).

الطائفة السابعة: إسناد تدبير بعض المخلوقات عن طريق الرياح:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾(٣).

٢ ـ ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾(٤).

٣ ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾(٥).

٤ ـ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾(٦).

٥ ـ ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾(٧).

والحاصل: إنّ نظام الخلقة في السنّة الإلهيّة نظام الأسباب والمسبّبات، كما نصّ علىٰ ذلك متواتر آيات القرآن الكريم، وما ورد من روايات الفريقين «**أبىٰ الله أن يجري الأمور إلّا بأسبابها**»، وذلك لأن الأمور ذواتها متقوّمة بالأسباب في هويتها، فهم يجهلون نظام الخلقة والمخلوقات.

* **** *

---

(١) العنكبوت: ٣١.
(٢) العنكبوت: ٤٠.
(٣) الحجر: ٢٢.
(٤) الروم: ٤٨.
(٥) الفرقان: ٤٨.
(٦) الروم: ٤٦.
(٧) فاطر: ٩.

خاتمة في:

١ ـ الروايات الواردة في مشروعية التوسّل والتشفّع والتبرّك:

الروايات في هذا المجال كثيرة جدّاً، نشير إلىٰ بعض ما ورد منها في الكتب السنّية:

١ ـ ما أخرجه البخاري في صحيحه عن الجعيد بن عبد الرحمن قال: (سمعت السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتي إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالت: يارسول الله إن ابن أختي وجع، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة وتوضّأ فشربت من وضوئه)(١).

٢ ـ كذلك روىٰ البخاري في صحيحه عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: (رأيت رسول الله ﷺ في قبّة حمراء من أدم، ورأيت بلالاً أخذ وضوء رسول الله ﷺ ورأيت الناس يتبدّرون ذاك الوضوء، فمن أصاب منه شيئاً تمسّح به،

(١) صحيح البخاري: ج٤ كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ص١٦٣.

ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه)(١).

٣ ـ وأخرج مسلم في صحيحه عن أنس قال: (لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلّاق يحلقه وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلّا في يد رجل)(٢).

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم تعليقاً على مثل هذه الروايات: (وفي هذه الأحاديث بيان بروزه ﷺ للناس وقربه منهم... وإجابته من سأله حاجة أو تبريكاً بمسّ يده وإدخالها في الماء كما ذكروا، وفيه التبرّك بآثار الصالحين وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرّك بآثاره ﷺ وتبرّكهم بإدخال يده الكريمة في الآية وتبرّكهم بشعره الكريم وإكرامهم إياه أن يقع شيء منه إلّا في يد رجل سبق إليه)(٣).

إذن هذه الشواهد وغيرها كاشفة عن أن سيرة المسلمين منذ الصدر الأول كانت قائمة على التبرّك بما يتصل بالنبيّ الأكرم ﷺ، من دون ردع ونهي، وهذا دالّ على مشروعية ما كان يأتي به الصحابة، وقلنا أن التبرّك يجتمع مع التوسّل والاستغاثة في ماهية واحدة وهي التوسيط، فالتبرّك طلب البركة ونوع توسّل واستشفاع بما يرتبط بالأولياء والأوصياء والحجج من أشياء.

٤ ـ وفي الجامع الصغير للسيوطي: (غبار المدينة شفاء من الجذام)(٤)، وقال المناوي في فيض القدير بعد نقل مثل هذه الروايات: (قال السمهودي: قد

---

(١) صحيح البخاري: ج١ كتاب الصلاة، باب الصلاة في الثوب الأحمر ص٩٢.

(٢) صحيح مسلم: ج٧ ص٧٩.

(٣) شرح مسلم: ج١٥ ص٨٢.

(٤) الجامع الصغير: ج٢ ص١٩٧.

شاهدنا من استشفىٰ به منه وكان قد أضرّ به فنفعه جدّاً)[١].

٥ـ أخرج الحاكم في المستدرك عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتىٰ النبيّ ﷺ فقال: يارسول الله علّمني دعاءً أدعو به يردّ الله عليّ بصري، فقال له: قل: «**اللّهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيك نبيّ الرحمة، يامحمّد إني قد توجّهت بك إلى ربّي، اللّهم شفّعه فيّ وشفّعني في نفسي**» فدعا بهذا الدعاء، فقام وقد أبصر[٢].

٦ـ روىٰ البيهقي في خبر صحيح إنه في أيام عمر جاء رجل إلىٰ قبر النبيّ ﷺ فقال: يامحمّد استسق لأمتك، فسقوا[٣].

٧ـ أخرج النسائي عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، وصلّوا عليّ، فإنه من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله، أرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة**»[٤].

٨ـ روىٰ مسلم عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال: «**ما من ميّت تصلّي عليه أمة من المسلمين يبلغون مئة كلّهم يشفعون له إلّا شفّعوا فيه**»[٥].

٩ـ روىٰ مسلم أيضاً عن النبيّ ﷺ قال: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على**

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج٤ ص٥٢٦.
(٢) المستدرك: ج١ ص٥٢٦.
(٣) سنن البيهقي: ج٣ ص٣٢٦.
(٤) سنن النسائي: ج٢ ص٢٦.
(٥) صحيح مسلم: ج٣ ص٥٣.

جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئاً إلّا شفّعهم الله فيه»[(١)].

١٠ ـ ما أخرجه الطبراني وغيره عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا خرج الرجل من بيته إلى الصلاة فقال: اللّهم إني أسألك بحقّ السائلين عليك وبحقّ ممشاي، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت، وكّل الله عزّوجلّ به سبعين ألف ملك يستغفرون له، وأقبل الله تعالى عليه بوجهه حتى يقضي صلاته»**[(٢)].

١١ ـ كذلك ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: **«من سرّه أن يوعيه الله عزّوجلّ حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم،فليكتب هذا الدعاء في إناء نظيف، أو في صحفة قوارير بعسل وزعفران وماء مطر ويشربه على الريق، وليصم ثلاثة أيام، وليكن إفطاره عليه،فإنه يحفظها إن شاء الله عزّوجلّ، ويدعو به في أدبار صلواته المكتوبة:**

اللّهمّ إني أسألك بأنك مسؤول لم يُسأل مثلك ولا يُسأل، أسألك بحقّ محمّد رسولك ونبيّك وإبراهيم خليلك وصفيّك وموسى كليمك ونجيّك وعيسىٰ كلمتك وروحك، وأسألك بصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسىٰ وفرقان محمّد ﷺ، وأسألك بكلّ وحي أوحيته وبكلّ حقّ قضيته وبكلّ سائل أعطيته، وأسألك بأسمائك التي دعاك بها أنبياؤك فاستجيب لهم، وأسألك باسمك المخزون المكنون الطهر الطاهر المطهّر المبارك المقدّس الحيّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) كتاب الدعاء / الطبراني: ص ١٤٥، مسند أحمد: ج٣ ص ٢١.

القيّوم ذي الجلال والاكرام، وأسألك باسمك الواحد الأحد الصمد الفرد الوتر الذي ملأ الأركان كلّها، وأسألك باسمك الذي وضعته على السماوات فقامت، وأسألك باسمك الذي وضعته على الأرضين فاستقرّت، وأسألك باسمك الذي وضعته على الجبال فرست، وأسألك باسمك الذي وضعته على الليل فأظلم، وأسألك باسمك الذي وضعته على النهار فاستنار، وأسألك باسمك الذي يحيى به العظام وهي رميم، وأسألك بكتابك المنزل بالحقّ ونورك التام، أن ترزقني حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم وتثبّتها في قلبي، وأن تستعمل بها بدني في ليلي ونهاري أبداً ما أبقيتني ياأرحم الراحمين)(١).

١٢ ـ أخرج الهيثمي في مجمع الزوائد عن العباس عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«قال داود: أسألك بحقّ آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب»**(٢).

١٣ ـ روى جمال الدين الزرندي الحنفي عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إذا هالك أمر فقل: اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّد اللّهم إني أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد أن تكفيني شرّ ما أخاف وأحذر، فإنك تكفىٰ ذلك الأمر»**(٣).

١٤ ـ أخرج الحاكم الحسكاني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما نزلت الخطيئة بآدم وأُخرج من جوار ربّ العالمين، أتاه جبرئيل فقال: ياآدم أدع ربّك، قال: ياحبيبي جبرئيل وبما أدعوه؟ قال: قل: ياربّ أسألك بحقّ الخمسة الذين تخرجهم من صلبي آخر الزمان إلّا تبت عليّ ورحمتني، فقال:**

---

(١) كتاب الدعاء / الطبراني: ص٣٩٨.

(٢) مجمع الزوائد: ج٨ ص٢٠٢.

(٣) نظم درر السمطين: ص٤٩.

حبيبي جبرئيل سمّهم لي، قال: محمّد النبيّ وعليّ الوصيّ وفاطمة بنت النبيّ والحسن والحسين سبطيّ النبيّ، فدعا بهم آدم فتاب الله عليه، وذلك قوله: ﴿ فَتَلَقَّىٰ ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ وما من عبد يدعو بها إلّا استجاب الله له»(١).

١٥ ـ وأخرج الحاكم النيسابوري في المستدرك عن ابن عباس قال: **«أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ عليه السلام ياعيسىٰ آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلّا الله محمد رسول الله فسكن»** قال الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه.(٢)

وقد تقدّمت هذه الرواية عن السيوطي في الدرّ المنثور وغيره بألفاظ أخرىٰ فراجع، وقد جاء فيها أن سبب جعل تلك الكلمات واسطة ووسيلة هو حفاوتهم وكونهم أحبّ الخلق لله عزّ وجلّ، كما تقدّم في قول إبراهيم عليه السلام ﴿ **إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا** ﴾.

ب ـ آراء أعلام السنّة في التوسّل:

١ ـ قول مالك للمنصور العباسي الدوانيقي عندما سأله قائلاً: أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله؟: (ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلىٰ الله تعالىٰ يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به)(٣).

---

(١) شواهد التنزيل: ج١ ص١٠٢.

(٢) المستدرك: ج ٢ ص ٦١٥.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ / القاضي عياض: ج٢ ص٤١.

٢ ـ قال أبو بكر تقي الدين الحصني الدمشقي الشافعي: (ومن أنكر التوسّل به والتشفّع به بعد موته وأن حرمته زالت بموته فقد أعلم الناس ونادىٰ علىٰ نفسه أنه أسوأ حالاً من اليهود، الذين يتوسلون به قبل بروزه إلىٰ الوجود، وأن في قلبه نزغة هي أخبث النزغات)(١).

٣ ـ قال الحافظ تقيّ الدين السُبكي: (ولم يزل أهل العلم ينهون العوام عن البدع في كلّ شؤونهم ويرشدونهم إلىٰ السنّة في الزيارة وغيرها إذا صدرت منهم بدعة في شيء، ولم يعدّوهم في يوم من الأيام مشركين بسبب الزيارة أو التوسّل، كيف وقد أنقذهم الله من الشرك وأدخل في قلوبهم الإيمان، وأول من رماهم بالإشراك بتلك الوسيلة هو ابن تيمية وجرىٰ خلفه من أراد استباحة أموال المسلمين ودمائهم لحاجة في النفس)(٢).

٤ ـ ما نقله المناوي في فيض القدير عن السُبكي مرتضياً له، حيث قال: (قال السبكي: ويحسن التوسّل والاستعانة والتشفّع بالنبيّ ﷺ إلىٰ ربّه، ولم ينكر ذلك أحد من السلف ولا من الخلف، حتىٰ جاء ابن تيمية فأنكر ذلك وعدل عن الصراط المستقيم، وابتدع ما لم يقله عالم قبله، وصار بين أهل الإسلام مثله)(٣).

وهذه العبارة عن السُبكي وسابقتها تكشف عن اجماع الطوائف السنّية علىٰ مشروعية التوسّل، ولم ينكر ذلك إلّا ابن تيمية ومن جاء بعده.

٥ ـ قال السمهودي في وفاء الوفا نقلاً عن كتاب العلل والسؤلات لعبدالله بن

(١) دفع الشبه عن الرسول والرسالة: ص١٣٧.

(٢) السيف الصقيل: ص١٧٩.

(٣) فيض القدير: ج٢ ص١٦٩.

أحمد بن حنبل: (قال عبدالله: سألت أبي عن الرجل يمسّ منبر رسول الله ﷺ ويتبرك بمسّه ويقبّله ويفعل بالقبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالىٰ؟ قال: لا بأس به)(١).

٦ـ كذلك عن إسماعيل بن يعقوب التيمي، قال: (كان ابن المنكدر يجلس مع أصحابه وكان يصيبه الصمات، فكان يقوم كما هو ويضع خدّه علىٰ قبر النبيّ ﷺ ثم يرجع، فعوتب في ذلك، فقال: إنه ليصيبني خطرة، فإذا وجدت ذلك استشفيت بقبر النبيّ ﷺ)(٢).

نكتفي بهذا المقدار من الأقوال.

* **** *

(١) وفاء الوفا: ج٢ ص٤٤٣، كذلك في سبل الهدى والرشاد / الصالحي الشامي: ج١٢ ص٣٩٨.

(٢) وفاء الوفا: ج٢ ص٤٤٤.

خلاصة البحث

١ ـ إنّ التوسّل والتوجّه والتشفّع والتبرّك والتشفّي وطلب قضاء الحاجات كلّها عناوين لطبيعة واحدة، وهي ضرورة الواسطة بين العبد وربّه.

٢ ـ إنّ التوسّل والتوجّه والتشفّع والتبرّك بأسماء وآيات وكلمات الله وبأمر منه تعالىٰ هو خالص التوحيد وليس شركاً ولا كفراً، بل عدم الانصياع لأمره تعالىٰ بالتوجّه والتوسّل والتشفع بها لطلب القرب والزلفىٰ إليه تعالىٰ هو كفر واستكبار لأنه خروج على أمره تعالىٰ.

٣ ـ الذوبان وتمام الانصياع للوسائط والوسائل لطلب الزلفىٰ إلىٰ الله تعالىٰ هو عبادة لله لا للوسائط أو الوسائل لأنه ذوبان وانصياع في تفضيل أمر الله تعالىٰ وهو معنى العبادة.

٤ ـ أن التوسّل شرط شرعي في قبول التوبة وسائر العبادات ونيل المقامات.

٥ ـ أن التوسّل ضرورة عقلية وتاريخية وأديانية وقرآنية وروائية.

٦ ـ أن الوسائط المرفوضة في القرآن الكريم هي الوسائط المقترحة من قبل العبيد دون الوسائط المنصوبة من الله عزّ وجلّ.

٧ ـأن من الأسباب المهمّة في إنكار التوسّل القول بالتجسيم أو نبوءة العقل.

٨ ـأن الاعراض عن الآيات الإلهية وترك التوسّل بها موجب لحبط الأعمال والخسران في الدنيا والآخرة.

٩ ـلا فرق بين التوسّل والشفاعة إلّا باللحاظ.

١٠ ـإن التوسّل والاستغاثة والتبرّك والاستشفاء من وادٍ واحد، وهي مصاديق متعدّدة لماهية واحدة.

١١ ـإنّ التوسّل توحيد الله الأعظم، وهو أبلغ أنواع التعظيم والخضوع لله تعالىٰ.

١٢ ـإنّ جعل شيء وسيلة يتضمّن في طيّات معناه عدم التأليه وأنّه واسطة لغيره وغيره هو الغاية، وأنما المشركون أشركوا لأنهم اقترحوا الوسيلة إلىٰ الله تعالىٰ من ملء إرادتهم وتحكيمها علىٰ إرادة الله، فجعلوا لأنفسهم صلاحيات الألوهية.

١٣ ـإن الله تعالىٰ غاية الغايات وليس وسيلة كي يتوسّل به مباشرة، فمن يجعل الله وسيلة لغاية غيره يكون مشركاً.

١٤ ـإنّ التوسّل بالوسيلة هو حقيقة معتقد الشهادة الثانية والثالثة وحقيقة النبوّة والرسالة والولاية.

١٥ ـإنّ التوسّل من أعظم أبواب العبادات والقربات إلىٰ الله تعالىٰ.

* **** *

ثبت المصادر

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الصحيفة السجادية

الإمام زين العابدين، مؤسسة الإمام المهدي، ط١، ١٤١١هق.

٣ ـ فقه الرضا

علي بن بابويه القمي، مؤسسة آل البيت، ط١-١٤٠٦هـ.

٤ ـ المحاسن

البرقي، دار الكتب الإسلامية.

٥ ـ كمال الدين وتمام النعمة

الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

٦ ـ التوحيد

الشيخ الصدوق، جماعة المدرسين، ١٣٨٧هـ.

٧ ـ معاني الأخبار

الصدوق، النشر الإسلامي، ١٣٦١هـ.

٨ ـ تفسير القمي

علي بن إبراهيم القمي، مؤسسة دار الكتاب، ط٣ـ٩ـ١٤٠٤هـ.

١٠ ـ تفسير فرات الكوفي

وزارة الثقافة والارشاد الإسلامي، ط١ ـ ١١ ـ١٤١٠هـ.

١٢ ـ الهداية الكبرى

الحسين بن حمدان الخصيبي، مؤسسة البلاغ بيروت، ط٤ ـ ١٤١١هـ.

١٣ ـ كتاب الغيبة
النعماني، مكتبة الصدوق ـ طهران.
١٤ ـ علل الشرائع
الصدوق، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ.
١٥ ـ الكافي
محمد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ.
١٦ ـ التبيان في تفسير القرآن
الطوسي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٩هـ.
١٧ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن
الطبرسي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
١٨ ـ وسائل الشيعة
الحر العاملي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط٢، ١٤١٤هـ.
١٩ ـ تفسير العياشي
محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.
٢٠ ـ الوسيلة إلى نيل الفضيلة
ابن حمزة، مكتبة المرعشي النجفي، قم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٢١ ـ تاويل الآيات
السيد شرف الدين الاستراآبادي، مدرسة الامام المهدي ـ قم، ط١ ـ ١٤٠٧هـ
٢٢ ـ المقنع
الصدوق، مؤسسة الإمام المهدي، قم، ١٤١٥هـ.

٢٣ ـ الخصال
الصدوق، جماعة المدرسين، قم، ١٤٠٣هـ.
٢٤ ـ روضة الواعظين
الفتال النيسابوري، منشورات الرضي، قم.
٢٥ ـ تهذيب الأحكام
الشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية، ط ٤، ١٤٠٧هـ.
٢٦ ـ النهاية
الشيخ الطوسي، دار الأندلس، بيروت.
٢٧ ـ كفاية الأثر
الخزاز القمي الرازي، بيدار، قم، ١٤٠١هـ.
٢٨ ـ الأمالي
الشيخ الطوسي، دار الثقافة، قم، ط ١، ١٤١٤هـ.
٢٩ ـ الاحتجاج
الطبرسي، دار النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ.
٣٠ ـ البرهان في تفسير القرآن
السيد هاشم البحراني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.
٣١ ـ الأمالي
الصدوق، مؤسسة البعثة، ط ١، ١٤١٧هـ.
٣٢ ـ بصائر الدرجات
محمد بن الحسن الصفار، مؤسسة الأعلمي ـ طهران، ١٤٠٤هـ.
٣٣ ـ عدة الداعي
ابن فهد الحلي، مكتبة الوجداني ـ قم.

٣٤ ـ كامل الزيارات

ابن قولويه، مؤسسة نشر الفقاهة، ط١ ـ ١٤١٧ هـ.

٣٥ ـ مختصر بصائر الدرجات

الحسن بن سليمان الحلّي، المطبعة الحيدرية، النجف، ط١، ١٣٧٠هـ.

٣٦ ـ الغدير

الأميني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٧ ـ شرح احقاق الحق

السيد المرعشي، مكتبة المرعشي النجفي، قم.

٣٨ ـ بحار الأنوار

محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٣٩ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام

الصدوق، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٤٠ ـ لسان العرب

ابن منظور، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٤١ ـ مسند أحمد بن حنبل

دار صادر، بيروت.

٤٢ ـ صحيح البخاري

دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٤٣ ـ صحيح مسلم

دار الفكر، بيروت.

٤٤ ـ مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

محمد بن سليمان الكوفي القاضي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، ١٤١٢هـ.

٤٥ ـ سنن النسائي

دار الفكر بيروت، ط١، ١٣٤٨هـ.

٤٦ ـ تفسير القرآن العظيم

ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ.

٤٧ ـ البداية والنهاية

ابن كثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٤٨ ـ كتاب الدعاء

الطبراني، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

٤٩ ـ المستدرك على الصحيحين

الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٥٠ ـ جامع البيان

ابن جرير الطبري، دار الفكر بيروت، ١٤١٥هـ.

٥١ ـ الدر المنثور

جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٦٥هـ.

٥٢ ـ الجامع الصغير

جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.

٥٣ ـ فيض القدير

المناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٥٤ ـ شواهد التنزيل

الحاكم الحسكاني، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، ١٤١١هـ.

٥٥ ـ السيف الصقيل

الحافظ تقي الدين السبكي، مكتبة زهران.

٥٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ

القاضي عياض، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٥٧ ـ وفاء الوفا

السمهودي.

٥٨ ـ نظم درر السمطين

الزرندي الحنفي، ط١، ١٣٧٧هـ.

٥٩ ـ كشف الغمة

الأربلي، دار الأضواء بيروت، ط٢ ص١٤٠٥هـ.

٦٠ ـ دفع الشبه عن الرسول والرسالة

تقي الدين الحصني الدمشقي الشافعي، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ.

٦١ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٦٢ ـ زاد المسير في علم التفسير

ابن الحوزي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

٦٣ ـ تحفة الأحوذي في شرح الترمذي

مبارك فوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٦٤ ـ ميزان الاعتدال

الذهبي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٨٢هـ.

٦٥ ـ المعجم الكبير

الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

٦٦ ـ الطبقات الكبرى

ابن سعد، دار صادر، بيروت.

٦٧ ـ الجامع لأحكام القرآن

القرطبي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٦٨ ـ فضائل مكة والسكن فيها

الحسن بن يسار البصري، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٠هـ.

٦٩ ـ معجم البلدان

ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٧٠ ـ الأم

الشافعي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٧١ ـ المجموع في شرح المهذب

النووي، دار الفكر، بيروت.

٧٢ ـ مغني المحتاج

الخطيب الشربيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٧هـ.

٧٣ ـ مواهب الجليل

الحطّاب الرعيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٧٤ ـ حواشي الشرواني

عبدالحميد الشرواني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧٥ ـ السنن الكبرى

البيهقي، دار الفكر، بيروت.

٧٦ ـ الفصول المهمة

ابن الصباغ المالكي، دار الحديث، ط١، ١٤٢٢هـ.

٧٧ ـ فضائل الصحابة

أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٨ ـ إملاء ما من به الرحمن
أبو البقاء العكبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ.
٧٩ ـ فتح القدير
الشوكاني، عالم الكتب.
٨٠ ـ سبل الهدى والرشاد
الصالحي الشامي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤١٤هـ.
٨١ ـ كنز العمال
المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ.
٨٢ ـ جلاء الأفهام
ابن قيم الجوزية، تحقيق محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة.
٨٣ ـ مناقب أمير المؤمنين
ابن المغازلي الشافعي.
٨٤ ـ تاريخ مدينة دمشق
ابن عساكر، دار الفكر، ١٤١٥هـ.
٨٥ ـ شرح نهج البلاغة
ابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٨هـ.
٨٦ ـ السقيفة وفدك
أبو بكر الجوهري البغدادي، شركة الكتبي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ.
٨٧ ـ فتح العزيز في شرح الوجيز
عبد الكريم الرافعي، دار الفكر، بيروت.
٨٨ ـ سنن الدارقطني
علي بن عمر الدارقطني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

٨٩ ـ روضة الطالبين

محيي الدين النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٠ ـ فتح المعين

المليباري الهندي، دار الفكر، ط ١، ١٤١٨.

٩١ ـ لسان الميزان

ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ.

٩٢ ـ شعار اصحاب الحديث

محمد بن إسحاق الحاكم، دار الخلفاء، الكويت.

٩٣ ـ سنن أبي داود

السجستاني، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.

٩٤ ـ كتاب المصنف

أبو بكر عبدالرزاق الصنعاني، المجلس العلمي.

٩٥ ـ الأذكار النووية

يحيى بن شرف النووي، دار الفكر، ١٤١٤هـ.

٩٦ ـ المعجم الأوسط

الطبراني، دار الحرمين، ١٤١٥هـ.

٩٧ ـ الإغاثة بادلة الاستغاثة

حسن السقاف، مكتبة الإمام النووي، عمان، ط ١، ١٤١٠هـ.

٩٨ ـ عقد الدرر في أخبار المهدي المنتظر

عبد العزيز الشافعي المقدسي.

٩٩ ـ ينابيع المودة

القندوزي الحنفي، دار الأسوة، ط ١، ١٤١٦هـ.

١٠٠ ـ كتاب العين

الفراهيدي، مؤسسة دار الهجرة، ط٢، ١٤٠٩هـ.

١٠١ ـ الصحاح

الجوهري، دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧هـ.

١٠٢ ـ النهاية في غريب الحديث

ابن الأثير مؤسسة إسماعيليان، قم، ط٤، ١٤٠٦هـ.

١٠٣ ـ كشف الخفاء

اسماعيل بن محمد العجلوني، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢ ـ ١٤٠٨هـ.

١٠٤ ـ فتح الباري

ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة ـ بيروت، ط٢.

١٠٥ ـ شرح صحيح مسلم

النووي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٢ ـ ١٤٠٧هـ.

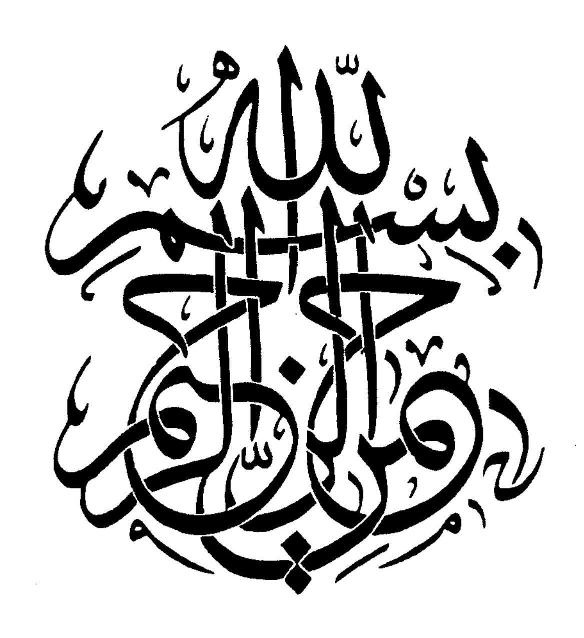
المحتويات

الفصل الأوّل

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع


بسم الله الرحمن الرحيم